عبد الله الطيب

من حقيبة الذكريات





عبد الله الطيب

ولد بغرب الدامر فى ٢ يونيو ١٩٢١

والداه الطيب عبد الله الطيب وعائشة جلال الدين الطيب،

تعلم بمدرسة كسلا والدامر وبربر وكلية غردون بالخرطوم والمدارس العليا وجامعه لندن

نال الدكتوراه سنة ١٩٥٠ — عمل بالتدريس بامدرمان الاهلية وكليه غردون وبخت الرضا وكلية الخرطوم الجامعية وجامعة الخرطوم وجامعة لندن وغيرها .

اسس كلية نايجرو بكنو .

كان عميد كلية الآداب بجامعة الخرطوم ثم مديرا لجامعة الخرطوم ثم مديرا لجامعة جوبا .

الآن استاذ للعربية بفاس بجامعة سيدى محمد ابن عبد الله ، واستاذ ممتاز بجامعة الخرطوم.

له عدة مؤلفات اهمها المرشد الى فهم اشعار العرب وصناعتها وهو عضو عامل بمجمع اللغة العربية بالقاهرة منذ سنة ١٩٦١

من حقيبة الذكريات

١/١٢

عبدالله الطيب

من حقيبة الذكريات

١٩٨٣

الطبعــة الاولـــى

١٩٨٣

الناشرون : دار جامعة الخرطوم للنشر

المطابعون

المؤسسة العامة للمطابع التربوية

ذو القعدة ١٤٠٣هـ ـ سبتمبر ١٩٨٣

بســم الله الرحمن الرحيــم

والحمد لله جل وعلا • وصــلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصــحبه وسلم تسليما كثيرا • اللهم اجعلنا بشفاعته من الناجين • ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حســنة وقنا عذاب النار • ســبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين •

تمهيـــــد

كانت كلية غردون التذكارية The Gordon Memorial College ذروة التعليم فى السـودان الانجليزى المصرى • السـودان الانجليـزى المصرى ترجمـة The Anglo-Egyptian Sudan •

وبذلك كانت تُعَنون الخرائط التى كانت تصدرها مصلحة المساحة بحكومة السـودان • ولكن فى الاطالس والخرائط المصرية كان اسـمه السـودان المصرى الانجليزى •

كان سبب انشاء كلية غردون فيما زعموا أن اللورد كتشنر بعد انتصـار مكسيمه المبير على حراب الخليفة عبد الله التعايشى وفرسـانه فى معركـة كررى — التى قد يقال لها أيضا موقعة أمدرمان — فى سبتمبر ١٨٩٨م عمد ليأسو بعض الجرح الذى جرحه بدعوة مواطنيه البريطانيين أن يتعاونـوا فيصنعوا مؤسسـة تعليمية بالخرطوم تحمل اسـم شـهيد الامبراطورية الجنرال غردون ويتألفون بها أهل المسـتعمرة الجديدة* آخذين بأيديهم شيئا فشيئا الى مدارج النور والمدنيـة الحديثـة •

افتتحت كليـة غردون سـنة ١٩٠٣ • وكان الناس أول أمـرهم متهيبين لتعليمها محجمين عنه يخافون أن تكون عاقبته الى كفر وتنصير •

واحتيل على بعض المواطنـين فجىء بأبنائهـم وقراباتهم فـردا واثنين وثلاثـة ليظهـروا بذلك ولاءهم للعهد الجديـد • فأقبـل من أقبـل منهم بتقيـة وحـذر •

واقتضت سياسة الحكومة آنئذ أن يجاء أيضا بطائفة من أبناء المواطنـين كانوا يدرسون بالازهر الشريف مقيمين برواق السنارية كشأن الماضـين من أسلافهم فيدخلوا فى كلية غردون لينهلوا من كوثر تعليمها العصرى المتمدن •

حاشية : كان للسودانيين بالازهر الشريف رواق سنار وأنشأه ملوك سنار

الذين كانوا يحكمون السودان فيما بين سنة ١٥٠٣م و ١٨٢١م وكان ملكهم فيما بين سهول كردفان الى البحر الاحمر وفيما بين جنوبى أسوان الى سدود النيل وأزال ملكهم محمد على باشا وكانت تلك بداية استعمار بلادنا.
وكان السودانيون يعرفون باسم السنارية نسبة الى سنار وسنار هذه كانت العاصمة ، على النيل الازرق جنوبى مدنى وجنوبى الخرطوم بنحو من مائتى ميل أو أكثر . وكان للسودانيين رواق آخر يعرف باسم رواق دارفور وكانت دارفور غير تابعة لملوك سنار ، وكانت مملكة قائمة بنفسها نفوذها ممتد ما بين ليبيا وافريقيا الوسطى وبحيرة شاد الى غربىّ كردفان . وكان آخر ملوكها السلطان على دينار قتله الانجليز سنة ١٩١٦ وكان قد أبى أن يطاوعهم على خلع بيعة سلطان المسلمين باسطمبول .

قال الراوى : حدثنا أستاذنا الشيخ جلال ، بذلك كان يعرف فى الكلية أيام كنا طلبة واسمه الكامل محمد مجذوب بن محمد بن أحمد بن جلال الدين ولد سنة ١٣٠٥ هـ بالدامر وتوفى بها فى رمضان سنة ١٣٩٦ هـ ، وكان رحمه الله فى الدفعات الأولى من خريجى كلية غردون يحكى كيف كان التحاقه بها قال ما فحواه أن المامور المصرى الذى كان ببلدتهم قد كان رجلا صالحا لا ينقطع عن الصلاة ولاهلهم محبا وعليهم مشفقا ، فنصحهم أن يبعثوا بناشئة أبنائهم الى الكلية بالخرطوم . وجعل يحدثهم عن التعليم العصرى وفوائده وأن أبناءهم سيكونون أصحاب رتبٍ عالية وأنهم بذلك سيستمرون محتفظين بمنزلة الفضل والمجد التى هم بها معروفون . وكانوا يراجعونه القول ويذكرون له أنهم أهل قرءان وأوراد وأنهم فقراء وأن المدارس شىء بعيد من مذهبهم ويخافون منه . ولشدة شفقته عليهم جعل يخوفهم من خوفهم هذا بتذكيره لهم أن ماضى بلدتهم ومشايخ طريقتهم فى مناصرة محمد أحمد المهدى معروف وأن الانجليز وهم أصحاب السلطة الآن لايزالون يعتقدون أنكم على ولائكم القديم للمهدية . وإعراضكم عن ارسال أبنائكم ولو واحدا منهم على الاقل يقوى الشبهة والشك من جهة الحكام فيكم . وأنتم أخيار وتستحقون كل عون وتكريم . ونصيحتى لكم قلبية وخالصة

لوجه الله تعالى ومحبـــة فيكم وفى شـــيخنا هذا الولى الصـــالح نفعنا الله ببركته • وأحســـوا أن سعادة المأمور صادق فى مقاله ونصيحته فوعدوه أن يفكروا فى الامر بجدٍّ • ثم انهم عقدوا مجلسا وتشـــاوروا ولم يرض منهم أحد أن يرسل ابنه الى الخرطوم • ـ « ولكن سعادة المأمور ، ماذا تقولون له غدا ؟ »

ــ الرجل نيته طيبة ويريد لكم الخير •

ــ أقول لكم • • • •

وقر رأيهم بعد طول جدال على ارسالى • اختارونى لانى يتيم يقولون فى أنفسهم ان يكن فى هذه الكلية خير فهو ما نريده وهو ابننا • وحضر عم لى كان غائبا وكان به عـــرج وكنت أخدمه واحمـــل له الابريق فلما علم الرأى الذى صار اليه ملأ الفقراء غضب وقال لهم اتفقتم عليه دون أولادكم أنتم لأنه يتيم • فما زالوا به حتى أقنعوه بضرورة ارسالى الى كلية الخرطوم • وكان رحمه الله حريصا على بقائى • وجاء سعادة المأمور من الغد • فزعموا له أنى ابن الشيخ نفسه وانما كنت ابن أخيه وصنعوا لى اسما يناسب ذلك ظلت أدرس به حتى تخرجت ثم توظفت •

هذا وكان التخريج من كلية غردون يعطى الرتبة الحكومية والجنيهـــات الحسان والجاه النافع • فحين اكتشـــف الناس ذلك أقبلوا على المدرســـة الجديدة و التعليم الجديد أيما اقبال • ومما يحسن أن يتمثل به فى هذا الباب قول كثير عـــزة الشاعر يمـــدح عبد العزيز بن مـــروان :

وما زالت رُقاك تسل ضغنى	وتُخرِجُ من مكامنها ضِبابى
ويرقينى لك الراقون حتى	أجابت حية تحت اللِّصـــاب

وكان كثير عزة شـــيعيّاً غاليا فزعم ههنا أن عطايا عبد العزيز بن مروان كانت بالنسبة اليه كالرقى التى تداوى السموم (جمع رُقْيَة) سلت أضغان قلبه وجعلته يميل اليه وهو أحد رجـــالات بنى أمية بعد أن كان قلبه عـــن بنى أمية كلهم شديدِ النفور • قوله تخرج من مكامنها ضـــبابى أى تخرج

أحقاد قلبى وتنتزعها والعرب تسمى الضغينة ضبا وتقول هو يضمر على ضب ضغن أى يحقد على • وشبه أكبر أحقاده بالحية التى تكون فى شعاب الجبال • اللِصاب بكسر اللام جمع اللِصب بكسر اللام وسكون الصاد وهو الشعب الصغير فى الجبل •

كان أحد المشايخ الذين جىء بهم من رواق السنارية الى كلية غردون فى تلك الدفعات الاولى قد تعمقت عنده فكرة الرغبة فى التمدن العصرى • وكان دقيقا ضعيف الجسم • وكانوا يتلقون فى دروس الجغرافيا أن اعتدال الجو مقرون بالذكاء وأن الصناعات والتقدم فى بلاد أوربا لاعتدالها وبرد هوائها وأن بلاد افريقية وآسيا تغلب عليها الحرارة ويندر فيها الذكاء والتقدم وأن المدنية مع الجو المعتدل وهو البارد كأجواء انجلترا وسكتلندا وويلز وفرنسا والمانيا وهولندا وبلجيكا • وذات ليلة باردة فى شتاء الخرطوم — وربما اشتد البرد فيه أحيانا — نهض الشيخ المذكور بعد أن رقد أصحابه الذين كانوا معه فى عنبر الداخلية (العنبر غرفة كبيرة للنوم والسكنى) وفتح جميع النوافذ ثم قال بصوت مسموع ان فتح النوافذ مما تدعو اليه دروس "الأشياء والصحة"لكى يكون الهواء نقيا فى التنفس ولابعاد خطر مرض السل الذى يسببه الازدحام وفقدان الهواء النقى • الاشياء والصحة اسم احدى مواد الدروس التى كانت مقررة يراد منها اعطاء التلاميذ معلومات عامة عن بلادهم وغيرها وأن يلموا مع ذلك ببعض المعرفة عن الامراض والصحة العامة والحيوان والنبات وهلم جرا •

وكانت أرض العنبر ترابا غير مبلوط • وكان يرش من حين الى حين ليثبت • وكانت لرش العنابر جرادل كبيرة تملأ بجرادل أصغر منها • الجردل الصغير وعاء من المعدن كالدلو له يد يحمل بها • ثم يرش العنبر من الجردل الكبير « وهو ضرب من البراميل من المعدن » بالاكواز وما أشبه من الآنية • وخرج الشيخ من العنبر ثم عاد بجردل الرش الكبير يعتله على ثقله فوضعه ناحية من العنبر • ثم ملأه ماء وأخذ يرش التراب وتناثرت قطرات من الرش على الراقدين • • •

ــ ما هذا ؟ ماذا تصـــنع يا فلان ؟
ــ أرش العنبر ليبـــرد ويعتدل الجو ونتمدن .
ــ أنت مجنـــون ؟

وأخذه منهم آخذ قوى البنية فقذف به وبجرادله خارج العنبـر وصب عليه ماءها وأوصد دونه الباب . واغلقوا النوافذ وتركوا الشيخ المسـكين يقفقف من البرد فى الهواء الطلق .

ــ تمدن وحدك برّا مع دروس الاشيا والصحة .

●● ●●

لما كنا فى المدرســة الوسطى كنا نتوق الى دخول التجهيزى . كانت كليـة غوردن التذكارية يقال لها التجهيزى تعظيما لشأنها اذ كانت تجهز الشـباب بثقافتها العــالية لوظائف الحكومة الممتازة . كنا نتوق لأن يقــال عنا : " هو بيقرأ فى التجهيزى " . كنا نعد ذلك هو الفوز العظيم ولا سيما القبول مجانا وداخليا ومع منحة Scholarship لم تكن فى المدرســة الوسطى منحة ، ذلك بأن المنحة نفسها نوع من التجهيـز للمرتب . ثم من يكون فى المدرسة الوسطى ينفق عليه ولىّ أمره لصغر سنه .

كنت أقرأ مجانا داخليا فى المدرسة الوسطى . كانت تسـمى الابتدائى Pirmary ثم سميت الوسطى . هذا التغيير فيه رمز الى نوع من التطور كان قد طـرأ على روح الصراع بين الشــعور القومى الناشىء والدهاء الاستعمارى العجوز . كان اسم الابتدائى يتضمن معنى أن التعليم المتمدن حقا يبدأ فى هذه المرحلة لا فى المرحــلة التى قبلها لان التلاميذ يشرعون من عند أول هذه المرحلة فى تعلم اللغة الانجليزية . واسم المدرسة الوســطى The Intermediate School يتضمن نوعا من الاعتراف بالمرحلة التى قبلها فتكون هى مرحلة متوسطة بينها وبين التجهيزى . كانت المرحلة التى قبلها تسمى الكُتّاب وكل دروسها باللغة العربية ــ الكتاب بضم الكاف وتشــديد التاء . وبعد هذا الاعتراف الجديد ســميت المدرســة الأوليــة The elementary School واختفى اسم الابتدائى الى زمان قريب .

كلمة الكتاب بضم الكاف وتشـديد التاء عندنا لم تكن تدل على مدرسـة القرآن كما فى مصر وبعض الاقطار الاخرى • اسم هذه عندنا الخَلوة وأصل هذا اللفظ من خَلوة التعبد • وبلغنى أنه مستعمل بهذا المدلول عينه فى بلاد اليمـــن •

كان هذا التغيير طرفا من التغيير الكبير الذى أُحدث فى سياسة التعليم بعد سنة ١٩٣١ م • وهى السـنة التى وقع فيها اضراب طلبة التجهيـزى ذلك الاضراب الكبير الشهير بسبب ما عزمت عليه الحكومة من تخفيض مرتبات الخريجين من ثمانية جنيهات فى الشهر الى خمسـة • وزعمت الحكومة أن الازمة العالمية الحادة هى التى قد اضطرتها الى هذا التخفيض وأنها أيضا مضطرة الى تخفيض عام فى الوظائف وفى سائر سياساتها الاقتصـادية • واستعملت لهذا التخفيض اصطلاح اللفظ الانجليزى Retrenchment واشتق الناس من هذا اللفظ الانجليزى كلمة « ترنشوه » أى « فصلوه » من الخدمة فظل يستعمل فى لغة الكلام الدارجـة زمانا ثم زال •

كان الطلبة قد تضامنوا وحلفوا اليمين على ألا يتراجعوا • وأقلق أمرهم الحكومة فأدارت شتى وجوه الرأى والسياسة ووسطت الآباء والوجهاء من كبار الموظفين ورجال الدولة والمشايخ وزعماء البـلاد • وواجه الطلبة كل أولئك بتحدٍ وعزوف •

وخطب السيد عبد الرحمن بن المهدى فى الطلبة وكان ابنه السيد الصـديق رحمه الله من بينهم متضـامنا معهم وقال فى ما قاله لهم لما رأى من تحدى مظهر تصلبهم « هذا ليس كلام يا أبنائى • هذا ليس طريقة » • وكان رحمه الله رحب الصدر سخيا عظيم المروءة سيدا حقا • ثم انه أخرج كفارة اليمين من ماله عنهم أجمعين • وتراجعت الحكومة عن قرارها الاول من بعد الى نوع من التوسط ، فرفع المرتب من خمسة الى ستة ونصف ، وظل على ذلك الى أن تغير وضع الكلية نفسها وخلفتها المدارس العليا •

لم يكن ذلك الاضراب هو الاول فى تاريخ كلية غوردن ولكن الثانى • كـان الاضراب الاول فى أوائل فترة انشاء الكلية ، تسبب فى اثارته الذين جىء بهم

من رواق السنارية وذلك أنهم احتجوا على تقديم الطعام بالشوكة والسكين والزبدة والمربة وطالبوا بالكسرة بكسر الكاف والملاح بضم الميم • الكسرة خبز رقيق من دقيق الذرة المعجون المخمر يسيرا يصنع مبسوطا • وزعم الدكتور هنزا الالمانى عالم الاثار فى بعض حديثه لجمعية الخرطوم الفلسفية سنة ١٩٦٣ م أن السودانيين القدماء فى دولتهم التى كانت تسمى مروى فى القرون السابقة للميلاد كانوا يصنعون الكسرة ولديهم آنيتها من خمارة ومرحاكة طحين ودوكة عواسة (الدوكة تنور افطح من الفخار والآن قد يستعمل الصاج مكانه والعواسة صنع الكسرة يقال عاس يعوس) وأن كلمة الكسرة نفسها كانت مستعملة بينهم •

ونجح الاضراب الاول • وجاءت الحكومة بنساء يطحن ويَعسْن الكسرة ويسوِّين الملاح • الملاح هو الإدام الذى تؤكل به الكسرة وأخفه الماء والملح وأجله اللحم والمرق وبين ذلك ضروب الخضر •

ثم أصاب هذه التجربة الفشل • وعدلت بعد ذلك طريقة تقديم الطعام الى ما استقر عليه العمل من وجبات فطور الفول والعدس والغداء والعشاء بالطبيخ والارز مع العدس أحيانا ومع ذلك رغفان الخبز وشاى الصباح • • ولا زبدة ولا مربى ولا شوك ولا سكاكين • أجل ذلك الى انشاء مدرسة كتشنر الطبية بعد سنة ١٩٢٤ ليكون لتلامذتها امتيازا وشارة تفضيل •

لم يقع اضراب بعد اضراب سنة ١٩٣١ م حتى انتهت أيام كلية غوردن القديمة بأسرها سنة ١٩٤٥ م وهى السنة التى انتقلت فيها الاقسام الثانوية الى وادى سيدنا (شمالى ام درمان) وحنتوب (على النيل الازرق وشرق مدنى) وانتقل اسم كلية غوردن التذكارية الى المدارس العليا • ثم أزيل كلا اسمى غوردن وكتشنر باسم كلية الخرطوم الجامعية فى سنة ١٩٥١ م • وظلت هذه تابعة لجامعة لندن ، فرعا منها وراء البحار ، الى أن استقلت وصدر قانون خاص بها كافل لاستقلالها بعد أن استقل السودان نفسه فى سنة ١٩٥٦ م • رفع علم الاستقلال وجلت جيوش الاحتلال فى أول يناير وكان مبدأ العمل بقانون الجامعة فى أول يولية وهو مطلع العام

الدراسى وعرفت منذ حينئذ باسم جامعة الخـــرطوم • وكانت فيها ســبع كليات ، الآداب ، والقانون ، والطب والهندسة والعلوم والبيطرة والزراعة • وكان أول من تولى ادارتها الدكتور مايكل جرانت الذى صار فيما بعد مديرا لجامعة بلفاســت بايرلندة الشــمالية سنة ١٩٥٨ م وتتابع بعده مديــرون سودانيون كان أولهم الاستاذ نصر الحاج على وكان قد درسنا أيام كنا طلبة فى التجهيزى •

حدث تغيير اسم الابتدائى فى آخر سنة ١٩٣٢ م أو أول ســنة ١٩٣٣ م • لم نكن نعلم له سببا ولا أعلمناه أحد • كان لاسم الابتدائى بالعربى ولاسم Primary School بالانجليزى وقع لذيذ فخور فى أنفســنا •

مات أحمد بك شوقى أمير الشعراء فى سنة ١٩٣٢ م • أذكر ذلك جيدا • سمعته من أبى على الأرجح • وكان كثيرا ما ينشــد ويترنم :

صداح يا ملك الكنا   رويــا أمــير البلبــل
قد فزت منك بمعبد   ورزقت قرب الموصلى
أنا ان جعلتك فى نضا   ر بالحــرير مجـــلل
وحففته فى سوسن   ولففتــــه بقرنفــــل

الأبيـــات • •

وسألنا المدرس عن ترجمة الوســطى فقال : Intermediate

المدرسة الوســطى The Intermediate School واستصعبنا هذه الكلمة جدا •

ــ كرروا هذه الكلمة معى : Intermediate

وكررناها وحفظناها وافتخرنا بها :

I am a pupil in the intermediate School

ــ أنا تلميذ فى المدرسة الوســـطى ،

ــ يا ولد ! ! !

••• •••

ثم كانت وفاة الوالد فى ١٨ من مارس ، الثلاثاء ، سنة ١٩٣٣ م (١٣٥١ هـ)

وما كان قيس هلكه هلك واحد   ولكنه بنيان قوم تهدما

وقال أشجع الســـلمى :

مضى ابن سعيد حين لم يبق مشرق   ولا مغرب الا له فيه مادح

وقال البحـــترى :

أين العبوس المشمئزُّ اذا رأى   جنفاً وأين الابلجُ البسام

سكن العُلىَ أودى فهنَّ ثواكل   وأبو العُفَـاةِ ثوى فهم أيتام

ويتم بنيه خاصـــةً أوجع من يتم العفاة ، وهم القصّـاد طلاب المعروف واحدهم العافى • قال الشـــاعر :

وإنّى امرؤ عافى انائى شِرْكَةٌ   وأنْتَ امرؤ عافِى إنائك واحد

أى قاصـد إنائى شركة من الناس جماعة يشتركون فى طعامى وقاصد إنائك شخص واحد هو أنت • أى أنا كريم وأنت بخيل •

هذا ، وقد اشتد علينا الفقر بعد وفاة الوالد كل اشـتداد • واضـطرتنا الحاجة أن نترك منزلنا ليستأجر ونرحل لنسـكن فى بقايا اطلال دار جدنا عبد الله فى الزمان القديم • كان عهدنا بتلك الدار بعيدا • سنوات مضين • يذكر أيام طفولته الاولى بها اذ هو ابن أربع • كانت أمامها غابـة لفاء من أشجار السـنط • كأنه يرى الآن أخته الكبيرة ــ كانت أكبر منه ببضـع سنين ــ تصعد احداهن للقط القرظ • كان الناس آنئذ يعرفون فائدة القرظ ويجمعونه ويجنون الصـمغ ويحتطبون •

كأنى أرى المحاجين • أرى انسانا يعالج « مُحجانا » (١) • المحجان عود محقوف الرأس لتناول ما بعد من أغصـان الشجر وهزها ليتسـاقط البرم والقرظ ولتكسير الخشب اليابس منها وهلم جـرا • لعلها أمنا خـادم الله أم الطيب • ربت الوالد بعد موت أمه • لم يتزوج جدنا عبد الله بعدها وبقى

---

(١) المحجان بضم الميم فى الدارجة عصا طويلة معطوفة لجذب الاشياء وهى المحجن بكسر الميم والمحجنة فى اللغة الفصيحة وقد وقع ضم الميم فى بعض أسماء الآلة فى الفصيح .

أرملا وعمر طويـــلا . لم أره ولكن ســـمعت عنه كثيرا . رأته أختى وقالت كان أخضر غير شديد الخضرة . رأيت جدى جـــلال الدين أبا الوالدة وهـــو أخو جدنا عبد الله . أصـــفر فاتح دان الى الحمرة . كان رحمـــه الله طويلا أصـــلع تقدمت به الســـن فكان فيـــه حنا ، كالذى ذكره عـــوف بن محـــلم الشـــيبانى حيث قـــال :

إن الثمـــانين وبُلِّغتَها قد أحوجت سمعى الى ترجمان
وبدلتنى بالشطاط الحنا وكنت كالصعدة تحت السنان
وجعلت بينى وبين الورى عنانة من غـــير نسج العنان

الشطاط اعتدال القامة . الصعدة قناة الرمح . عنانة سحابة . شكا عوف ابن محلم انحناء الظهر وضعف السمع والبصر بسبب الثمانين . وكان جدنا جلال الدين رحمه الله وقد جاوزها قوى الســـمع والبصر يضـــع الخيط فى الابرة فيصلح ثيابه . وكان دمثا لين العريكة كل اللين . قالـــوا وكـــان أخوه شديدا مر الشـــكيمة . قال أستاذنا الشيخ جلال فيما خبرنى به عنه أنه لم يكن يتردد من قولة الحق ولا يعجبه الخمج . قال : وكان يحب قهـــوة البن ويتولى عملها بنفسه ولديه جميع آنيتها . ولمـــا أخذ جماعة من أهـــل البلد خلافة الطريقة الختمية ، وكان من بينهم أخـــونا محمـــود ، لم يعجبه ذلك ، فكان يقول :

ـــ الغبا لخلافة محمود ، (أى ياللغباء لخلافة محمود)

ولما جاء أبوك فى عطلة الكلية الصيفية بعد غيبته الطـــويلة ـــ اذ قبل ذلك كان فى مصر ـــ جاء وعليه جبة وقفطان باكمام جميلة طويلة فضفاضـــة وكان عمنا الشيخ الطيب رحمة الله عليه حســـن الهندام يعتنى به وكانت كذلـــك « الموضة » . ولكن أبونا عبد الله لم يعجبه منظر ابنه بهذا الزى الغـــريب ولا غيبته الطويلة وذهابه من مصر مباشرة للالتحاق بالكلية من دون تعريج عليه هو والده الذى كان ملتهب القلب لفراقه أولا :

ـــ دحين جيتنى بخـــراتيك دى مدلدلها

أى آلآن أجئتنى بهذه الاكياس الفوارغ المتدلدلات ؟

قالوا وكانت الجبة والقفطان زى الكلية فى زمـان مضى • ثم أُلبس طلبة الهندسة والمساحة البدلة • ثم ألبس طلبة كتشنر البدلة • ثم جعل الافندية يلبسون البدلة وصارت الجبة لبس المشايخ والقضـاة الشرعيين • ولبس تلاميذ الكلية الجلابية البيضـاء وعمامة القطن الناعمة الهفهافة • ثم لما انتهى أمر التجهيزى وتعددت الثانويات صار زيها الشـورت والقميص — (الشورت سراويل أفرنجية قصـيرة) • وزى طلبـة الجامعـة القميص والبنطلون وزى الطالبات الثوب الابيض • ثم جعل أمر الزى بأخرة تتداخله عناصر كثيرة متنوعة •

هذا ، والطيب الذى فى كنيـة أمنا خادم الله ابن عم للوالد ، أبوه جـدنا محمد • وسـألنا عنه فقيل مات فى بلد التليـان أى ارتريـا فالله أعلم ما صـحة ذلك •

كنت أسـير بجانب النيل فى زمان الدميرة ، أى الفيضـان • ولون النيل أحمر يستدير حلقات حلقات عند الشاطىء العالى المخيف المنذر بالهـدام • وسـقطت الملابس من على كتفى ووقعت فى البحـر • وكانت ملفوفة فى حزمـة • فانفرطت الحزمة • وأرى الجلابية « المظهرة » تطفو يبتعد بها التيار • وحاولت النزول وكنت لا أعرف السباحة وجعلت أنظر اليها بانهزام مخزى • وذهبت بعيدا واحمر بها لون الدميرة وكان ذلك آخر العهد بها • وانما تعلمت السباحة فى حوض كلية غوردن سنة ١٩٣٧ فى نصفها الثانى فى وقت وجيز وكان الحوض قد بنى فى ذلك العام •

واذكر لما طلب الوالد من ريس المركب أن يعلمنى السباحة • وهذا كان من العجب اذ منعنى رحمه الله من ركوب « التكن » (بضم التاء والكاف) — والتكن مقعد سائق بقر الساقية وراءها شبيه بالكرسى باحدى السـواقى ، أظنها ساقية شيخ البلد رحمه الله ولا أعلم أقال لى ذلك أم قالـه له غيره أن التكن بسواقى الرباطاب ضـعيف ينبغى الاحتراس منه • وأحسـب أحد

الناس حذر من التماسيح • وكان الشاطىء بمقرات عاليا ، أعلى بكثير من شواطىء بلد الجعليين • وكانوا يحفرون جانبا منه بميلان فينزلق عليه الصغار وترد النساء •

والشاطىء من جانبى الدامر عالٍ ولا سيما بناحية الغرب • وكانت المراكب تجر من مسافة بعيدة بحبل طويل ويتكاثر الناس فيمسكون بالحبل وفى بعض نواحى الشاطىء العالى المنهار يوجد التواء وعرق الماء شديد وأذكر مرة أن انقطع الحبل فبعض الناس كان بالبر وحميرهم وامتعتهم فى البحر •
وربما جروا المركب على شاطىء جزيرة وسط النيل ذات أعشاب وعشر وطرفاء مشتبكة فترى الأورال تتواثب فى الماء لاذنابها ايقاع • هذا وقد ابطلت البنطونات ذات المحركات القوية فى كثير من قرى النيل مراكب السنط والحراز •

واعلم أن التمساح لا ينهزم عنك كالورل ولكن يتقهقر مستقبلك لا يدبر لانه مقاتل غدار • ومن خبرك أن النيل تمدن وخلا من التماسيح فلا تلتفت اليه اذ صغار التمساح قد يكون طولها ثلاثة سنتمرات أو اكثر شيئا ما وتستطيع أن تسبح فى طول النيل الى ما شاء الله لا تمنعها قنطرة أو سدود ، اذ ما من سد الا وله أبواب لها أوقات تفتح فيها وتسد • وفى الشاطىء ذى الصخور أو الاعشاب يكون التمساح مختبئا يراك ولا تراه • ويشحو فاد ويسكن سكونا لا حركة معه الساعات الطوال • ويعمّر القرون المتتابعات • وقد يبلغ طوله عشرة أذرع والذراع البلدى قريب من ستين سنتمترا • وقد يخطف الثور الجسيم كلمح البصر ويركب على ظهره ويغطس به حتى يموت ثم يتركه بعد فى الطين ليعفن ويلين وهكذا يأكل التمساح فريسته • والتمساح الجاسر ربما عدا على الناس فيصير ورود ماء النيل من الأخطار حتى يقتله الصيادون • وخبرنى من رأى ذلك أن التمساح خطف ولدا بأحد الشواطىء ففزع الناس الى الشّاطىء وذهب هو معهم ينظر واذا بالتمساح فى وسط البحر يشق العباب وبين حين وآخر يرفع جثة الغلام عالية كأنه

يتحدى بها والناس يعاينون ذلك وهم عاجزون وما زال ذلك دأبه حتى اختفى عن الانظار •

كان كلما عبر فى المركب يجد نفسه غريبا شاذا بغرابة الشخص الذى سيكون أفنديا وشذوذه ، الشخص الذى لا يعرف كيف يستعمل يديه ولا يعترف له بأنه لعله يعرف كيف يستعمل يديه ولا يخلو من نعومة فى نظر أهل البداوة الاقحاح • فكان يتجشم المجذاف ويصطنع الخشونة يتبدى بذلك • وكان ربما جرح شعوره أن هذا من صنيعه ينظرون اليه بعجب تخالطه سخرية عميقة •

هذا النوع من خطر انقسام الشخصية من كان يعلم أنه سيستشرى استشراء حتى يصل الى جوف الخلاء الاجرد ؟ كما يصيب انقسام الشخصية الافراد فيكونون به مرضى ، كذلك يصيب المجتمع فيكون به مريضا • ومرض المجتمع أشق من مرض الافراد وأعسر علاجا ثم أكثر مايكون مرض انقسام الشخصية فى الافراد ناشئا ومتفرعا منه •

ذكرنى أحد من سافروا بالبطانة أنه بينما كان يجتازها فى سيارة والغبار منعقد حوله والسراب يلتمع والحر آخذ بالمخانق اذا براكوبة ، وهى سقيفة جوانبها من الخشب وأبسطة السعف ومعروشة بالبروش والثمام ، فيها ثلاجة جاز فيها ببسى كولا باردة • ولبث قليلا فلعله أن يكون شارع مرصوف وكشك وبار •

وأذكر زمانا غير بعيد زرت بئر المصورات وبئرها بعيدة الغور يورد عليها بالجمال ، يجذب الجمل حبل الدلو من نحو ستين مترا أو أكثر وحول البئر العرب ، عربا بدوا صِباحاً والفتيات عليهن « الرّحط والقرن » الرحطُ إزار من سيور الجلد المدبوغ والقرن رداء من ثوب قطنى ذى خطوط حمر — وكانت أكثر الفتيات يلبسن هكذا فى أكثر بلاد النيل السّنارى • هذا ثم زرت تلك النواحى من البطانة فاذا بأحد الناس يحمل شنطة يتجه الى حيث يمر أحد البصات • واذا بآخر فى ملابس نظيفة كملابس أهل المدن وبيده راديو

ترانسستر والموسيقا التى لا تمت الى جذوره بسبب •

كنت غريبا أريد أن أنتمى • لو قد عاش الوالد كنت من طبقة أبناء الموظفين المحترمين الطبقة البرجوازية الجديدة ذات المنزلة العالية •

ـ ياولد ، واطاتكم (أى ارضكم) كتيرة ، هسع الزارعها منو ؟

ـ ود فـلان

ـ بيديكم كم (أى كم يعطيكم) ؟

ـ اتنعشـراوى (أى ١/١٢)

ـ ظالمكم ياولدى • الكِرِجّ (١) سدس • (الكرج أى الكراء) ظالمكم ياولدى الواطة حقتكم • الكـلام اللين يا ولدى بيودر الحق البـين • (يودر أى يضيع كأنها مشتقة من (٢) وذر بتضعيف الذال وهو مضعف الفعل وذر وهو غير مسـتعمل ومضـارعه يذر مسـتعمل)

قال وربما سألنى سـائل متى اشـتغل •

ـ دحـين مـا قربـوا يرتبـوك ؟

ـ بعد ما أروح الكلية (أى كلية غردون ، أى التجهيزى)

ـ ودا متين ؟ (أى ومتى ذلك ؟)

ـ بعدما أنتهى من المدرسة الوسطى وبعدين أربع سنين فى الكلية .

ـ يعنى كلهن بعد كـم ؟

ـ تقريبا خمس سـنين .

ـ ياولدى دا عُمُر • (بضم العين والميم وسكون الراء) يستبعد المدة ويرانى أضـيع زمنى •

ـ دحين ما خير تشتغل وتلحق أماتك ديل (أى أليس خيرا أن تشـتغل الآن وتعين أمهاتك هؤلاء ، أى المسكينات ؟)

وكنت أغتاظ من مثل هذه المساءلة •

---

(١) مصدر كرى يكرى كريا أى الاجرة وقلبت الياء جيما •

(٢) فى العامية ودر بالدال المهملة • ويذر فصيحة وفى القرآن « لا تبقى ولا تـذر » اى لا تترك • والتـوديـر بمعنى التضـييع أصـلها من التـرك •

ومرة أكثر أحدهم سؤالى عن حالى فى المدرسة وسكناى • وحدثته عن الطبيخ والفول مرتين فى الاسبوع والعدس والارز والصابون والغسيل •
ــ وكل هذا بالمصاريف ؟

وفهمته أننى لا أدفع المصاريف • وكانت حال الناس حال بؤس وضنك ضارى • كان اللحم لا يأكله أكثر الناس الا عندما يقرمون اليه قرما فيذبحون بهيمة يسمونها كرامة ــ أى صدقة يتصدقون بها على أنفسهم ــ ويقسمون لحمها أقساما متساوية مشتملة على كل شىء من البطن والاطراف والخواصر وتوزن وتقاس بالعين وتؤكل أكلا لما • وكان أهل الحال الحسنة ربما أكلوا اللحم مرة أو مرتين فى الاسبوع • وكان ملاح الشرموط من علامات حسن الحال ، وهو اللحم الناشف من لحم البقر يقطع شرائح ويعلق على حبل فى الهواء والظل وطعمه جيد • فاذا خلا ملاح الوِيكة من الشرموط (الويكة هى البامية) قيل له « ملاح أم شِعيفَةْ ، كيةَ المرة الضيفة » أى تغتاظ منه المرأة الضيفة كأنه يكويها بها • والملاح الاحمر الذى يصنع الآن مع اللقمة (أى عصيدة الذرة) أكثر ما يصنع من اللحمة المفرومة وهذه لرطوبتها ليست فى جودة الشرموط • وأول ما أقدم الناس على عرض الملاح السودانى لغير السودانيين واثقين من جودته كان بعدما تكرر فعل ذلك من آل عبد الرحمن بن المهدى ، وذكروا أنه قدم ملاح أم رقيقة لعلى ماهر باشا لما زار السودان عام المعاهدة سنة ١٩٣٦ م وأعجبه الملاح ولكن لم تعجبه بداوة اشتراك الناس فى أكله من اناء واحد فقال :

ــ بس لو كان كل واحد معجنته لوحديها !

هكذا بلغنا والله تعالى أعلم •

أم رقيقة إدام رقيق من مرق الضأن أو ما طاب من لحم مع الويكة المدقوقة الناشفة أو المفروكة الخضراء ويحمر اللحم ويجعل اكليلا فوق قدح الكسرة المأدومة بها •

والمعاهدة المشار اليها أعادت لمصر دستور سنة ١٩٢٣ م ويقال أنه خير

دستور دمقراطى كتب واخفاقه يدل على أن الدساتير الديمقراطية انما هى عرف وروح وعمل صادر عن صـــدق اعتقاد لا مجرد حبر على ورق • وقد نظمت وأنا تلميذ بالتجهيزى شعرا انتقد فيه فرح الناس بتلك المعاهدة وكان من نصوصها العمل على رفاهية السودان وعودة الجيش المصرى وكان قد أجلى سنة ١٩٢٤ م وقد ضاعت القصيدة ثم ذكرنى الدكتور محمد الحســن أبو بكر زميل الصبا الطبيب الاديب بعض أبيات منهــا :

ان المعاهدة التى أمضيتمو   حبر على ورق وسوف يمزق

وقد كان •

هذا وأكثر ما كان يحصــل الناس على الذى يقال له البروتين وربما ترجم بالزلال ، بضم الزاى ، من اللوبياء الحمراء التى يقال لها « اللوبيا العِفِن » و « القُسِّيَّل » • كان اكثر الناس يعتمدون عليه اعتمادا ، يجعلونه بليلة • البليلة عبارة عن الحب الذى يغلى على الماء • وبليلة «لوبيا العفن» من حبات اللوبيا وعيش الريف ــ (الذرة الشامية) تغلى معا وهى جيدة فى الصيف لمــا فى مائها من الملح • وقد يؤكل معها التمر وفيها البصل وقد توضع فوقها فحول منه • فهذا غذاء كامل •

فى خلاوى القرآن ــ أى مدارس القرآن ــ كان يخصــص يوم الاربعاء لعمل البليلة وتسمى الكرامة •

يمر الحيران على البيوت نهار الاربعــاء • فهذا البيت يعطيهم مقدارا من الذرة • وهذا مقدارا من الذرة الشامية • وهذا من اللوبيا العدسى • وهذا من لوبيا العفن • وهذا من لوبيا الطيب • وهلم جرا • وما جمعه الحيران يجعل فى أقوات الخلوة وهو مساهمة أهل البلد والآباء الاسبوعية من أجل هذا الغرض • وأول قوت يصنع هو كرامة الاربعاء يصنعها الحيران بخشب الفزعة (أى الاحتطاب الجماعى الذى جمعــوه يوم الثلاثاء •) وكــرامة الاربعاء ، كانت دائما من لوبيا العفن وعيش الريف •

هذا ولوبيا العفن قد كاد يختفى من الاسواق الآن • وكان من أهم ما يزرعه الناس فى جروف النيل • يقتاتون منه وتقتات ماشيتهم وينشفون أوراقه وعيدانه ويدخرونها للعلف فى الصيف • وبليلته وهو أخضر تسمى بليلة الفساخ لان حباته تفسخ من قرون لوبيائه الخضر • وبليلة الفساخ لذيذة والاكثار منها ينفخ • ولوبيا العفن أخضر ويابس يحتاج الى نار شديدة لينضج نضجا تاما • وورقه وهو أخضر يؤ تدم به فى بعض بلدان الشمال • والمعروف المعمول به استعمال ورق لوبيا الطيب وورقاته أصغر حجما وأقوى طعما وأغمق خضرة • وكان الوالد رحمه الله يعجب من أكل بعض الناس قراصة القمح وهى أعز الاطعمة بملاح ورق لوبيا العفن • وانما ورق لوبيا العفن علف • وورق لوبيا الطيب على جودته أرخص ملاح • وكان يسميه « بشراك » لتعويل أكثر أهل الاسواق عليه •

هذا وربما سخن لوبيا العفن اليابس ويكاش أى يزال عنه قشره الاحمر ثم يصنع منه ملاح طيب المذاق يقال له البربور وذلك أنه لثخن مادته يبربر أثناء طبخه على النار • وكان يقال : « ملاح البربور أكل الراجل التور » أى القوى لا يعنون البليد ، لان الثور فى بلدنا لا يذكر رمزا للبلادة كما يذكر الحمار ولكنه رمز للبسالة والفحولة ومما يوصف به الولى الصالح ذو السر القوى والبأس الالهى • قال الشاعر :

يا ليلى ناديهم اليّه
الكَسّر تيران الديّه

أى أهل البسالة فرسان المعركة ذات الدوى • وقال آخر يمدح الشيخ أحمد الجعلى مؤسس الطريقة القادرية الجعلية بكدباس غرب بربر :

تور كدباس أنواره تلالى
أحمد أبوى يا راحة بالى
أنا راجيك تصلح لى حالى
بالاسرار والكأس الحالى

وقال الشاعر يذكر السيد الحسن المرغنى :

يا ليلى نـادى لى الخـاتم

نور ياب درّاً عـاتم

الاسرار حـاويها وكـاتم

وخيل الغيب فوق راسها يلاطم

هذا واذا أرادوا الذم قالوا « يا بقرة » يريدون معنى الجبن والضعف • ولعمرى ليس من حق البقرة أن تجعـل للذم علما اذ هى مما تكون جميلة مشرقة بالخصوبة • قال تعالى : « بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين » وقديما شبهت العرب النساء الحسان بالبقر الوحشيات •

هذا ، واعلم أن صيفنا كان شـديد المحل • البهائم جياع والناس جياع • « والتربال معيشته شـقية » كما قالت المغنية • التربال أصلها تربان قلبت لامها نونا أى الفلاح لكدحه فى حفر الارض والتصاقه بالتراب • ومن عنده ثور أو بقرة كان ذا مال • وكانت أداة السـاقية غالية والثور الذى يديرها أغلاها • وكان أكثر ما يدير السـاقية ثوران أو بقرتان • وقد يسد مسد اثنين الفحل الفرد الجسيم ويقال له بلغة النوبـة « أرقو » بهمزة وراء ساكنة والقاف كالكاف مضمومة مشبعة بعدها واو • وكان ثمن الثور الجيد يبلغ عشرة جنيهات أو يزيد وكان الجنيه مالا عزيزا • وكان ثمن حلقة الساقية خمسة جنيهات • ومهر الفتاة البكر لم يطمثها انس ولا جان خمسة جنيهات وكان لفظ المهر غير مسـتعمل • ولكن يقولون سداد المال وهى أصـح لان المراد ما يسد به مال النفقة التى تنفق فى الفراش وتهيئة احتفال الدخلة • يقولون « بنت فلان سدوا مالها بأربعين ريال وخمسـين ريال » • وكانت ريالات الفضة هى المفضلة فى دفع سداد المال • وكانوا يقولون الصـداق للمهر وهو استعمال صحيح • ويقولون « بنت فلان صافحوها وصداقها كذا وكذا » والصفاح بضم الصـاد (١) أى عقدة النكاح • وأقصى الصـداق عشرون جنيها وكان كأنه شىء اسمى بعضه معجل وسائره مؤجل الى أجـل

---

(١) هل فروا من لفظ النكاح الى لفظ السفاح وقلبوا سينها صادا وضموها ؟

غير مسمى مفصـــل من معزى وضأن وبقر وحمـــير وأشياء خيالية وربما ذكروا الطين عودا أو عودين فى الارض الفلانية حدها من السافل (الشمال) كذا ومن الصـــعيد (الجنوب) كذا والعود أربع أذرع • وانما كان يقـــع التمسك بالصداق عند الخلف فاذا لم ينجح مسعى الصلح نفضت المسكينـــة حقها لتفتدى به وكان العرف يقضى حينئذ بأن تطلق ولا تعلق وكان العمل مع العرف جاريا على مذهب الامام مالك وهو مذهب أهل السودان • ولما زالت المهدية وجاء الحكم الثنائى جعلت المحاكم فى باب الاحوال الشخصـــية على مذهب الامام أبى حنيفة وفى غير الاحوال الشخصـــية على القانون المدنى المستمد فى أصـــله من القانون الانجليزى • وكانت عقود النكاح وضروب الوثائق تكتب فى الخلاوى تبركا بها وتودع عند أهل الثقة ورأيت منها أصنافا ثم التمستها من بعد فقيل انها غرقت فيما غرق عام الفيضـــان الطوفان • فربما ذكر فى بعضها مع الريالات والماشية فى الصداق الآدمية فلانة والآدمى فلان • • • وعلى ذلك قول المغنية :

يا مّ حَكّحكِى القرعـــات
ود عمى جابْ فَرخـــات

وكان القرع يحك ويجعل أوانى وكئوســا للشراب • ود عمى ، كناية عن الزوج الذى تترقبه لان أكثر ما كان يتزوج البكر ابن عمها • فرخـــات جمع فرخـــة وهى الأمَة الشابة • أى وسيجىء ابن عمى ويسوق لى فى صـــداقى أماء يخدمننى • مجرد أمان • ليس معها المسكينة من يحك قرعات كئـــوس العرس الا أمها • فتأمل •

من كان يستطيع دفع المصاريف المدرسية مع هذه الحالة من الفقر الشديد التى كانت عامة • كان ربع المصاريف ، خمسة جنيهات للداخلى وجنيهـــان ونصف للخارجى غايـــة ما يصار اليه من التخفيض • وكان انما يقبل بربع المصاريف اثنان أو ثلاثة فى كل دفعة جديدة •

لم يكن وراء الربع من تخفيض الا المجانية وهذه فرصتها اذا واتت لم تكن الا واحدة فى الدفعة • وادخل ثمن المصاريف بأخرة حين جعلت سياسة التعليم تتغير شيئا فشيئا بعد المعاهدة •

كان اكتر أبناء البلاد من الذين يرغب آباؤهم فى تعليم المدرسة رغبة أكيدة لا يستطيعون اليه سبيلا لعجزهم عن دفع المصاريف التى كأنها انما كانت مقدرة على افتراض وجود مستوى براجوازى من الدخل السنوى أو الشهرى لم يكن حقا بموجود عند عامة « أولاد البلد » ـ أى أبناء البلاد الاصليين •

لم يكن ينال التعليم العصرى الجديد الا أبناء القادرين من الموظفين والتجار والوجهاء والعناصر التى استقرت بالسودان بعد الفتح الأخير من المسيحيين والمولدين والمستوطنين • كانت سياسة الحكام تحرص على أن تمزج بين أهداف تعليمها الانسانية وضمان الولاء لها فى بلد انما تغلبت عليه بقوة الحديد والنار •

حدث نوع من التوسع فى التعليم بعد سنة ١٩٢٤ لما أحست الحكومة بضرورة الاستعانة بأولاد البلد فى الوظائف التى كان يشغلها المصريون وقد أبعدوا بعد حوادث تلك السنة • من ذلك التوسع مثلا انشاء مدرسة كتشنر الطبية وفتح مجال القضاء المدنى لبعض خريجى التجهيزى • ولكن بعد أن اضرب تلاميذ الكلية سنة ١٩٣١ م وأبرزوا أنيابا سياسية وحلفوا متضامنين أضمرت الحكومة على التعليم غضبا فجعلت تضيق من فرصه أقلت من المجانية حتى أوشكت أن تبطلها • وشددت فى أمر المصاريف بحجة ظروف الازمة العالمية وانتهزت انخفاض عدد الملتحقين بالمدارس لعسر دفع المصاريف فأوصدت بعضها مثل حلفا والدويم وصيرت بعضها نصفيا يقبل عاما ويغب عاما مثل أتبرا ـ هذه كانت تامة على زمان ناظرها المصرى عبد الله العربى صاحب كتاب الترجمة من العربية الى الانجليزية ومن الانجليزية الى العربية وهو من أجود ما ألف فى بابه والآن عزيز الوجود •

حكاية : قالوا كان عبد الله بك العربى رجلا عاتيا • وكان معلم منحرف عنه يعرض به فى دروسه ويكتب على السبورة فى حصة النحو ويقول بصوت عال مسموع يسـمعه من يكون بالجـرة خارج الفصـل :

ـ العربى ثقيل يا أبنائى •

قالوا فاقتحم عليه الناظر الجبار يوما ودفع به خارج الفصل وكان ذلك من أيام مدرسة أتبرا الابتدائية يوما مشهودا • قالوا وكان عبد الله العربى من قوته يكسر لوح ثلج السكة الحديد الشديد الصلابة بضربة واحدة من حرف راحـة كفـه •

رجع الحديث :

كنا نحن لما قبلنا بالابتدائى (المدرسة الوسطى) نحوا من أربعين كلنا ، غير واحد مجـانا ، بالمصاريف ما بين كاملة ونصـف وربع ـ كاملة داخلى عشرون جنيها وخـارجى عشرة جنيهـات • وجعلت أعدادنا بعد أول يوم تنقص بسبب المصاريف ثم انضاف الى ذلك سبب أو أسباب أخر •

كان المدرسون مشايخ يلبسون الجبة والقفطان والعمة وأفندية يلبسون السترة والبنطلون والكرفتة والقبعة الهندية (التوبى Topee) وكان الناس يرون أنها حرام وكذلك البنطلون حرام لانه محـدد • ثم قبلوهما ، وأما الكسكتة فظلوا يعدونهـا حراما ومن يلبسـها مقاربا للكفر • وكانت المجلات المصرية تجيئنا بصورة بعض الزعماء مثل النحاس باشـا ومحمد محمود باشـا وهم فى طريقهم الى لندن وأوربا وعلى رءوسهم الكسـكتة فنستشعر فى قلوبنا استنكارا لذلك وكان بعض الافندية من المدرسين وغير المدرسين يتحرجون من البرنيطة ويلبسون الطربوش الطويل الاحمر • وقال بعضهم أن الطربوش يسبب الصلعة • وكان بعض الافندية يتحـدى بلبس الكسـكتة لا يبالى •

كان المدرسون المشايخ مثل الشيخ عثمان ابراهيم رحمه الله أشبه بالآباء وزى الجبة والقفطان كان مألوفا لدينا من المدرسة الكتاب (الاولية) كانوا

يدرسون الحساب والعربية والدين وكان فيهم حنان والقسوة منهم بعيدة جدا • من أكثرهم بعيدة جدا • وأولو الطربوش من الافندية يقاربونهم • والمتقدمون شيئا فى السن • وكان من الافندية المدرسين قساة جدا • يضربون بالكف ويركلون بالقدم ويجلدون بالسوط ويضعون الاقلام بين الاصابع ويضغطون فيكادون يكسرونها • ومنهم من كان ينفعل انفعالات جنونية ويضرب برجليه على نحو « خطوة تنظيم » ومنهم من كان يتلفظ بأقذع الالفاظ وربما اشتط فخرق القميص نكاية بالولد الفقير الذى لم تتكسر شوكته بالضرب ليغيظه فى واقعه الاقتصادى • شىء غاية فى الانحراف •

ومرة ضرب أحدهم تلميذا كفا ولما رأى ما يدل على احتجاج فى وجهه ضربه كفا آخر وكفا ثالثا ثم كفوفا متتابعات ، ثم أخرجه تحدى ذلك التلميذ البارد عن طوره فواجه جميع الفصل ، وكانوا واجمين رعبا وهولا :ـ

ـ أنا أرفتكم كلكم

وقال أحد التلاميذ يهمس :ـ

ـ المدرسة تبقى فاضية •

ـ والمدرسين ما يلقوا شغل •

وكأنما زلزلت الارض زلزالها •

وكان الضغط ومحاولة كسر الانف كأنما هو مفتاح روح المدرسة الوسطى عند كثير من الافندية المدرسين الشبان • وكانت لناظر المدرسة صولة ورهبة والفراش الذى كان يعاقب التلاميذ بالخيزرانة كان عليه كلوح يستمده من سلطان الناظر • وكان بعض النظار من المشايخ ، الا أن عنصر الأفندية كان أكثر وغلب آخر الامر • وكان ضابط المدرسة أبدا من الافندية ، كان كالنائب عن الناظر ، ويمثل حزم المؤسسة وجانبها التنفيذى ذا المظهر النشيط شبه العسكرى • وكان يشرف على طابور الصباح ويعلن الاوامر الصباحية فيه وعلى طابور نهاية اليوم ، ويعلن فيه أوامر المدرسة لالعاب بعد الظهر ، ويشرف على المعاقبة الجسدية العلنية التى تكون أمام جمهور الطلبة بأمر حضرة الناظر وهى الجلد بالخيزرانة • وقد يخرج الناظر من مكتبه فينظر من بعيد والجميع يعلمون أنه رب الدار •

الطابور غير عربية على الارجح وان تك عربية فهى على وزن فاعـول من طبـر بطاء مفتوحة وباء مفتوحـة أى قفز والطابـور الصف المرصوص •

فى الداخلية كان التلاميذ يبغون أن يسيطر بعضهم على بعض • وكان مما يقع فى حياة الداخلية الارهاب والغمز واللمز والتكتلات والعصبيات الاقليمية وما يجرى مجراها ، ومحاربة الفردية واسـتغلال الذات وهذا أمـر كان لا مفر منه حيثما اتفق حمل الناشـئة على السكنى معا فى العنابر فى مجموعات كمجموعات الجند • وكان الخوف كأنه جزءا لا يتجزأ من طبيعة النظـام • وكان قلما ينام التلميذ الجديد وهو غير خائف •وكانت الاحلام فيها الكابوس والرعب المحض • ولما كانت الداخلية هى قلب حياة المدرسة فروحها كـان يسرى الى حياة الخارجية أيضا • على أنه كان مما يسود فى الداخليـة روح دينى طيب ويكون بين التلاميذ متدينون يقتـدى بهم اخـوانهم فيشـجع ذلك بينهم أنواعا من المنافسة الحسنة • وكانت تقام بالداخلية ليلتا الجمعة والاثنين ولا ينقطع أكثر التلاميذ عن صلاة الجمعة •ومنهم من كان يحرص على أن يصلى الجمعة كل أسبوع فى غير الجامع الذى صلاها فيه الاسـبوع الذى فات طلبا للبركة وليكتشف بذلك أيها أجمل خطبة وقراءة أمام • وأخذ بعض التلاميذ المتحمسين الطريقة القادرية على أحد شيوخها ، كان معروفا بالصـلاح تدركه حالة من عنـد بداية الذكر الى آخـره • وكانت الثقافـة الدينية حسنة ويستعان بها ويستعان بأحزابها ودعواتها على سلطان المدرسة المخيف • ومن خير ما كانوا يتنافسون فيه قراءة القرآن • ورأيت مصـحف الملك المطبوع لاول مرة تلك الايام • وكانت الفطرات الريفية لم تزل غالبـة على الناس ، ورقابة مجتمع التلاميذ بعضهم بعضا يهيمن عليها جناح العرف ولم تكن رقابة البلد عن كل ذلك بمعزل • وكان فى ذلك خير كثير •

هذا وأعلم أصلحك الله أن سعادة كل مجتمع اذا تأتت له ظواهر أسبابها مرهونة فى الحقيقة باستمرار قبول أفراده لقيم عرفه الذى فرضه عليهـم منذ الزمن البعيد قبولا عن رضا نفس وكمال اقتناع • وأعلم أن أول شـقاء

المجتمع حين تستمر قيم العرف مفروضة بحكم العادة والمحافظة ويكون قد داخل قبول الناس لها نوع من التردد وعدم الاقتناع وفقدان طمانينة الرضا وأول ضعف يصيب كل عُرف انما ينشأ من منشأٍ خفي وعلى غير تنبهٍ من الناس • ومن أفعل أسبابه غزو الاجانب • ومما قد يتفرع عنه أن يأخذ الجيل الناشىء بأسباب عيش جديد يشعرون بذلك أو لا يشعرون • ولم تكن سكنى عنابر الداخلية ودفع المصاريف الظاهرة أو المقدرة من أجل ذلك من عرف الناس • انما كان هذا كله مع نظم التعليم الجديدة التى اندفع الناس اليها يتزاحمون ، جميع ذلك بدعة ، وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة فى النار • فلا غرو ان تبع ذلك اضطراب فى قيم العرف عظيم ، أحال جهد التمسك بهن الى نوع محافظة كالنفاق ، وجُهد طلب التجديد الى ضروب من المروق غليظة غثة سوقية رعناء ••• فتنة بلاء كجهنم المجرمين ، « انه من يأتِ ربّه مجرما فإن له جهنمَ لا يموت فيها ولا يحيى » •

كان الناس يرسلون صغارهم الى قراباتهم وذوى عشائرهم فيسكنون مع أسر الاهل فيسعهم ما يسعها من معيشة وتوجيه وتأديب • وقد يقوم بعض أهل الفضل مقام أولى القربى والعشيرة • ومن يهاجر من كبار السن تُؤوِه الخلوات وأهلها بسخاء العرف الموروث •

وأقدم الناس على تعليم البنات فى بلداتهم بحذر شديد • وما قبلوا أن يغتربن من أجل التعليم ويسكن فى داخلياته المنظمة الا عندما دعت الحاجة والضرورة واجماع قبول الناس لذلك وهم كارهون •

فى زمان الدفعات الاولى كان مدير الكلية ومدير المعارف معا المستر كرى (السير جيمز كرى Sir James Currie) • وكان ينوب عنه فى مباشرة ادارة الكلية على نوع من شبه انفصال ناظرها هدايت بك • وكان من خريجى اكسفرد • قال استاذنا رحمه الله انه كان أنيقا فى مظهره ويصفف شعره ناعما ، ويبقى شعره على الهيئة التى صففه بها ، وكان يمر براحة يده فوق رأسه فوق شعره بمقدار سنتيمتر أو بوصة ولا يلمس شعره بأصابعه أبدا ،

فقط يحرك أحد أصابعه يشير بذلك الى نوع من الحك الرمزى للموضع الذى ربما يكون قد أكله • وكان هدايت بك رجلا صارما يخافه كل الطلبة والمدرسين والفراشين • واذا خرج من مكتبه يتفقد الأحوال كان كما قال الفرزدق فى يزيد بن المهلب :

واذا الرجالُ رأوا يزيدَ رأيتَهُم خُضُعَ الرقاب نواكِسَ الابصار

قال : وكان لهم مدرسون من أهل العلم والفضل مثل الشيخ عبد الرءوف سلام والشيخ خلّاف والشيخ الجداوى والشيخ الخضرى صاحب التاريخ وكان يدرسهم الخط الشيخ أبو المجد وكان خطه جميلا النسخ والثلث والرقعة والفارسى ويتعاطى الشعر • قال : وشعره وسط وأرسل تلغرافا يستعطف به الخديوى لما دخل ابنه فى المدرسة الحربية •

بمصر فى حربية يدخل صبرى ابنى النبيل

ودفع مصروفاتها متعذر أو مستحيل

ويستقيم الوزن بتسكين التاء ضرورة أو بالوقوف على مقطع الحرف كما زعم المعلى الطائى (١) •

هذا وكان المستر كرى «درويش نصارى» لا يهتم بمظهره ويركب بغلة له ويترنم ، وكان الناس لا يخافون منه كما يخافون من هدايت بك ، لما يرونه من مظهر سبهلليته • ولكنه كان أمرأ ذا دهاء • ودبر سياسة التعليم كلها فى تلك السنوات الاولى التى تولاه فيها وكان يمر على جميع المديريات ليتحسس امكان انشاء المدارس وليفتش على ما أنشأه منها • وكان حين يركب بغلته ويمر فى الكلية اما فى طريقه الى مكتبه أو منصرفا عنه لبعض شأنه يترنم بصوت مسموع «بغله بتاعى • كلية بتاعى • للا •• للا •• للا •• ويجعل الغين من بغله كالقاف التى كالكاف مثل حرف G فى كلمة good ولا يقدر على عين بتاعى فيجعلها همزة «بتائى» ولا يؤنثها • وكان مرة بعد مرة اذا جاء

---

(١) من اوائل شعراء المولدين بصرى ذكره ابن المعتز فى طبقاته وقال فى مغنية :—

وتمزج بين السجع والرجز فى الغناء وتسكت من حذق على مقطع الحرف

وليراجع البيت ومراده انها تسكت على جيم الرجز وهذا البيت يدلك على معرفتهم اصطلاح المقطع فى ذلك الزمان القديم فتامل •

راكبا بغلتـــه ورأى هدايت بك مَارا يترنم بأغنيته تلك وهـــو يهز رأســـه فى دروشة : بغله بتائى ، كلية بتائى .. لللا .. هدايت كمان بتائى !!

وهدايت بك يسمع ولا يقول شيئا ،وكذلك جميع المدرسين والطلبة والفراشين

كانت اللغة الانجليزية أهم مواد الدرس فى المدرسة الوسطى ، يليهـا الحساب ، ثم اللغة العربية ، بعده المواد الثلاث الرئيسية تجىء الجغرافية والتاريخ والخـط والرسـم والدين .

كان مدرس اللغة الانجليزية له ســوط دقيق صـغير . وكان أقرب أدراج التلاميذ اليه يســميه « السلخانة » وكان له يوم بؤس يختبر فيه التلاميذ وما كان ينجو من عذابه يومئذ الا القليل ، ثلاثة أو أربعة . وكان كلما أخطأ تلميذ دعاه الى السلخانة وقال له ارفع جلابيتك ويرفـع المسكين جلابيتـه ويقع عليه السوط الاليم . فكان بعض التلاميذ ربما لبسوا ردا كاكى ثخـين تحت السروال . (الردا هو الشورت والكاكى قماش مخضر اللــون كثيف ورهيف من القطن) وكان أحد زملائنا قلما ينجو من ذلك الســوط . وكان قلب المدرس قد أُشرِب حب ضربه إشرابا . وكأن مجرد منظره كان يغيظـه وكان هذا لا يجيب الا مخطئا ويزيده الخـوف غباوة . وتزيد غباوته قلب المدرس عليه تغولا وقسوة . وكانت للانجليزية عشر حصص فى الاسـبوع كل حصة منها بالنسبة اليه عذاب مصبوب ولا سيما حصة الاختبار الكبير . وكان الاختبار الكبير فى حفظ الكلمات . وذات يوم من أيام الاختبار الكبير قال له المدرس : (يالله على السـلخانة .) وذهب البائس وانحنى .

ــ ارفع جلابيتك

ورفع المدرس يده بسوطه القصـير الدقيق كالثعبان المصـنوع من جلد « العينسيت » أى فرس البحر . ولكن الولد كان قد « قام صـوف » .. أى هرب ، أسرع من كل أرنب ومن أى ولد ولم نر الا غباره لم القه أنا بعد ذلك الزمان الا بعد نحو من عشرين أو ثلاثين سنة فى احدى المصادفات .

ما زال بنا سوط « السلخانة » وعسر المصاريف حتى صرنا فويق العشرة

بعد أن كنا نحو الاربعين • انضـــاف الينا اثنان أو ثلاثة فى ما بين الاولى والرابعة وفارقنا اثنان أو ثلاثة •

كنت اعتقد اعتقاداً راسخا أن أوليتى وتبريزى لا غيره هو ســبب قبولى مجاناً داخليا • اعتقاد كاد يكون لو لا لطف الله شجرة ذات ثمار مُرة • وذلك لما وقع منه فى النفس أن مكافآت الحيـــاة تنال بالكتابة والقراءة وتجـــويد تحصيل الدروس وانتظار الانصاف • ولله در شوقى اذ يقول :

وكم منجبٍ فى تلقى الدروس تلقّى الحياةَ فلم ينجب

ولقد رأيت وسمعت أبى اذ يخاطب المفتش فريد عطية واذ كتب هذا بعد مدافعة « مجانا » بقلم الرصاص ، أى فى ذلك نظر ، بدأ بالميم وأعاد قلمه عليها من اليسار الى اليمين واذكر شعورى المختلط آنئذ •

كان طويلا يوم القبول • واذا بالمقبولين من مدرستنا حين اصفر العصر فى طابور صغير أمامنا مدرس فى سترة وبنطلون ينادى اسماءنا • والتفت أريد أن أجد أبى • وانتهرنى المدرس بعلوه الافندى غير المألوف وســألنى لماذا التفت • وتلعثمت وخزيت أن أقول أين أبى ؟ فقلت « مدرســنا الذى كان معنا » وأنا أعنى أبى وشـــعرت بهزيمة روح وانكســـار • وزجـــرنى المدرس الافندى مرة أخرى • • • •

قرأت فى كتاب الكامل لمحمد بن يزيد المبرد أن أحد الخوارج طعن فتى من عسكر المهلب حديث العهـــد بالقتال فلما أحس هذا بالرمح صـــاح يا أماه واجتذ به الخارجى منه وتركه ليموت وارتجز لا يبالى :

أمك خيرٌ لك منى صاحبا تسقيك محضا وتَعُلُّ رائبا

ما كان أشبه حالنا فى تيه اقتحام طريق التجهيزى بحال ذلك الفتى الذى دفع به تدبير الحجاج ملك بنى أمية الى رماح الخوارج •

••• ••• •••

وقال لى الذى كان يسألنى وفهمته أننى لا أدفع المصاريف أنه لابد أن كان أبى يهادى المدرسين والنظار والمفتشين فلذلك قبلونى مجانا • وأضاف آخر يؤيد ذلك بآية ما زعمه من أن أبى كان يتردد على ناس المدرسة الوســـطى

بمقطف مملوء لا شــك كان هدية الناظر والمدرس والمفتش ، ودافعت عن قضية الاســتحقاق والتبريز والترتيب وشرف مؤسســات التعليم المهنى وشرف القائمين على أمرها ،

ــ خلك يا ولدى ناس المدارس كلهم ناس لحوسات

أى يريدون ما يلحسونه من الرشــوة ، واشــمأززت من فكرة أن يتهم أبى برشوة أحد ،

ــ شــــيخ الطيب يا زول كان راجلا كريم خــلاس (أى جدا) ، منو ال (الذى) ما بيعرف عطاه ،

ــ الله يرحمه رحمة واســـعة

وأخذ أحد المادحين ينشــد من بعد :

جميل الصور يا جميل الصور (أى الرسول صلى الله عليه وسلم)
يا حبيبى الغالى ساكن أم سور (أى القبر الشريف بالمدينة المنورة)

يا با للكامل

وكرر الحاضرون :

ــ جميل الصور ، يا جميل الصور حبيبى الغالى ساكن أم سور
ــ نحن نحن ســعاد (أى سعداء) نحن قوم الشاهد المجــاد

يا با للكامل
يا با للكامل

يــوم نقــوم أفــراد طه شــافع الحشر والميعاد
ــ جميل الصور يا جميل الصور يا حبيبى الغالى ساكن أم سور ،

يا با للكامل

كان الناس يذكرون الوالد رحمه الله ويحترمون ذكراه فى نوع من حزن شديد ، حزن شــديد فى قلبى أنا مخلوط باعتزاز منكسر ، والحق أنه كان يجيئنى بمقطف مملوء كعكا كانت تصنعه الوالدة من نوع المنين ، جيد للغاية ليس كثير السكر ، موزون السمن ، هش ، متماســك ، فيه شىء كالملوحة ،

حتى أولاد دنقلة الذين كان يرســـل اليهم القرقوش ويجيئون بالغريبــة استجادوه باقبال شديد ، لم أذق مثله قبله ولا بعده • صناعة عجيبة أحسب أن الوالدة تعلمتها بكسلا • وقالت مرة ، رحمها الله انها لم يعلمها صناعة شيء من هذه الأطعمة المعقدة أحد ولكنها اتقنت منها أصنافا مثل هذا المنين ومثل الكنافة • أول أمرها لم تكن تعرف الا البلدى • • اللقيمات ، أم رقيقة اللحم المحمر • ثم انها من بعد كانت متى أتيحت لها مصادفة مشاهدة عمل شيء من الأطبخة الجديدة وملحقاتها صنعته كما رأته كما لو كانت تحسنه من الدهر القديم • وكانت خضراء جارتنا زوجــة عمى داود جميلة جزلــة حسنة العشرة • وكذلك عمى داود • وكانت فى كسلا أخلاط من الناس سوى أهلها الاصليين • وكان بها الرديف وصـــنوف من موظفى الحكومة والتجار وناس من الجعليين والرباطاب والشايقية وفى غرب القاش الهوسا والفلاتة والبرنو وغيرهم •

وكانت امرأة ضخمة جدا مسافرة مع زوجها الى مصر ، فكنا اذا تحدثنا عن شيء ضخم من بعد ضربنا المثل بها ، وكنا معا فى القطار جميعا مفارقى كســـلا ومعنا بطيخ كســـلا لم تر عينى اكبر منه الى الآن وكانت احدى البطيخات خضراء عظيمة تحت الزير والقطار مغذ •

كرهت ما قال ذلك الشخص من زعمه مهاداة أبى المدرسين أو رشوتهم حتى قبلونى مجانا أشد كراهية • ولم لا ، فقد كان من المشايخ زملاء لأبى عرفوه وأحبهم واحبوه وذكروا عهده • فمنهم من كان يبرنى ولا أزال أجد لبرهم على قلبى ثلجا وراحة •

وقال لى آخر وســألنى عن حالى بالمدرسة وخبرته بترتيبى ومحافظتى على الاولية : ألا تخاف أن يحسدك أقرانك ؟

الحسد قضــية مسلم بها فى السودان • واذا عجبت لشيء شــنيع يقع وسألت عن سبب حدوثه فقيل لك : «حسد» أو « حَسَادة » فقد انقطعت الحجة واعتبــر ذلك ســببا مقنعــا •

ـ ياولدى ما بتخاف رفاقتك يحسـدوك

واستنكرت هذه الملاحظة ولماذا يحسدونني ؟ وما كنت أفهم معنى الحسد حقا . وكنت أقرأ : « قل أعوذ برب الفلق » وشُرح لى قوله تعالى : « ومن شر حاسد اذا حسد » وأحسـب أنى فهمت الشرح ومع ذلك ما وقع معنى الحسد فى قلبى موقعا ، مع أنى كنت أعرف معنى الحقد . وفى ثالثة كتاب (المدرسـة الاولية) لقينى أحد زملائى وكانت بيننا منافسـة فى الصراع وضربنى كفا بلا سابقة مشادة وعلى غير توقع منى وتمثل بقول صالح بن عبد القـدوس بوجـه شـتيم باسـل :

ان العدو وان تقادم عهده فالحقد باقٍ فى الصدور مغيّب

وكنا تلقينا القصيدة فى دروس المحفوظات . وهجمت عليـه وهجـم على . وكلما نتذكر هذا الحادث من بعد نضـحك . وكنت أفهم شـيئا من معنى المنافسـة والغـيرة .

غاظنى مرة أحـد الذين هم أكبر منى . فزعـم أن قريبا له كان معى فى الفصل هو أذكى منى على تأخر ترتيبه لانى انما فته بالحفظ وليس الحفظ بذكاء . وكتب أحد المسـئولين عنا فى المدارس العليا فى التقرير أن ذكـاءه ـ أى أنا ـ مـداره على الذاكرة ، يعنى أن الذاكـرة ليسـت بذكـاء . وتكررت هـذه الأحدوثـة مرارا .

نعم كنت أفهم شـيئا عن معنى الحقد ومعنى المنافسـة ومعنى الغيرة أمـا الحسـد فلا .

مرة فى الكتاب (أى المدرسـة الاولية) فى حصـة الحسـاب أجبت عن المسائل فى سرعة البرق . المسائل التى وضـعها لنا أحـد أولاد التجهيزى الزائرين ، أولاد التجهيزى ، كلية غردون التذكارية ، فلان وفـلان وفـلان واعطونى كراسة التجهيزى الحمراء أم أربع وسـتين ورقة مسطرة بيضاء

منذ ذلك الزمان أحب الورق الابيض المسطر أسطارا أفقية بين كل سطر وسطر بياض كاف ولاسيما ذو الحجم الوافى منه الذى كنا نقول للزوج منه «فرخ» (فلسكاب) وللمجموعة الصغيرة «فريدة» وللمجموعة الكبيرة التامة « رزمة » • وكانت دكاكين السوق الرثة تبيع مع الصابون الخشن والكزبرة والحرجل ظروفا رديئة الورق غثة الصمغ مع جوابات أى أوراق رسائل قميئة مطبوعة باهتة اللون غامضة السطور متقاطعاتها أفقيةوعمودية مربعات مربعات • كم كنت أكرهها ومن أجلها ظللت أكره الاوراق التى من هذا النوع جميعها حتى حين تكون جيدة الصنع ناصعة البياض •

هذا ثم ان أولاد التجهيزى وضعوا لنا أسئلة أخرى وأجبت بنفس السرعة والصواب وأعطوا الجائزة ولدا آخر واغتظت وبكيت وغضبوا من سوء خلقى • أتذكر الحادث الآن • وأعلم أننى حينئذ ــ أعلم الآن ــ أننى حينئذ حسدونى على أن أبرز مرتين • وسوء خلقى أننى حرصت على اثبات حقى واثبات الحق واحقاقه أمر لا يحرص عليه الا الانبياء وهؤ لاء ، عليهم السلام قد ختموا بسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، والا الصالحون وهؤلاء معدن نادر معدوم فى مدنية العهد الحاضر ، والا أهل الطيش وما أكثرهم ونعوذ بالله أن نكون منهم •

علمتنى الأيام فيما بعد أن طريقة المجتمع السودانى خاصة ــ أم المجتمع البشرى عامة ؟ــ هى الا يقبل التبريز وأن يقرن بالمبرز حمارا ليكون له ضريبا تأديبا له وكسرا لأنفه وحفاظا على المساواة الفطرية والديمقراطية الطبيعية كما أرادها الله سبحانه وتعالى كظنهم فى أزله القديم • وعلى هذا فقد أخطأ أبو الطيب المتنبىء حيث قال :

وفى تعبٍ من يحسدُ الشمسَ ضوءَها ويَجهَد أن يأتى لها بضرِيب

فهذا الذى لا يبرح الناس يفعلونه ويفلحون فلاحا عجيبا • والتى تتعب هى الشمس لأن الضريب دائما هو الذى يضىء فى مكانها •

المرء كثير بأخيه • وفى كتب النحو :

أخاك أخاك إن من لا أخا له كساعٍ الى الهيجا بغير سلاح

والأخ شىء قلما يصاب • والعاقل من عرف قدر نفسه • وقديما قال النابغة الذبيانى :

ولست بمستبق أخا لا تلمّه على شعثٍ أى الرجال المهذب

فأوشك أن يجزم بفقدان الاخاء •

كان أخى حسن نعم الرفيق وغرق فى الغرب بالمترة (وهى البئر التى يسقى بها الزرع تستمد ماءها تحت الارض من تسرب النيل) عام الفيضان سنة ١٩٣٤م • وكان يلعب فنفذ القدر • حضرت الفيضان بالغرب وأذكره جيدا • ملأ البحر كل مكان واستدار حول الديار • وخرج خور «الفُوركِيت» فملأ ما بين العشير والفريع واستدار حول الجبانة حتى قارب الشيخ المجذوب •

وكأنى أنظر الى الشيخ أحمد مجتهدا عليه الغبار ومعه جماعة يعملون وقد أحاط الماء بداره من كل وجه وقد هدم نصف الجدار وجعله ردما يحجز به مد الماء • ولكن الماء كان يتسرب من تحت الارض وانفجر فى داخل الحوش وطما • وجعلت الجدران تنهار • وسقطت غرفة ثم اخرى • ثم لم يكن من الرحيل بد •

صحوت من الصباح واذا بالماء تحت العنقريب • (عين مفتوحة • نون ساكنة • قاف كالكاف مفتوحة • راء بفتحة مما له بعدها ياء ناشئة من الإمالة • باء موحدة تحتية. وهو السرير المستعمل عندنا وله أربع أرجل مستطيل منسوج بالحبال وهو درجات أرقى أنواعه مخروط الارجل حسن الصنع وعنقريب العرس كان ينسج بالقد أى الجلد • ويحمل الميت على العنقريب • ويقال لنجوم بنات نعش العنقريب • وما استبعد أن يكون أبو الطيب قد نظر الى أصل اسطورى يزعم أن بنات نعش يبكين أخا اسطوريا لهن محمولا على نعش حيث قال :

كأن بنات نعش فى دجاها   خرائد سـافرات فى حـداد

وكلمة العنقريب من أصـل سامى قديم لعله حمَيرى ، والله تعالى أعلم)

صـحوت من الصـباح واذا بالمـاء تحت العنقـريب .

كنت قضيت اليوم السابق أصنع نُؤْياً ـ أى حاجزا ـ أحبس به المـاء شرق السيالة . وكنت محتزما جادا واثقا أننى أصـنع شيئا . فأصبح لا شىء . أحسست الماء تحت البرش (البرش حصـير من سعف الدوم) الذى كنت راقدا عليه فوق العنقريب . صحوت . واذا بالفناجين وأثاث من البيت كل ذلك عائم . واذا بأحمد الريس رحمه الله ومركبه يمر بى أمام السيالة .

وكانت السيالة معلما . لها فروع كبيرات ظليلات متينات . قديمة سيالة جدنا عبد الله . وفرع متجه الى الجنوب سميك ثابت رصين . قالوا مرضت وقطعوها « نامات » ـ النامة الفرع الكبير السـميك المعطوف كأنه قوس قطاع من دائرة بحيث يصلح جزءا من حلقة السـاقية . كان الناس يصلون عندها العيدين والقادرية يدقون الطبل بعد الصلاة .

كان أول العهـد بالرجعة الى دارنا بعد فراقنا لها الى كسلا فمقرات فى أواخر العشرين (م) ونزلنا بالفريع وكانت فى دار خالنا الطيب ود آمنـة سيالة عليها السنابر وكانت بنته الصـغيرة آمنة حية حينذاك وكان الفريع ريفا بحتا ليس فيه أحد غريب .

وأخـذنا الوالد الى الغرب اذ عدنا زمن الاجـازة من مقرات ووجدنا الغرب قفارا . ذهبت غابة السنط بعدما كانت مثل جنينة «ود الاحمر» . هذه كانت مضرب المثل فى « أب حمد » .

بعد ذلك بزمـان قطعنا للغرب ، الوالد وأنا معه يوم التاسـوع أى يوم الوقفة ويطلق اسم التاسوع والوقفة على اليوم الذى قبل العيدين واصل فى التسمية عيد الاضحى لانه فى عاشر ذى الحجة ووقفة عرفات فى تاسع ذى الحجة . نزلت مطرة شـديدة تلك الليلة . وكان أبى قد أحضر معـه

الشـــاى والســـكر والدقيق لعمل لقيمـــات العيد ولما نزلت المطرة بتنا فى « العنقـــور » القـــاف بين المضـــمومة والمفتوحة والـــواو اشـــباع لذلك ٠ والعنقور بيت صـــغير مثل الخيمة من برش كبير أو برشـــين فوق عيدان معطوفـــات ٠ كان يشاهد المسافر بالســـكة الحديد كثيرا من العناقير بين الخرطوم والجيلى فضلا عن بينها وبين شندى وبينها وبين ســـوى ذلك ٠ أذكر لما أقبل الوالد على حفـــر المترة وكانت قد انطمســـت معالمها وجـــاء بالحطب وبدأ العمل ولم يعش بعد ذلك طويلا ٠

كان باستبالية (مستشفى كما نقول الآن) أتبرا زمنا ٠ وكان يجىء الى الرصيف ليلقى المحلى وأنا فى طريقى به الى الدامر ٠ وكنت لو جريت من المحطة بمجرد وقوف المحلى أصل الاستبالية بســـهولة وأزوره فى العنبـــر وألحق القطر ٠ ولكن أين اللب ٠ وزجـــرنى على أن لم أفعل ذلك وقـــال : « الله يهديك يا ولدى » ٠ واعطانى خمســـة قروش ٠ وكان المحلى يقف بالمكيلاب أو دار مالى فنشترى الموز ، القفـــة بقرش ونصف ٠ وكان الموز فاكهة جديدة جاءت مع الاجـــانب ٠ فواكه بلدنا التديمـــة المعروفة التمر والبطيـــخ والقاعون (الشمام) والـــلالوب والنبق والحنبق والدوم ٠ وفى تاريخ بلادنا القديم ذكروا زراعـــة الكروم ولم نجد لذلك خبرا ولا أثرا ٠ اللهم الا أن بعض الناس كانوا يعرفون الزبيب الذى يباع فى السوق عند التجار الكبار يجلبونه من الخارج ٠ وفى مديح ود مصـــطفى رحمه الله :

أحـــلى من العنب ، أحـــلى من الزبيب

وثقافة مداح الرسول عليه الصلاة والسلام كانت واسعة ٠

مات والدى رحمة الله عليه وقد جاوز الاربعين ٠ قالوا فى فراش البكا كان ابن سبع وأربعين سنة عربية ٠وأول ما بدأ العمارة تناولته ـــ تناولتنا ـــ العين ٠ كـــانت خير أيامـــه وأيامنـــا بكســـلا ٠

كنت بالداخلية أنشـــل الماء لاغســـل ملابسى لما صعقنى نبأ وفاة حسن غريقـــا ٠

عطف على التلاميذ عطفا شديدا بعد وفاة الوالد • كانت فى الناس رقة وبقية دين وانســـانية •

كان خطى واضحا ولكن لم يكن جميلا •

صورة خلوة سيدنا مالك واضحة نوعا ما فى ذهنى • أرى الالواح وهيئة الخط عليها • خلوة فكى (أى الفقيه) أحمد غير واضـحة • واذكر جرينا بين صرائف البيوت اليها جريا لا نهاية له • الصريف كالجدار سياج حول ســاحة البيت من العيدان والقصب ســاتر • تعلمت التهجى تحت النبق بمدرســة كســلا الاولية قبل دخولها ونحن أولاد عدد نكتب على التراب وعلى ألواح الاردواز وعلى ألواح الخشــب المدرســية ونقرأ كتاب ألف أرنب با بط وهو كتاب مصرى والبط طير كان فى بلدنا لايعـرف ولا يؤلف • وفى ذلك الكتاب المصرى عالقة بذهنى منه « أين الفيل يا خليل » ، ولعل هذا الســؤال قد كان فى جنينة الحيوانات بالقاهـرة أوائل عهد الناس بانشائها •

غير عالقة بذهنى حقا تفاصـيل تقدمى فى القراءة والتهجى وانما اذكر أنهم امتحنونا لدخول السنة الاولى الاولية وذلك فى سنة ١٩٢٩ م ــ ذلك كان أول دخـولى الكتاب • وأذكر كتاب المطالعة الذى يبتدىء بكلمـات متفرقـات من تأليف الشـيخ بابكر بدرى رحمه الله وينتهـى فى الدرس الثلاثين بقصــة الملك الاطرش الذى طلب من كل مظلوم أن يلبس عمامة حمراء فيعرف بعينيه اذ كان لا يسمع أنه مظلوم • شىء شبيه بشـجرة تولستوى • ولو فى هذا الزمان لزيد فى الظلم ظلمـا باحتكار بعض الناس للقماش الاحمر الذى تصنع منه عمامات المظلومين •

حاشية : قولنا شىء شبيه بشجرة تولستوى ، مع فارق وهو أن تولستوى جعل لمظلوميه الشجرة ليكونوا خارج داره فلا يدخلوها عليه ــ تعاليا طبقيا منــه عليهــم بــلا ريب فتأمــل •

هذا ، وأحسب أن القراءة ـ المطالعة ـ أشرقت على بفجاءة من طريق ديوان الشيخ المجذوب • ذكرى عكوفى على قطعه وحبى له ووضوح خطه المطبوع وجمال شـكل الابيات ، كل ذلك واضـح جدافى ذهنـى • رأيت الديوان مراراً من بعد ولكنه لا يشبه صـورة تلك الأوراق منه المتفرقات التى كنت أعكف عليها عكوفا :

متى فى طيبةٍ نركعْ   وفى روضـاتها نرتعْ
ويحوينا بها سلع   وأُحْـدٌ فوقه يُعـلى
أيا ذا القبة الخضرا   ويا ذا الحلة الحمـرا
ويا من مدحه نقرو   بكتب اللـه مذنـزلا
صلاة الله دائمة   على المختار فى الرسل

تلك الأوراق كانت كأنها عطرة •

كان خطى الرقعة غير جميل • وبفجاءة أشرق على تجويد الرقعة • كنت أَحسن أعسر الإملاء • الهمزات والألفات الليـنـة جميعا • وقرأت منظومة ابن مالك التى يذكر فيها الواويـات واليائيات من الافعال • وتعلمنا برى قلم البوص •

كانت أقلام البوص وألواح الاردواز وأقلامه وألواح الخشب المدرسية الرباعية الشكل بزوايا قائمة وطلاء أبيض وإطار كاطار الصور والكراسات للكتابة وللرسم والحسـاب والخط والورق المسطر وغير المسـطر وأقلام الرصاص والكوبية والريشات والاسـاتيك ومسـاحات الالـواح اللبّـاد والسبورات والطباشير والخرائط والصور المعلقة على الجدران جميع ذلك يستورد من الخارج ليؤكد معنى مدنية التعليم الجديد الطارىء على بلـد الأهالى •

كان خطى الرقعة ـ والرقعـة خط أولاد المدارس والخـلاوى ما كانت تعرفه ـ قبيحا • التلاميذ يفوتوننى فدرجات الخط • حاءاتى تبدأ من فوق

السطر وتتغلب عليّ وتنحدر تحت السطر • وأجتهد ولكن بلا جدوى • كـــان خط الوالد الرقعة مجودا • كنت كثـــير المذاكرة لكراســـاته بكلية غـــردون والمباهاة بها • كانت عندى كراسته فى تاريخ العرب الى خبر التتر والمغـــول بقلم البوص رقعة متقنة غاية الاتقان • ومسودات أشـــعاره بقلم الكوبيـــة والرصاص كلها رقعة • وكذلك دفتر حساباته لما كان كاتبا تجاريا بالرقعـــة ناصع بديع • مرة واحدة فقط كتب نسخا لى فى أول سورة الدخان لما شرفتها واضح جيد على اللوح • أعجب الجيران ولكن لا كما أعجبهم خطـــه الرقعة الذى رأوه فى كراساته عندى أتباهى بها • أشبه شىء بخطوط بعض الأسلاف الحســـنة التى فى وثائقهم القديمة ولا سيما أبونا محمد ود أحمـــد •

كان أحد أولاد الدفعة التى قبلنا فى ما أذكر جيد الخط ، رقعته حســـب القواعد ، صافية ، خالية من زخرفات التزيين • هى من نوع خـــط الوالد • عطف هذا علىّ بعد يتمى وأنا بالسنة الثانية وهو بالثالثة وشجعنى ونبهنـــى على أن حروفى منفردات صـــحيحة حسنة وأن خطى حقا ليس بقبيح ولكن النِسب بين حروفى غير سليمة • وكتب يرينى النسب • وأحسب أنى نظرت الى طريقة رسمه • وفجأة أشرقت على النسب • ووجدت ريشتى الصفراء « الريليف » تتساب على ورقة الكراسة أم أربع وستين والأحرف لها رونق ولألاء : « يكاد يبيض من نورهـــا الحبر » • أفهم الآن معنى هذه العبـــارة من شـــــعر أبى الطيـــب •

وما قلت من شعرٍ تكادُ بيوته اذا كتبت يبيض من نورها الحِبر

فهماً كأنه جديد • ينبغى أن يكون مثله فى مقاله هذا حسن الخط جدا •

تعليق : كرر أبو الطيب هذا المعنى فى قوله يمدح كافورا ويذكر سواد لونه :

يفضح الشـــمس كلما ذرت الشـــمس بشـــمس منيرة ســـوداء

ونظر الى هذا الوصف ابن خلكان فى ترجمته لكافور ونعته له بأنه كان أسود بصّاصـــا •

هذا ، ولم تكن كراسة نجيب هواويني التى كنا نتعلم من تقليدها الخط من أحب الدروس الىّ • والآن لم تكن بى اليها حاجة إلا من حيث انها اختبار أجتازه بنجاح وتبريز • وكانت للمدرسين فيها محاولات مختلفة كنا نبدأ بالمسافة التى تحت النموذج مباشرة فالتى تليها فالتى تليها • ثم بعد أن استمررنا فى ذلك زمنا جاء مدرس جديد وأمرنا أن نبدأ من تحت الى فوق وزعم اننا بهذه الطريقة نكون دائما نحاكى النموذج فيتحسن مستوانا أو على الاقل نحافظ عليه ، أما اذا بدأنا من فوق الى تحت فإنا سنحاكى خطنا فى كل مسافة تلى بعد المسافة الاولى ، وينحدر مستوانا الذى هو ردىء ••

« فهمت علىّ يا غبى !! »

وفهمت علىّ هذه عبارة غريبة سمعوها لاول مرة من المدرس الجديد وكان مما يقع فى حصة الخط ضرب موجع •

وأنا خاصة أفضل البداية من المسافة الأولى لأن الذى يبدأ من فوق الى تحت يقدر أن يوازن بين أدائه فى كل سطر وبين النموذج والذى يبدأ من تحت الى فوق لا يقدر على مثل هذه الموازنة بيسر ثم قد يطمس السطر الأسفل فى حين انتقاله الى السطر الذى فوقه •

لم يشرح لنا أحد معنى النقط التى فى نماذج نجيب هواوينى بجوار الحروف شُرحت لنا من بعد فى المدارس العليا • وهى نفس قصة النسب • كان خطى فى الانجليزية حسنا وكانوا علمونا طريقة ميلان الحروف من البداية • وجاء مدرس كان محبوبا مرحا ممتازا أبوى الروح وخطه جميل الا أنه كان يكتب باليد اليسرى ولاميلان لحرفه الانجليزى • وسئل عن ذلك فأنكر ضرورة الميلان وازدراه • ودفع الاعجاب به بعضنا فما استطاعوا أن يدركوا مستواه واضطرب مستوى القواعد الذى كانوا عليه • وأخطأ هو رحمه الله اذ أنكر أهمية ميلان الحروف شيئا •

الصغار مولعون بالتقليد ، والاعجاب واستشعار البطولة والهيبة كثيرا ما

يدعو الى المحاكاة ، ويوقع ذلك فى التشويش والخطأ وغير قليل من تقليد التلاميذ بعضهم بعضا مما يدخل فى هذا الباب •

لم نكن نستشعر وجود تناقض بين كون كتب المطالعة والجرائد والمطبوعات كلها نسخية والمكاتبات المخطوطة بالرقعة • كان هذا مثل خط الطبع فى الكتب الانجليزية وخط اليد الانجليزى • كانت الرقعة رمز تعليمنا الحديث • النسخ فى خط اليد ، نعم ••••• للزينة والزخرفة •

كان خط الخلاوى من قبيل النسخ وكان وسطا مضطرب النسب حتى فى كثير من المصاحف • لكن خط شيخنا محمد ود الطاهر رحمه الله كان من نوع البغدادى المسلسل تخالطه استدارة ما ذات لون من الخط الفارسى ولا سيما النون واللام • كان غاية فى الجمال ينساب على اللوح برونق ويسر وإسماح وسلاسة • عرفت خلوات الدامر النسخ الجميل منذ أيام السلطنة الزرقاء (سلطنة سنار) تشهد بذلك الوثائق المخطوطات • وخط شيخنا محمد من أجمل ما عرفته مع أصالة فى ذلك •

••• •••

كان ذهابنا للخلوة كأنه من قبيل التسلية لأنا كنا أولاد مدارس نذهب بعد الظهر الا فى الاجازة فنذهب حينئذ صباحا وظهرا ومساء •

أنا خاصة بدأت تعليم التهجى فى تحضيرى المدرسة والقراءة فى المدرسة والبيت • وقرآن المدرسة لم يكن يعجبنى أبدا — أذكر من ذلك جزء عم والمرسلات وسورة التحريم والتغابن وقل أوحى • نَغَمُ القراءةِ فى الفصل كان شيئا استشعرته ، حتى حينئذ ، شاذا • لم أتجاوب معه •

أذكر الوالد واللوح و « هل أتى على الانسان حين من الدهر » وكلما قلت ذلك نهاية ما بلغه لوحى عنده ، تذكرت تصحيحه تُمْنَى بالتاء الى يُمْنَى بالياء فهذه سورة لا أقسم بيوم القيامة وكأنه شك فنظر فى المصحف المطبوع •

كان حفظه بأبى عمرو وتدريسه لى بحفص ولا أذكر خطه لى ذينك اللوحين من هل أتى والقيامة مع أنهما كانا خطه ونسخا ولكن أذكر الدخان ونوناتها ذكراً جيدا — ولكن بعد ذلك بزمان •

كان صـــوته رحمه الله شـــجيا بالتلاوة . حفظ بالغرب على عمنا الفكى (الفقيه) الحسين ود عبد الماجد رحمة الله عايه . ثم قرأ على شيخنا محمد ود الفكى على الكبير بغرب بربر ودرس التجويد هنـــاك والشاطبيـــة على ودراوى من فقراء الصعيد المجودين . كان يتلو الساعات الطوال من الليل . وكان اذا اتفق أن حضر ليتفقدنى وبات عند ضابط الداخلية نهض الفجر أو الثلث الأخير وتلا ... كانت التلاوة ذكره منذ نشأنا عـرفنا ذلك منه وأقبل عليها أيما اقبال أخريات أيامه . وسمعت من الثقة الذى لا يشك فى خبره أنه اذ كان بكســلا كان مما يقيم الليل تاليا عند الضريح أحيانا كثيرة . وأذكر قراءته عند قبر والده بصوت جهير بالجبانة بالدامر .

كان أستاذنا الشيخ بابكر عبد الله حسن التلاوة . أذكر تلاوته ســورة مريم وكسره صاد صــليا وعين عتيــا وجيم جثيا كحفص وحفظه بروايـــة الدورى عن أبى عمرو وأحســبه نبه على الروايتين من دون نســبة لهما . وقرأ سورة الانفطار فأنصت الفصل وكان صوته شجيّاً ولا سيما حين وصل « والأمر يومئذ لله » . وذكرت تــلاوة الوالد وكأنّ قد أغــرورقت عينـــاى بالدموع . كان شيخنا محمد ود الطاهر رحمه الله قوى الصوت صــحيح الأداء برواية الدورى عن يحى اليزيدى عن أبى عمرو ، سريع الحدر .
القراءة ترتيل وتدوير والحدر وهو أسرعها .

كان فى الرمية شيخنا يكاد يدرج بسم الله الرحمن الرحيم . وفى قراءة الليل يسمع كل حوار فمن أخطأ رماه بحصاة وصححه بصوت واضح وكان ربمــا أخــذ بعض الحــيران بشــدة .

الحــيران (ننطقها بامالة فتحة الحاء متولدة عن ذلك ياء الإحالة) جمع حُوّار بضم الحاء وتشديد الواو مفتوحـــة . واشتقاقها ــ لا أشــك الآن فى ذلك ــ من الحَوارِىّ ، أحد الحواريين أصــحاب سيدنا عيسى عليه السلام ــ وهكذا فسروا معنى الحوار لنا زمان كنا فى الخلوة ، وحسب بعضنا من بعد

أنه من الحوار ولد الناقة الذى يتبعها ، وذهب الى هذا الوجه الاستاذ الكبير عبد العزيز أمين عبد المجيد رحمه الله فى كتاب له ومما يبعد عندى أمر ولد الناقة فى أصل هذه الكلمة أن الحوار بمعنى الغلام الذى يدرس فى الخلوة أو يتتلمذ على شيخ ، مشددة الواو فى نطقنا الدارجى شدة واضحة غير خفية وحوار الناقة لاشدة فى واوه • ثم أن الحمير أكثر بريف النيل عند عامة الناس من الابل ، اللهم الا أن يزعم زاعم أن الحوار يكون أيضا فى أولاد الحمير كما قال بعض المفسرين ان البعير لغة فى الحمار يفسر به قوله تعالى « ولمن جاء به حمل بعير وأنا به زعيم » فى سورة يوسف •

كأنى أسمع صوت العليابى رحمه الله فى سورة محمد وقد صححه الشيخ وحثه بشدة : يتـ.تعون ـ ويأكاون ـ كما تأكل الأنعام ـ والنار مثوى لهم • يقطعها تقطيعا • وصوت الطاهر الشكوت رحمه الله وقد قيم (بتشديد الياء المفتوحة أى أقام على لوحه فبات عنده لم يحفظه ويعرضه على الشيخ) • واشتد عليه الشيخ • وقام ليصلح وقود النار وهو يردد بتقطيع • كانت قراءة المساء قراءة جد • كانت الاصوات فى قراءة الظهر حادة جهيرة صاخبة ولكن كان أكثرهم الصغار ، والحيران المتقدمو الالواح والمتقدمون فى السن يقرأون بكالسر • أما فى الليل فكانوا يقعدون حلقة حول النار •

كان شيخنا الفقيه الكبير ، الفكى عبد الله قد قارب التسعين • ولكن كان متماسكا مشرق الطلعة يحضر صباحا فى القرآنية عندما يجلس الحيران عند شيخنا محمد للرمية •

كانت القرآنية غرفة كبيرة واسعة مكنوسة وفى طرف منها رف كبير توضع عليه الالواح ويجىء الحيران فيأخذ كل منهم لوحه • ويغسلون ألواحهم فى حجر المحاية ، أى الحجر الذى تمحى فيه ألواح القرآن بغسلها بالماء ، ولا يخلو من بركة • ويجعلون عليها الجير للكتابة •

كان الجير حجارة صغارا هشة هرمية الشكل والقطع الكبيرة منها تتشقق ويخالط بياضــها شيء من كُهْبَة . كنت استغرب من شدة بياض طباشــير المدرسة ولكن الطباشير إذ بُلَّ بالماء لم يندح على خشــب اللــوح اندياحـا سهلا . كان الجير يجاء به من جهة جبيل أم على (هكذا صحة الاســم جبيل بالتصــغير وهو كذلك لا جبل كما نقول الآن) . كنا نحضره من ناس عمنا الفكى منصــور ولد ود منصور رحمــه الله وكان عندهم كثيرا يجيئهم من المحمية . كان بعض الالواح قد جعلوا يصنعونه من خشب السوق الابيض المستورد من الخارج ــ روسيا أو بلاد البلطيق . وكان ذلك الخشب فى الواح القرآن لا يعجب أحدا . وكان لا يمســك الجــير وربما ترع عليه الحبــر . وشكله رباعى مستطيل بزوايا قائمة ورقبته من نفس شــكله . لوح العشر بضم ففتح ــ ثخين سمين ورقبته غير منتظمة . لوح الهجليج أملس مرهف الاطراف ويتفق فيه وجود عين واعوجاج جانب وبعض ميلانٍ أحيانا ، رقبته مهندسة كالشكل المعين أحيانا وأحيانا حادة المثلث الاعلى وأحيانا كالهــلال كثيرا ما تكون كالهلال . وبعض ألواح الهجليج طوال ضوامر وبعضها ذات عرض ولاسيما ألواح الحيران الكبار ويقــال المهاجرين منهم الطــلّاب أى طلاب علم الدين الواحد طالب . وهذه ــ أى ألواحهم ــ لا توضع مع الالواح الأخر ولكن تكون مع صاحبها لا يفارقها . وألواح بلاد هوســا أجمــل من معظم ألواحنا لأن الاخشاب ثَمّ أفضــل وأهلة رءوس الالواح حســـنات الهيئة ثم أسفل اللوح هلالى الانعطاف واسعه حرفاه الى أســفل دقيقــان يسهل اتكاؤه واسناده بهما على الرحال عندما ينــزل المســافرون ومنهم من يكونون أهــل طريق ودرس وقرآن . وقد رأيت من ذلك كثيرا عند الذيــن يجيئون بالجمال من الصــحراء الى « كنوُ » وتكون منازلهم بالقــرب من رحالهم تحت أشجار « التُّوروا » الظليلات الفساح . وأحسب أن الالواح فى كسلا حسان ويصنع بعضها من الأندراب وهو شجر خشبه جيد . غير ذى شوك وله ثمر يؤكل . أذكر جرينا فى كسلا نلقط ثماره الحلوة ذات اللزاجة .

أجود من الحنبق ، بضم الحـاء وسكون النون وباء مضـمومة بعدها قاف ننطقها مقاربة للكاف • الحنبق ثمر التُنضب بضم تائه وضاده فى الدارجـة ولكن هذا (أى الحنبق) أحسـن حمرة ، أرجـوانى اللون ، منظر نُوّاره الأرجوانى الزهرات بهج مفرح فى طريق ما بين القطينة وود الزاكى • واذا لعبت مع أحد الناس وغلبته ولم يكن رياضى الروح فذلك يقال له : « حَنْبَكَ يُحَنْبِك » وأحسـب أصـلها من الحنبق أى التوى وتلزج • والحَنْبَكَة أكثر شىء بين الناس • وأذكر اشتراء الوالد كرسيين من خشـب الأندراب من كراسى كسـلا ذات اللون الاحمـر الفاقع ، لازالا معنا على تعدد العوادى عليهما • ورأيت بعـد دهر عند ناس المغربى رحمه الله (الحـاج عبد الله المغربى رحمه الله) وكنت أزورهم كثيرا فى الوسطى والتجهيزى والعليا ــ كانوا أهلا وأصدقاء وكان أحمد زميلى منذ الاولية ــ كراسى مسـند ذكر أحمد انها من الاندراب وشعرت عليها بعطف التذكر القديم • وكـان محمد المغربى أبرع الناس فى اللغة الانجليزية وتعلمنا منه كلمات • وصحح نطقى فى أمثال « كردج » carriage ومردج marriage وذلك أن أحد مدرسى الدفعات التى قبلنا كان ينحو بفتحتها الى الإمالة وكان تلاميذه يحدثوننا عنه باعجاب فحاكيتهم على الخطأ • زعموا أنه يقول لهم : كيردج ، ميردج ، زد شيئا فى المدة carriage, marriage, a bit longer

هذا وكان تراب القرآنية يلمع ببقايا شظايا الثمام والقصب التى تتساقط من قص الاقلام • كانت الاقلام تُبرى طوال اليوم وأكثر شىء وقت العصر فى ساحة الخلوة الفسيحة ، وكان معظمها من قصـب الذرة وكـانت أقلام الثمام ــ وبعضه جَلْدٌ ــ أدق وأرق ولابد منها لعمل خطوط بعض الشرافة • وكان قلم القصب ، على كثرة القصـب وكون الفص منه الذى تجعله قلما لا ثمن له ، يبقى عند صاحبه الزمن الطويل فاذا انكسر حرفه أو احتاج الى تجديده أو تجويده براه •

قرأت منـذ زمن قريب فى كتاب أعلام المغرب العربى للأستاذ عبد الوهاب

ابن منصـــور أن الفقيه ابراهيم بن أحمد الرياضى من علماء القرن الثالث الهجرى بالاندلس حكى عنه أنه كتب على كبره كتاب سيبويه كله بقلم واحد مازال يبريه حتى قصر فأدخله فى قلم آخر وكتب به حتى فنى بتمام الكتاب» والكتاب قريب من ألف صفحة كبيرة بحرف المطبعة الدقيق فى كلتا طبعتى بولاق وباريس فتأمل • واعلم اصـــلحك الله أن القلم الجيـــد من ضروب القصب الجيد أفضل من أقلام المصانع المعاصرة التى يباهى بأنها فاخرة ، وذلك لخزنه الحبر خزنا طبعيا فينساب من سنته فى يسر وإسماح •

وكان الحبر يقال له العُمار • وأحسب سبب هذه التســـمية أنه تعمر به الالواح التى بتعميرها تعمر المساجد وتطمئن القلوب • والعمار يصنع من سواد آنية البيت الذى نقول له السَّكن والسجم بالتحريك فيهما ومنه قول النساء « سجمى سجمى » للتفجع • يكشط من تحت الدوكة والصاج والحلة والكنتوش وغير ذلك ، وقد يحرق بعض الثمام وليس سواد حريقه فى جودة ما تقدم • ويجاء بالصـــمغ فيدق ويبل ويخلط بالســـواد وينبغى أن يكون السواد كثيرا أكبر نسبة من الصمغ ـ نحو ١ : ١٢ وينبغى مع المحافظة على هذه النسبة أو قريب منها أن يكون مقدار الصمغ ونوع جودته مما يمكن من استيعاب السكن كله عند الخلط • ويخلطان خلطا جيدا حتى يصير كل ذلك عجينة واحدة سوداء متماســـكة مرنة متينة • ثم يقطع أقراصا صـــغيرة مستديرة وينشف فى الهواء حتى ييبس • وكلما كان السكن ســـواد دخان حقيقى لا مدقوقا من شىء محروق كالثمام والعيدان وما أشـــبه ـ وكانت نسبته الى صمغه الجيد عالية كان القرص الناشف منه حين يخلط مع المقدار المناسب له من الماء حريا أن ينشأ عنه مداد حسن • ثم بعد ذلك يجاء بالدواة وهى من الفخار مقعبة الاسفل مخروطة الاعلى ضـــيقة الفم كما ينبغى • والدوىّ أشكال • وفى زمـــاننا بدأت تبطل دوى الفخار ويســـتعمل الناس استنسهالا « علب الورنيش » الزجاج وهى قباح ، وهذه سنة التطور • كما بطلت القواديس وهى عندنا جرار الفخار السود التى تستعمل فى السواقى

لرفع الماء واستبدات «بالجوالين» والقرب والأسقية من الجلد التى يوردبها الماء واستبدلت بصفائح البنزين • وكما بطلت الكناتيش من أوانى الفخار يصنع فيها الطعام وملاحها ـ أى ما يطبخ فيها من أدام ـ ألذ وأطيب ملاح واستبدلت بحلل الطلس وحلل الألمونية • والآن أحسب أنه قد جعلت تظهر بعض الكناتيش مرة أخـــرى • ولكنهـا الآن كناتيش «فلكاوريـــة» «انثربولوجية» يشوب مأساة قديمها افتراء مر حديث ، كثير •

توضع الاقراص اليابسة السود ويوضـــع فوق كل قرص أو قرصـــين شىء من سبيب شعر أذناب البقر ليفصل بينهما حتى اذ صـــب عليها الماء وهى فى الدواة احتفظت فجوات السبيب الفاصلات بين الاقراص بالهواء فيعين ذلك على سرعة تخمير العمار واستوائه •

أذكر أذناب ســبيب البقر زمانا مضى اذ كنا نمعطها ونجىء بصـــفيحة ونقددها قدودا كثيرة ونعقد فى كل ثقبين منها سبيبة نجعل لها عقدة انشوطة مفتوحة ونغطى الصفيحة بالتراب وننثر عليه الحب وتجىء الزرازير لتلاقط الحب فتقع فى الشرك ونذبحها وننتف ريشها ونشويها ولا نخلو من أن تلذع أصابعنا النار التى نوقدها وهى لذيذة جدا ولا سيما صدورها •

كانت تعجبنى قصة الحمامة المطوقة فى كليلة ودمنة وأتعصب الى جانبهـا ضد الصياد ، وكان المنطق يقتضى عكس ذلك ولكنه كانت له شبكة لا صفيحة وسبيب وكنت أنا الحمامـــة المطوقة • ولما ســمعنا طلقات نارية فى ناحية «بيت مرى» فى طريق «برمانة» من جبال لبنان وقيل لنا هؤلاء يصطادون العصافير تذكرت كسلا وجرينا نطارد العجول وننتف من ســبيب أذنابها بسرعة وهى جارية وتتألم وتمد بأذنابها وتنطلق انطلاقا •

وما كانوا بالطاقات النارية يصطادون العصافير على الأرجح • كان ذلك أول صيف سنة ١٩٥٨ م • كانت تلك بوادر قتال عميت علينا • ولعمرى ان صيد الكبار العصافير لمن الضـــلال •

لا أذكر أنني وضعت سبيبا فى زجاجة الورنيش التى كنت معجبا بها وكان زجاجها نظيفـا يلتمـع • ولكن وضعت خيـوطا من قماش سـلكتها أو سلكت لى • أحسب أن الوالد ذكر أن هذا يسد مسد السبيب • و كان ربمـا استقذر بعض الاشياء أحيانا • وقال بعض الناس : لا ، الا السبيب • أى لا يصلح لعمل الحبر إ لاالسبيب ، لا الخيوط •

وخمر العمار وفارله زبد وغمست القلم فيه فاذ هـو أسـود عامر • واذا لحسته بلسـانك وجدت له طعمـا فطيرا طاعمـا •

أظن ــ ظن تذكر ــ أن الحيران كانوا أول شىء يقرأون أسماء الله الحسنى ثم يرفع شيخنا الفكى عبد الله يديه بالفاتحة وكان يجىء معه فكى الطـاهر ود بابكر وفكى على ود نور الدين يصحبانه وشـيخنا محمد والحيران كلهم واقفون لفاتحة الصباح بعد اسـماء الله الحسنى • وبعـد الفاتحـة يرمى شيخنا الفكى عبد الله تمرات ويتخاطفها الصغار • ثم يخرج شيخنا الفكى عبد الله بوقاره وترتفع أصـوات الحيران •

المتدئون يقرأون بانَصَبْ ــ بى خِفِضْ ــ بورُفـَـعْ ــ أب جَزِمْ ــ باجـاب ألف ــ بى جيب يا ــ بو جاب واو وألفْ • ولكل من هؤلاء المبتدئين ولد أكبر منهم يدرسهم (يخطـون على التراب) • تراب القرآنية كان ضـاربا الى السواد ويخالطه لون رماد • هذه القرآنية القديمـة • ويكتب شـيخنا أول كتابة على كل لوح ــ الحروف ــ ال باجاب ألف ــ الفاتحة ــ كل ذلك ايذانا بالبركـة •

***** *****

يكون أمام الشيخ صف نصف دائرى الشكل أمامه ، فيه الحيران ينتظرون الرمية ، أى املاء الشيخ ، كانه يرمى لكل واحـد منهم الحرف الذى ينتظر منه كتابتـه على لوحـه •

وشيخنا كانت له ذاكرة حسابية السنخ • « كمبيوتر » ذهنى هائل • هـذا يقول له : سيدنا ــ (هكذا يخاطب الحوار شيخه السين من سـيدنا ممالة

الفتحة مع اشباع يولد منها ياء وبعد ذلك دال ساكنة ونون وألف ولا تشــدد الياء من سيدنا) سيدنا « كلا » فيقول الشيخ على الفور : لــو تعلمــون • وهذا حوار آخر يقول له : سيدنا ، لكيلا يعلم • فيقول الشــيخ : من بعــد علــم شــيئا •

حوار (٣) : سيدنا لكيلا يعلم الشيخ : بعد علم شيئا (بدون من)
حوار (٤) : سيدنا ، لم يكن الشيخ : الذين كفروا من أهل الكتاب
حوار (٥) : سيدنا ، لم يكن الشيخ : الله ليغفر لهم ولا ليهديهم طريقا
حوار (٦) : سيدنا ، وانظر الشيخ : الى العظام كيف ننشرها
حوار (٧) : سيدنا ، ولكن أنظر الشيخ : الى الجبل فان استقر
حوار (٨) سيدنا ، يتمتعون ويأكلون الشيخ : كما تأكل الانعــام
حوار (٩) : سيدنا ويأكلون الشيخ : التراث

ويكتب الولد ألفتاء ويرى الشيخ ذلك فينهره ويتناول اللوح ليصلح خطأه ويصيح حوار من وراء الذين يتلقون الرمية حــوار (١٠) : ســيدنا ، أب كراع قرصــــنى

الشيخ : تعال ياولد ••• حوار (١١) والله ما قرصته ياسيدنا حوار (١٢) : سيدنا ، فيها فاكهة ••• الشيخ يضرب الحوار (١١) ضربة واحدة ويقول له : امش ، مطموس ••• ويرمى بحصاة بعيدا ••• اقرا قر ينفخك ••• حوار (١٢) : سيدنا ، فيها فاكهة ••••

الشيخ : والنخل ذات الاكمام

حوار (٦) سيدنا : ننشرهــا

الشيخ : ونكسوها لحما وانظــر الى حمــارك

حوار (٧) فان اســتقر

الشيخ : مكانه فسوف ترينى

حوار (١٣) سيدنا ، ما أنا بمصرخكم

الشيخ : وما أنتم بمصرخى

حوار (١٤) سيدنا ، ونبئهم

الشيخ : عن ضيف ابرهيم

حوار (١٥) سيدنا ، وهل أتاك

الشيخ : نبأ الخصـــم اذ

حوار (١٦) سيدنا ، من جبال فيها

الشـــيخ : من برد فيصـــيب

وينظر الشيخ الى ولد يتلاعب فيرميه بحصاة : ـــ ود الحرامات

حوار (١٦) من برد فيصـــيب ٠٠٠٠

حوار (١٧) سيدنا ونبئهم ٠٠٠

الشيخ للحوار (١٦) : من يشاء ويصرفه ٠ وللحوار (١٧) : أن الماء قسمة بينهم ـــ حوار (١٨) : رجيما الشيخ : لعنه الله وقال ٠٠٠٠

وهلم جرا ٠ وانما هذا تمثيل والذى كان يصنعه شيخنا أعجب مع تناول لوح ذاك وطمس حرف خطأ بأصبعه ومعاقبة مخطىء وســماع عرضــة مُقيَـّم وتدريج حوار بطىء وآخر فى مرحلة التهجىّ ٠٠٠ بسم الله الرحمن الرحيم ، يكاد يدرجها شيخنا ادراجا ٠٠٠ هذا حــوار مبتدىء ٠٠ ألم تر كي ٠٠٠ ف يخطىء الولد ويمســح العمار باصــبعه ويبصم بياض اللوح بصــمات من الاصبع ٠٠٠٠ ويلحسه بلسانه ٠٠ وقد يكون يبكى ٠٠ وقد يكــون ضرب أو زجر ٠٠٠٠ وآخر يتلقى كلمة ٠٠ وآخر يتلقى أكثر ٠٠ ولا يقــول الحيران ســيدنا ســيدنا يطلبون منه الرمية واحــدا وراء الآخر كما قد يتبادر من التمثيل الذى مثلناه ، ولكن يقولون ذلك ثلاثة وأربعة وأكثر وأقل معا وهــو يجيبهم تباعا وربما التفت الى حوار فى بعض الشأن والقى بالرمية الى آخر كل ذلك فى سرعة وعفوية خالية من التكلف كل الخلو من جانبه ٠٠٠٠ بل هم فى شك منها ٠٠٠ سيدنا ٠٠٠ بل هم فى شك منها ٠٠٠ ـــ بل هم منها عمون

•••• عمون •• ء •• مو •• وأخطأ الولد ••• سيدنا وما نــزل من الحق
•••سيدنا ••• الى البيت العتيق ••• سـيدنا من الضــالين ••• ويرمى
بحصاة لولد بعيد ••• ففررت منكم لما خفتكم ••• سـيدنا •• لما خفتكـم
•• سيدنا ، قالت أمرأة العزيز ••• الآن حصـحص الحق أنا راودتــه عن
نفسه ••• سيدنا ، عن نفسه •• وانه لمن الصادقين •• أم يقولون افتريــه
••• فاسلكى سبل ربك ذللا •• قياما للناس والهدى والقلائد ••• عــزين
فى روضات الجنات •• نذقه من عذاب السعير ••• فاذا هى شاخصــة ،
سيدنا ، فاذا هى شاخصة ••• الحسنى وزيادة ••• أبصار الذين كفروا
بعض الحيران آيات لا تبلغ ثمنا •• بعضهم خروبة أى نصف ثمن •••
الذين جعلوا يصعدون يكتبون ثمنا ثمنا ••• يبدأ الحوار بالفاتحة تبركابها
لأنها أول المصـحف ثم يشرع من عند قصار المفصـل • النــاس • الفلق •
الاخلاص • وهكذا يصعد نحو عم • تبارك • قد سمع • قال فما خطبكم •
حم (الاحقاف) • اليه يــرد ••• فمــن اظلم • وما أنزلنــا (يس) ،
(ربع القرآن) ويستمر صاعدا حتى يبلغ البقرة • القرآن كله ثلاثون جزءا •
كل جزء فيه حزبان • مثلا جزء عم الحزب الاول فيه يبتدىء بعم يتساءلون
وينتهى فى آخر ســورة السماء والطارق فمهل الكافــرين أمهلم رويــدا •
والحزب الثانى يبتدىء بسبح اســم ربك الاعلى وينتهى فى آخر ســورة
الناس • جزء تبارك الحزب الاول من تبارك الى آخر سأل سائل والثانى من
قل أوحى الى آخر والمرسلات • وهكذا وهلم جرا • وكل حزب مقسم الى
ثمانية أقسام كل منها اسمه ثمن فالقرآن كله فيه ثمانون واربعمائة ثمن •
العائدون (وهم الذين قرأوا كل المصحف من الناس الى البقرة وشرعوا مرة
أخرى من الفاتحة فالبقرة بحسب ترتيب المصـحف ليجـودوا حفظهـم)
يكتبون فى الغــالب ثمنين وهو الذى يقال له ربع حــزب • ومن أصــحاب
الالواح الكبار العراض من قد يكتبون مقرأ ــ المقرأ أربعة أثمان ، اشتقاقه
من قرأ يقرأ كما ترى ، وهؤلاء أصحاب الدراسة ، يتدارسون القــرآن معا

وهؤلاء تجاوزوا مرحلة الرمية من الشيخ ، يكتبون حفظا من صدورهم والمناظرة أى الكتابة من النظر فى المصحف تنتقد ، ويصححون ما كتبوا بعضهم لبعض وربما رجعوا الى الشيخ •

****** *****

اذكر أنه كان يجىء الى الخلوة مهاجرون كثير • ومع بعضهم ألواح كبيرة ومن أهل الغرب شناقيط وهوسا وسواهم ، منهم من يكتب بحرف غريب الفاء نقطة واحدة من تحت والقاف نقطة واحدة من فوق ، هذا هو الخط المغربى ، قراية ورش (أى رواية ورش عن نافع) ، يميلون والنجم اذا هوى امالة كاملة •

ومن بعد قال لنا الحذاق هذه الامالة البطحية ، يعنى الشديدة ، فى رواية ورش خطأ لان ورشا كله بين بين عند من روى له الامالة • وفى كتاب ابن مجاهد ما يدل على أن البطح فى رواية ورش له أصل •

وكان كلما فرغ حوار مما رمى عليه الشيخ ، وأتم كتابة لوحه ليومه ذلك ثمنا أو دونه ، ناوله الشيخ ليصححه • والمتقدمون من طلاب الدراسة ، كما تقدم ، يصحح بعضهم لبعض • والصحة ـ هكذا اسمها ـ المراد منها تصويب الاملاء والشكل كما هو فى المصحف •

بهذه الطريقة ، طريقة الاخذ عن الافواه والمحافظة على الرسم المأثور ، تواتر نقل القرآن تواترا متصلا منذ زمان الصحابة والرسول صلى الله عليه وسلم الى زماننا هذا • وليس لملة من الملل من تواتر نقل كتابها وسنة نبيها ما لنا معشر المسلمين • ورحم الله البوصيرى اذ يقول :

بشرى لنا مَعشَر الاسلامِ ان لنا   من العناية ركناً غير منهدم
لما دعا الله داعينا لطاعته   بأكرم الرسل كنا أكرم الامم

فعلى الذين يريدون أن يستعينوا بالوسائل الحديثة والتحليل العصرى فى تعليم القرآن أن يتذكروا أن التواتر المأثور مقدم على جميع ذلك وهو السنة وفيه البركة • بعض مصاحفنا فيها امالة البطح وبين بين والثانية غير

معمول بها فى المراحل الاولى لعسرها ويجعل مكانها الفتح فى المواضع التى تكون فيها مروية لابى عمرو من طريق الشاطبية والتيسير مثل رءوس الآى فى طه والنجم وسأل والقيامة والنازعات وعبس وسبح والشمس والليل والضحى وأقرأ ، والمجودون يعرفونها ويتلقونها أخذا عن شيوخهم • وبعض مصاحفنا تكتفى ببيان البطح دون التقليل كما فى « رأى » و « التوراة » و « الكافرين » والعمدة فى قراءة القرآن كما قدمنا على تواتر التلقى • ومن أجله جردت المصاحف الاولى من النقط وبقى العمل على ذلك دهرا • وكتب التجويد مراجع واسناد ومما أعان به الله جل شأنه مع التواتر على حفظ الذكر الحكيم ويذكر أن محمد أحمد المهدى رحمه الله أخذ الناس بالفتح فى القراءة كلها واحتج له فى هذا الذى صنعه بأن الفتح أصل والامالة فرع وهو قول ابن القاصح فى شرح الشاطبية وابن عقيل وبعض شراح الالفية فى باب الامالة وفى الامر نظر وكلا الامالة والفتح لعله أصل وأمسك ابن الجزرى عن أن ينتصر لمن قال أن الفتح أصل أو قال انهما كليهما أصل • وفى كتابه النشر ما يفيد صحة الفتح لابى عمرو فى الحروف التى ذكروا له فيها امالة بين بين مثل الاحدى عشرة ومثل الحسنى والدنيا وعيسى وموسى وعلى هذا الوجه جاء الرسم بتركها فى المصاحف التى تركتها وهو صحيح ، قال ابن الجزرى « وكل من الفتح وبين اللفظين صحيح ثابت عن أبى عمرو من الروايتين المذكورتين قرأت به وبه آخذ » ولم يتواتر عن أبى عمرو الفتح فى ما امالته له شديدة باتفاق نحو : وانصرنا على القوم الكافرين ، والله تعالى أعلم •

هذا وبعد الصحة يأخذ الحيران فى القراءة وترتفع أصواتهم • ويرفع الشيخ يديه بالفاتحة ايذانا بمسامحة الصغار اذا رضى عن أصواتهم ونشاطهم • وآخر النهار قبيل الزوال يرفع يديه بالفاتحة فينفضون جميعا ويعودون بعد الزوال عند استحكام الظهر واحدا واحدا واثنين حتى تمتلىء القرآنية ويكون بعض من قيَّموا (أى لم يحفظوا فى اليوم السابق) يصححون فى هذه الفترة أو يعرضون (أى يسمعون الشيخ ما حفظوه) •

ويمضون بالأمر هكذا الى وقت العصر • وبعد صلاة العصر يكون منهم فى داخل القرآنية ومنهم فى ظل الظهر (أى ظل عشية اليوم) ثم يرفع الشيخ يديه بالفاتحة فينصرف الصغار ويبقى حيران قراءة العشاء • وهؤلاء يستديرون حلقة كاملة بعد صلاة المغرب ويبقون الى صلاة العشاء ويبقى كبارهم بعد العشاء والشيخ أبدا يؤذن بانصراف من يُراد انصرافه برفع يديه بالفاتحة •

خشب النار التى توقد يجمع بالفزعة نهار الثلاثاء • الفزعة بفتح الفاء وسكون الزاى وربما حركها بعضهم • يخرج للفزعة كبار الحيران غير العائدين وغير المتقدمين جدا ، الحزاورة الشداد المتوسطو الاسنان الذين يستطيعون الاحتطاب ويصلح أن يكونوا معا جماعة ، فهذا فزعهم ومن أجله سميت الفزعة • يقطعون كل ما يصلح من حطب للوقود وأخشاب السلم والسيال والتنضب ، هذه كانت أجود ما يحتطب • تحزم وتحمل وتوضع بمكان تنشف فيه وتيبس وتوقد من بعد • والتنضب قد يوقد وهو أخضر فيشتعل اشتعالا • التنضب الذى ذكرناه آنفا وقلنا يثمر الحنبق وطعمه فيه لذع ويصلح الغصن من أغصانه مساويك وهو فى هذا دون الأراك ، وله شوك دقاق حداد وقالوا وجوده فى الارض دليل خصبها وهو أخضر الاغصان أبدا خضرة جفاف تعلوها فى الصيف غبرة ويقال تأوى اليه الحيات فاحذر • والسلم من أسرة السيال والسنط لا يكبر ، عهدى به وتقوم أغصانه عيدانا معا ، وجيد فى الوقود ، وتصنع منه العصى القويات المعطوفات الرؤوس التى تصلح للدفاع عن النفس واصلح العصى لقتل الثعابين • وقد تعلم خبر الحطيئة الشاعر اذ كان يرعى غنيماتٍ له ومر به رجل وأراد سؤاله شربة لبن • قالوا فقال الرجل ، يا راعىَ الغَنَمْ • فأجاب الحطيئة يُشِير بعصاه : عجراء من سلم • فقال الرجل : انى ضيف • فقال الحطيئة : « للضيفان أعددتها » • وكان حيران الفزعة يزعم بعضهم أن عصى البشم (أحسبه هو بشام جرير حيث قال :

سقى الله البَشَامَ وكلّ أرضٍ من الغَوْرَيْن أنبتتِ البَشَاما

وحيث قال :

متى كان الخيام بذى طلوح سقيت الغيث أيتها الخيام

أتذكر اذ تودّعنا سليمى بفرع بشامةٍ سُقِىَ البشام

وعصىّ السمر أجود من الخشب القريب الميسور • لا ، عصا السّرْحْ • ـ لا عصا الددا • • • • وربما لعبوا السيجة والطاب • وكثيرا ما يتشاجرون ، حيران الفزعة وتقع بينهم الشرور • فاذا بلغ الشيخ شىء من ذلك فربما أدى الى عقاب « وفلغة » أى ضرب على القدم ، ويكنى مثل هذا العقاب « أم سعد الله » يقال دقّوه أم سعد الله أى على قدميه • وهو فى الخلوة كثير ولعله أفضل من جلد المدرسة الذى على العجز يخيّل الى أن جلد المدرسة فيه اهانة أبلغ •

مكان النار القرآنية يسمى فى كثير من خلوات بلادنا « التقابة » بضم التاء وتشديد القاف بعدها ألف وتقابة القرآن أى نار القرآن • والتقابة لفظ عربى قلبت ثاؤه المثلثة فى الدارجة تاء مثناة واشتقاقه من ثقوب النار وأثقابها • قال تعالى : « السماء والطارق وما أدراك ما الطارق النجم الثاقب » أى المضىء المتوهج • قال الطبرى فى تفسيره : « والعرب تقول أثقب نارك أى أضِئْها » وهذا أصل اشتقاق « التقابة » عندنا لأن نار القرآن يراد منها الاضاءة • وبعض خلوات القرآن يكثر فيها رماد التقابة ويكون أكواما ضخمات • ذكروا ذلك عن « أم ضبان » شرق النيل الازرق • ونار القرآن فى خلوات بلدتنا ليست حولها أكوام رماد • فقيل ذلك كرامة من رجال الجبانة الطاهرة التى يسمع منها حدر القرآن وتدويره فى الليل البهيم ، اذ كانت نار القرآن بها قديمة • وعندى أن السبب فى ذلك لعله من الوقود • نوع الوقود الذى يستعمل تستهلكه النار فلا يبقى من رماده الا هباء يسير تذروه الريح فيختلط بسطح التربة الرملية ، ذلك غاية مايبلغه

ويقوِّى هذا الوجه أننى لم أر رمادا كثيرا بالغبش ونار القرآن فيها قديمة ومعروفة بالتجويد وخلوات بربر شرقا وغربا كانت معروفة بعلم التجويد مثل خلوة شيخنا محمد ود الفكى على رحمة الله عليه التى قرأ فيها الوالد رحمه الله .

كانت نار القرآن ثاقبة متوهجه تضىء على كل لوح . وكل حوار كان يقعد فى الحلقة مُتحرِّفاً شيئا ما ولوحه مُتَحرِّفٌ شيئا ما حتى يعمه ضوء النار .

— استطراد —

أذكر اذ احتفلنا بعلى بك الجارم فى حدائق المقرن عصرا . وكان ذلك بعد أن احتفل به الخريجون فى ناديهم بام درمان وكان مركز الحركة الوطنية وألقى — رحمه الله — قصيدته الطويلة الحسنة التى جارى فيها شوقيا وابن زيدون وقال فيها :

وأنت بالجبنات الحمر تسقينا . .

وألقاها بصوته ذى النغم النفيس الاوتار

كان على بك الجارم قد قدم تلك المرة ممتحنا خارجيا لدفعتنا فى المدارس العليا فى امتحانها النهائى . وكانوا قد ذكروا لنا أننا سنعطى بعده دبلوم المدارس العليا . ثم عدل آخر الامر عن ذلك . وأعطينا وريقة بائسة مكتوبا عليها بالانجليزية بالالة الكاتبة

Final Examination certificate

أى شهادة الامتحان النهائى ...

وكان ذلك بتأثير من المستر غريفث عميد بخت الرضا وكان قد تقمص روح تحامل خبيث على المدارس العليا .

وأنشدت فى تكريمه باسم الزملاء والاساتذة كلمة على البحر والروى وجاء فى انشادى « ناراً لسارينا » وكان فى الحاضرين أستاذنا الشيخ جلال فقال « نورا » وهى أكثر ملاءمة لذلك المقام ، وأدل على معنى نار القرآن كان الاستاذ أحمد ابرهيم بلطة رحمه الله يخوفنا بالجارم قبل مقدمه ...

— دا أقسى ممتحن فى الدبلوم

وكان رحمـــه الله يحس من بعض الطلبة أنهـم لا يقدرونه ، فكان اذا جــاء الامتحان كشر لهم عن ناب ليث هصــور . سأله أحدهم فى قاعة الامتحــان عن كلمـــة فى بيت عمـــر بن أبى ربيعة :

أيها المنكح الثريا ســــهيلا   عَمْرَكَ اللهَ كيف يلتقيان

وكان مطلوبا إعرابه ، فرفع صوته يقول له :

ــ عمــرك اللـــه ...

ورقق الراء واللام ، كان ذلك منه رحمه الله طبيعة .. وكرر : عمرك الله .. هذا السؤال ليس لاختبارك يافلان .. هذا لاختبار الذين يظنون انهم علماء ... ياسى .... عمرك الله ... عمرك الله كيف يلتقيان ... نبأى نشوف العلم ... عمــرك الله !!

ومرة سأل عن جمـــع العسل فقيل الأعســـال وقبـــل الجـــواب وانبرى أحدهم فقـــال : عســـائل وأنشـــد :

وأفردت من أمها الفصـــائل   وسكب الالبان والعسائل

وغضب الاستاذ . واســـتعاد البيت . ثم أنه سأل عنـــه أســـتاذ العربيـــة الشيخ محيى الدين عبد الحميد وكان يعلم الشريعة فى قسم القانون وعلوم العربيـــة أيضـــا .

كان صوت الشيخ محيى الدين رحمـــه الله عندما يحاضر طلبـــة القانون بجهارته وفخامة القائه الازهرية الجزلة يفعم الســـاحة كلها ويتغلغل الـــى طلبة الهندســـة واساتذتهم وهم فى مكتب الرســـم بكواغدهـــم العـــراض البيض ومســـطراتهم الطـــوال . وكانت كلتا مدرســـتى القانـــون والآداب مستعيرَتَىْ جناحين من بناء مدرسة الهندسة على غير كبير رضا من عميـــدها بسلـــطان مدير المعارف الذى كان رئيســـا له .

وكان المستر سوبر ، عميد كلية الهندســـة ، رجلا ضعيف الصـــوت دقيقه متوتر النفس ، حاد المزاج

فيقال انه كان كلما أغار عليهم صوت الشيخ محيى الدين رحمه الله يرونه يحمس وينكمش ويضيق بالدنيا ذرعا • وكان لا يقدر على أن يحتج خوف أن يحمل ذلك منه على روح التعصب الدينى • وعسى هذا التحرج من جانبه قد كان مما يعمق عنده ، مالم يكن يخلو منه ، من روح ذلك التعصب مع النفور الشديد عن العربية والاسلام • والله تعالى أعلم •

وقال الشيخ محيى الدين : ألا تعلم يافتى أن الصدق سجية العلماء وأن الانتحال يعاب وبه أخذوا على خلف الأحمر وحماد الراوية ما أخذوا وما هذا البيت الذى فيه العسائل :

وأفردت من أمها الفصائل وسكب الالبان والعسائل

ــ ومن يافتى نسب هذا الرجز الركيك الى القدماء ؟

وكان الشيخ جلال ثم ووجهه مشرق بابتسامة وروح ضحك • واعترف الفتى أنه صنع البيت • وحمل جميع ذلك محل الفكاهة • الا أن الاستاذ بلطة رحمه الله أحس فيه نوعا من عدم التوقير • فشكا ذلك الطالب الى إدارة المدرسة • وكان العميد رجلا صارما • غير أنه كان غائبا آنذاك واستناب آخر كان أديبا معروفا بازدراء العمل الادارى ، لم يستنب الا لأنه انجليزى • فلما بلغته الشكوى وعلم فحواها قال أن مدرسة الآداب انما أسست من أجل أن يحيا فيها مثل هذا النوع من النشاط الأدبى وحق هذا الطالب أن يكافأ لا أن يعاقب • ولما خافه المشيرون عليه آنئذ أن يتمسك بهذا الموقف نبهوه الى أن عفوه عن الطالب قد يؤول على معنى التحامل على الاستاذ المصرى ومثل هذا التأويل السياسى غير مليح • وانتهت القصة بفصل الطالب يوما • وكأنما كوفىء بذلك اذ صادف يوم فصله آخر الاسبوع فتهيأت له بذلك عطلة يومين كاملين •

وكان الاستاذ عبد الحميد رئيس القسم وكنا نقول له البيه لمظهر حزمه وغلبة قوة شخصيته • وكان يدرس التربية والاخلاق وعلم النفس • وفى

أول درس له همس أحد الطلبة الى آخر يجاوره أن سَمْعَه هو ضعيف وأن يلتمس من الاســـتاذ أن يملى ببطء حتى يقدر على تتبع ما يقولـــه • وكأن « البيه » سمع بعض ذلك الهمس • ثم ان الطالب الآخر قال بصوت مسموع غير جد جهير : « من فضلك ياأستاذ ملينا بالراحة »

ورفع الاستاذ « البيه » رأســـه بدهشة حازمة « بأه دا أنا بملى ، دا أنا بحاضر » وتضاءل الطالب : ــ « قف ياطالب » ••• ووقف الطالب •

ــ « اسمك مين » • • • وذكر اسمه •

ــ أنا راجل بتاع علم نفس ، انت فاهم يا طالب ، دا أى كلمة انت تئولها أنا استطيع أأولها وأعرف مصدرها ومورده ، انت فاهم ؟

ــ نعم يا أســـــتاذ

ــ اقعد

وران صمت ما ••• واستمرت المحاضرة أو الاملاء • وكان بيد أحدهـــم ديوان العقاد الذى أحرزه حديثا يقرأ فيه غير ملتفت الى ما كـــان من أمـــر امـــلاء المـــخ والمخيـــخ

انى سعدت بقدر ما أحببت لى يانيل من حقبٍ ومن أســـلاف

كان يريد أن يكتشـــف شـــعر العقاد وكان بعض زملائه به معجبين وكان شوقى أحب اليه ويستبعد أن يكون العقاد شاعرا وأقلقته هذه المســـألة كل اقلاق

ــ دا أقسى ممتحن فى الدبلوم •

ودخل على أقسى ممتحن فى الدبلوم لما نودى لدوره فى الشفهى • • وجـــد أريحية الفضل وذوق الأدب على أسارير وجهه الصبيح واضحة وبصـــوته الأجش سأله أن ينشد من محفوظه • واندفع ينشد لامية أبى العـــلاء :

طربن لضوءِ البارق المتعالى ببغداد وهنا ما لهن ومالى

ولم تكن مما أملاه استاذ الادب أو حاضر عنه • ولم يلتفت على بك الجارم

الى أى تنبيه وحث الطالب أن يستمر لما أعجبه انشـــاده وسأله عن معانى أبيات • وطلب منه أن ينشـــد شعرا آخر فأنشـــأ ينشد :
مغانى اللوى من شخصـــك اليـــوم أطـــلال

وفى النوم مغنـــــى من خيالك محـــــلال

ونسى الجارم أمر الامتحان برهة وتولى هو بأدائه البارع الانشـــاد :

فيا وطنـــى ان فاتنى بك ســـابق   من الدهر فلينعم لساكنك البال
وان استطع فى الحشر آتك زائرا   وهيهات لى يوم القيامة اشـــغال

ــ وهل تنظم الشعر

وأنشده مما نظم كلمة كان بها معجبا • • • وانصرف من قاعة الامتحان وأقسى ممتحن فى الدبلـــوم عنه جد راض ، وأن رغمت أنوف ، وكان نظام المدارس العليا يجعل الكلمة الفاصلة فى تقدير درجات الامتحـــان للممتحن الخارجى • وظل على ذلك العمل من بعد فى جامعة الخرطوم •

وكان على بك الجارم قد زار الخرطوم من قبل ممثلا للجانب المصرى فى مداولات تتعلق بموضـــوع إنشـــاء المدارس العليا ومســـتقبل التعليم فى السودان فى ظل الرفاهية المتفق عليها • كان ذلك فى أخريات الثلاثـــين قبل الحرب • واستبشر الناس بقدوم الجارم خيرا • واحتفل به الخريجون فى ناديهم بام درمان • وكانوا قد عرفوا كلمته الطنانة :

بغداد يا بلد الرشـــــيد

ومنوا أنفسهم بسماع أخرى مثلها • وكان الشـــعر مما يرفع من جناح العزة وتصلح على ايقاع رناته وبيانه أفئدة العـــرب • ولم يخب أملهم اذ أنشدهم داليته من نفس البحر وعلى روى آخر :

أخلفت يا حســـــناء وعدى

وجاراه الاستاذ أحمد محمد صالح بكلمته :
فينوس يا رمز الجمال وزينة الالباب عندى

وجاء فى احدى قوافى على بك الجارم رحمه الله كلمة الفرند •
وجاراه الاستاذ البناء بدالية طويلة رنانة جاء فيها :

الشعر قلت هو الفرنـــ ـــد فخذ نصـــيبك من فرند

والقاء أستاذ البناء كان مما يختلس فيه الاشـــباع الذى يقع فى مجارى القوافى ويقارب به السكون على نحو من الترنم • • •

• • • • • فخذ نصيبك من فرنـــ • • • • ـــدِ

ووجدت كلمة الفرند سبيلها الى قصيدة لشاعر من الطلبة واعد جارى بها دالية الجارم وأنشدها صحبه يباهى بها ويقلد طريقة الجارم فى الالقاء :

الشـــعر قلت هو الفرند فهاك إفرند الفرند

وأقامت كلية غوردن احتفالا بالجارم شهده المدرسون أجمعون والطلبـــة أجمعون • وألقى الاستاذ الشيخ جلال قصـــيدة نونية جيدة بالقائه المعبر الواضح الفصيح المبين ، جاء فيها مما علق بالذاكرة :

هَجَـــرنا القريضَ فلما رأَيناك هـــاجَ القريضُ بأوزَانه
ســـليل النبيِّ وســـِبْط الوصىّ مرتّل آيـــاتِ قرآنه
ومنه حَظِينا بقاضى القضـــاة أبى يوسف الفقهِ نعمانه

يعنى فضيلة الشيخ محمد نعمان الجارم وكان قاضى القضاة • وكان هذا المنصب الى أن جاءت السودنة بعد اتفاقية سنة ١٩٥٢ م لا يشغله سودانى ولكن مصرى مشروط فيه أن يكون على مذهب الامـــام أبى حنيفة • وكان عمل المحاكم الشرعية على مذهب الامام أبى حنيفة مع أن أهل الســـودان كلهم مالكية الا بعض الشوافعة ببربر وسواكن لصـــلتها القوية من طريق التجارة والقوافل والبحـــر بمصر واليمن والحجاز • وفى قصـــيدة « ثريا بإكليل الســـماء تكللت » للشـــيخ ود الطاهر المجذوب ما يدل على أنه كـــان شافعى المذهب وهو قوله : « وان شئت زدنا مالكا وابن حنبل » • هذا ولم يكن عمل الناس كلهم فى القضاء على مذهب واحد من عرف دول المســـلمين

ولافعلته التركية السابقة (١٨٢١م ــ ١٨٨٥م) حين كان لها الامر المطلق فى السودان • وانما جاء هذا الحمل على مذهب واحد هو لائحة المحاكم الشرعية المقتبسة من المذهب الحنفى والمنصوص فيها على أن يسرى العمل فى ما لم يرد فى موادها على القول الراجح فى مذهب الامام أبى حنيفة ، بسبب سياسة اللورد كرومر والشيخ محمد عبده • أراد كرومر ، بحسب الذى ألفه فى بلاده وكان عليه العمل فى فرنسا وسائر بلاد أروبة ، أن يكون أمر القانون كله موحدا مرتب المواد وكان الشيخ محمد عبده يريد الاصلاح ولم يكن رحمه الله يخلو من افتتان بالحضارة الاوربية الحديثة ورغبة متحمسة صادقة فى تطوير حضارة بلاد الاسلام وتجديدها من طريق الاقتباس منها • وفى هذا نظر • كان منصب قاضى القضاة وهو قمة المحاكم الشرعية ادارة وقضاء ، تابعا للسكرتير القضائى وهذا أحد أقطاب مجلس الحاكم العام الثلاثة الذين كانوا أعضاء فيه بحكم مناصبهم والاخران السكرتير المالى والسكرتير الادارى وكان الحاكم العام فى مجلسه هو السلطة التشريعية والتنفيذية العليا وجميعهم بريطانيون وكان السكرتير القضائى بحكم منصبه الرئيس الاعلى الادارى والقانونى لجميع مؤسسات القضاء • فصار مذهب الامام الاعظم من حيث كرومر يعلم ومحمد عبده لا يعلم فرعا من قانون السودان المستمد من القانون البريطانى والخاضع لهيمنته عند مسائل الخلاف • وهذا كما لا يخفى ، كان تحت رعاية الملكة فكتوريا وخلفائها القائمين على الامبراطورية والحامين لحمى الكنيسة والصليب •

وقد جاء الاستقلال • وذهبت دولة السكرتيرين الثلاثة ومجلس الحاكم العام والحاكم العام والحكم الثنائى بأسره • على أنه بقيت من ذلك بقية ميراث ازدواجية مؤسفة فى اطار وحدة قانونية مزعومة تجعل من الشرع غريبا فى داره وتهب القوانين الوضعية التى جاءت من عرف الافرنج وبلاد النصارى ودار الشرك وما أشبه عليه هَيْمَنَةً واشرافا

وليس يصح في الافهام شيء اذا احتاج النهار الى دليل

كادت سنوات المدارس العليا الثلاث تكون بالنسبة الينا زمنا ضاع سدى انما أفدنا حقا من حصص الادب الانجليزى ولا سيما دروس المستر هارت • منه عرفنا عن ليتون استر تشى وادوارد ليروشارلس لام ووليم هازلت فضلا عن شكسبير وشعراء تلك اللغة الكبار • وأفدنا تنويرا بقواعد التجويد وأصول الخط النسخ والثلث ومسائل من الفقه على مذاهب الامام مالك من استاذنا الشيخ جلال • وكان الشيخ محيى الدين عبد الحميد رحمه الله ، باجماع طلبة القانون استاذا فحلا مشرفا بأيما مقياس • وكان بلطة والبيه خيبة أمل ، على أن فضيلة له ينبغى أن تذكر وتشكر ولا تنكر أنه دعا على بك الجارم ليكون لنا ممتحنا خارجيا اذ كان مقدمه علينا ، رحمه الله ، من عطر جنة العربية النادر ، تلك الجنة التى طالما تقنا الى رؤيا لمحة طيف من طيوفها الحسان •

ثم ذهبنا الى بخت الرضا • وهى على الشاطئ الايسر من النيل الابيض قريبة جدا من بلدة الدويم شماليها • وبلدة الدويم تبعد نحو مائة وعشرين ميلا من مدينة الخرطوم •

كان فى الخرطوم معهد لتدريب معلمى المدارس الاولية تابع لكلية غردون يقال له قسم العرفاء نقله المستر غريفث سنة ١٩٣٤ الى بخت الرضا فى وجه معارضة من كثير من الناس •

وتولى معهد بخت الرضا تحت ادارة المستر غريفث أمر اعداد مديرى المدارس الاولية والاشراف على تفتيشها ومناهجها ثم أمر الاشراف على التعليم الاوسط ومناهجه من بعد •

كان المستر غريفث رجلا متسيطرا من بُغَضَاءِ من عرفنا من رجالات الاستعمار والتعليم •

قال لنا استاذنا الشيخ جلال رحمه الله ونحن بازاء السفر الى بخت الرضا

تمام الحج أن تقف المطايا   على خرقاء واضعة اللثام

وأوشك بتبيين نطقه خرقاء أن يضع تحتها خطا ٠

كانت أيامنا ببخت الرضا مع المستر غريفث ومعاونيه ، حقا أيام بلاء وتمحيص ٠

وكان لقاء الجارم ، رحمه الله ، على قصره ، مما اعان على تقوية زادنا من الصبر الجميل ٠

رجع الحديث

الى ذكر الخلوة ونار القرآن المتوهجة من حولها الالواح المتحرفات لكى يعمهن الضياء ٠

هذا صوت العليابى رحمه الله يردد ٠٠ والنار مثوى لهم ٠ ٠ ٠ وكأين من قرية ٠ ٠ ٠ وهذا الطاهر المشكوت رحمه الله قد اصلح النار ويردد ولوحه بيده ٠ ٠ ٠ وهذا ٠ ٠ ٠ وحِمِىَ الحيران شيئا فشيئا ٠ ٠ ٠ عَلَت الأصوات لا فى صخب ولكن فى جد ٠ قراءة الظهر فى القرآنية فيها حيوية انفعال الصغار وصياحهم مع الحر وبعض ازدحام الأنفاس ٠ لكن قراءة الليل ، « إن ناشئة الليل هى أشد وِطاءً (١) وأقوم قيلاً » صدق الله العظيم ٠ هذه تَرَنُّمَةُ صوتٍ نقىٍّ : أجعلتم سقاية الحاج وعمارة ٠ ٠ ٠ وتلاشى الصوت فى الجمع القارىء وهذه هَدْرَةٌ مقتدرةٌ : « نبِّىء عبادِىَ أنّى أنا الغفور الرحيم » وجعل الصوت يبعد عند « وأنّ عذابى هو العذاب الأليم » ٠ ٠ ٠ « وقتل داود جالوتَ » ٠٠٠ « قال أنظرنى الى يوم يبعثون » ٠ ٠ ٠ « قال ألم أقل لك » ٠ ٠ ٠ « قل من كان فى الضلالة » ٠ ٠ ٠ « واذكر أخا عادٍ » ٠ ٠ ٠ جمهرة أصوات منسجمة من حَدْرٍ ذى حيوية واجتهاد واستشعار أدبٍ من جو الخشوع عند قراءة القرآن ٠ واستتمام جرس التلاوة المجتمعة بهدير منهمر ، بدَوِىٍّ كدوِىّ النحل ٠ ٠ ٠ هكذا وصفوا القرآن فى تلاوة العصور الاوائل ٠

---

(١) قراءة ابى عمرو ٠ وقراءة عاصم اشد وطئا واقوم قيلا ٠

كانوا انما يذكرون بالكراهة أن يُهَذّ القرآن هذّاً كالشعر • والهذ كان طريقة من الانشاد السريع المندفع فى الأراجيز والأشعار الذى ربما تخفى معه الالفاظ والمعانى • لعل طريقة العرب البقارة عندنا حين ينشدون ويندفعون فى أخريات الابيات بأداء يحاكون به ركض الخيل مما يشبه الهذ • حدر القرآن واسراعه وادراجه أى المضى بقراءته قدما كل ذلك ليس من الهذ ولكن من صميم الترتيل •

دوى كدوى النحل • هذا هو القرآن كلام الله المحكم القديم ، كتاب الله المنزل المحروس بحفظ الصدور والسطور وتجويد التعليم •

قراءة المدرسة لطيفة ، لكنها كأنها تلحين بحت • هل ينقصها عنصر خشوع حيوية تلاوة الخلوة وأصالتها ؟ لصغار المدارس خشوع عند القرآن ولكن يصحبه رنين صياح غناء غريب ••• ينقصها عنصر الانسجام الذى ينشأ من حرية أداء أنواع الاصوات والمقدرات والمواهب المختلفة كلهن معا وعلى انفراد •• وينقصها عنصر العتق ومنشأ تواتر سند التلقى شفاها عن الأشياخ جيلا بعد جيل •• وينقصها •••• عنصر البساطة والترابية •••• قراءة المدرسة مع قصد الخشوع بالقلب المسلم المؤمن مما يهيمن عليها شيء من أسلوب النظام المدرسى •• نرى التلاميذ المتشابه قاعدين على مقاعد المدرسة وأمامهم قماطرهم المتشابهة ••• ناظرين بانتباه واحد الى أجزاء مطبوعة متشابهة والى المدرس والسبورة ••• الضبط والربط العسكرى نوعا ، الذى ترمز إليه الأزياء والسبورة والأدراج والمقاعد وطلاء الجدار وأسمنت البلاط •• قبعة حصان كتشنر قدام المالية •

وطربوش بعير غردون فى ميدان السراية عند نهاية شارع فكتوريا •••• أشباح شهادة الامتحان المدرسية لنصف العام ولآخره •••• بسطورها وحبرها الأزرق والأحمر وملحوظاتها ••• انتهازية انتظار الوظيفة ••••• دراهم الوظيفة وجاهها

ـ ياولدى ما قربت تشـــــتغل ؟
ـ مـــا قربت يرتبــوك ؟
ـ ياولدى دحين قرايتكم دى فيها علم ؟
ـ قراية المدرســـة ما فيها علم وقرعان (١) علا (٢) دنيـــا ساكت
أصوات التلاميذ الصغار فى المدرسة حلوة جزلة الروح لطيفة على كل حال ٠ جزالة الروح مصدرها البراءة والاندفاع ٠ مقرر منهج المدرسة الاولية ٠٠٠ جزء عم ٠ جزء تبارك ٠ جزء قد سمع ٠ مطبوعة برواية حفص عن عاصم بعض المدرسين تعلم قرآنه هذه الاجزاء الثلاثة فى المدرسة وما عرف الخلوة٠ قراءته ينقصـــها التواتر ٠ بعض المدرســـين قرأ فى الخلوة واختلطت عنـــده الروايـــة المطبوعـــة بالتى تعلمهـــا من اللـــوح ٠٠٠

عـــم يتســـاءلونْ ٠٠٠ عونْ
عن النبأ العظيـــم ٠٠٠ إيـــم
قم اللّيل الا قليلا ٠٠٠ إيـــلا
نِصفَه أو أنقُصْ منه قليلا ٠٠٠ إيـــلا
ذرنى ومن خلقت وحيدا ٠٠٠ إيـــدا
وجعلت له مالاً ممـــدودا ٠٠٠ عودا

قـــراءة مدارس ٠ اســـتحسنها وتعجبنى بتكلف ٠ فى نغمهـــا نظـــام ٠٠٠ رتابـــة ٠٠٠ وتلحين بلا ترتيل خاشـــع أصـــيل الاصـــول ٠٠٠وتحزيـــن كأنه جزء من النظام ، نظام برجوازية الافندية وعسكرية الضبط والربط ٠٠ تلحين ليس فيه عنصر الشجو والتهزم المطرد الذى يخالط أوتار القلوب٠٠٠

* * *

بين حين وآخر رنـــة مُنتقَنة ٠ الشـــيخ مصغ سامع بصير ٠٠٠ نار القرآن ساطعة ٠٠٠ عيدان سلمها وتنضبها مشتبكة حمرٌ ، ثاقبات يفوح ويضطرب ويصخب حولهن أوار شعلات اللهيب ٠٠٠ والكل ٠٠٠ حيران وشيخهم ٠٠٠ قعود حـــول النار على تراب المسجد ٠٠٠ « قل آلذكرين حرم أم الانثيين ٠

(١) و (٢) بقلب الهمزة عينا فى الدارجة ــ وقرآن إلاّ ٠

« من صلصـــال كالفخار » ••• « أم يقولون شاعر نتربص به رَيْبَ المنون»
هــذا العــليابى رحمـــه الله قبــل أن يصــل الى ســورة محمــد •••
« لَعَلِّى أبلغ الاسباب أسـباب السـموات والارض » ــ غافــر ، قـــلامة
الأظافر • دنا وقت العرضــة ولمــا يــأت بعــد •

كنت فوضويا استعجل قبل زمان العرضـــة وشيخنا يشير على أن أقعد •
كانوا يعطفون على فى حياة الوالد وبعد وفاته • كان فى شيخنا صبر وتسامح
وبركـــة • ومرة وقفت للعرضـــة عجلابها • كنت محوت لوحى مــرتين فى
نفس اليوم • وقفت مسحنفرا بسَــمْتِ العرضـــة وقلت : أعوذ بالله مــن
الشيطان الرجيم •• بمد اللســان فى أعوذ وبيان فتحــة الشــين وســكون
الياء ••• أحاكى الحفــاظ البارعــين •

كان الشيخ ودتكرون رحمه الله ربمـــا استعاذ فى مجامع تلاوات الحفاظ
الكبــار فى الختمات التى يُعنــوْنَ بها : •• « أعــوذ باللـــه من الشـــرك
والكِبْـرِ والشــيطان الرجيــم • »

ويستحســـن بعض القَرَأَةِ الآن أن يقولوا فى الاستعاذة أعوذ بالله السميع
العليــم من الشــيطان الرجيــم •

وكل هذا حسن • والاستعاذة المختارة عند القــراء هى أعــوذ باللـــه من
الشيطان الرجيم وهى المستفادة من ظاهر آية النحل : فاذا قرأت القــرآن
فاســتعذ باللـــه من الشــيطان الرجيــم •

قالوا وكان الشيخ تكرون الكبير ، رحمه الله ، حافظا معروفا بجودة الحفظ
وصحته وقعد فوق العنقريب بحضرة السيد الحسن رضى الله عنه ، لأنه ــ
كما ذكروا أنه احتج به على بعض من أرادوه ألا يقعــد على العنقــريب فى
حضرة الســيد ــ كمصــحف لحفظه فلا يُوضَعْ على الأرض • قالوا وكان
صوته كبيرا أجش وكذلك كان صوت الشيخ ابنه رحمهم الله جميعــا •
وكررت الاستعاذة •••أعوذ بالله من الشــيطان الرجيم •

وذهب اللوح الذى حفظته من ذاكرتى مرة واحدة • وجدت أنى نسيت •
وذكرت ذلك لشيخنا فزجرنى مع عطف عريض ••• أحسبه قال : بِسْ ••
اقعد • • • الله يهديك
ــ الله يهديك يا ولدى
هكذا كان يقول الوالد رحمه الله •

كان للعرضة وقت يعرفه الحوار المتمرس وكان الشيخ يأذن بها حين يحين وقتها • يقف الحوار مُمْسِكَ لَوَحِهِ وراءه بيمناه ومُمْسِكَ يمناه من وراء ظهره فوق المِرْفق • نوع ٌما من هيئة سَمْتِ قبض الصلاة • يقف بأدب واستعداد نفس ويعرض بصوت جهيرٍ جزلٍ • الاستعاذة ثم البسملة الا فى براءة لانها نزلت بالسيف • وقراءة العرضة مدٌّ وتحقيق وأداء واضح مع فردية ترنم ما يغلب عليها أسلوب الأداءِ الذى يريد أن يتجرد للصحة فوق كل شىء • الشيخ يستمع • يستمع لينبه على الخطأ والنسيان أو يجيز • وقلَّ حوار يُقدِم على العرضة قبل أن يكون قد استوثق من حفظ لوحه •

ترى الالواح قد جعلن ينخفضن عند دنو وقت العرضة ومعهنّ الأصوات كل يُسَمّعُ نفسه يَعرِضُ لنفسه يَروزها ويستثبتها وقد صارت العيدان جزلاتهن وشختاتهن جمراً يعلوه هباءُ الرماد بين ذلك أوار لهيب ضوء يعلو ويخفت مع ما يعنُّ من إصلاح • كانت العرضة الجيدة يُستمع اليها ويُنْصَت ويُتَحدّثُ عنها من بَعْد • كالذى فى مناقب الشيخ المجذوب رضى الله عنه من صفة عرضته الجميلة للثمن الذى أوله « فاستمسك بالذى أُوحى اليك انك على صراطٍ مستقيم » فى سورة الزخرف وهى الرابعة من الحواميم للطالع وللنازل • « فاستمسك » من أصعب الاثمان •

مراس الحيران ــ أجيالٍ من الحيران ــ حفظ أثمان القرآن أكسبهم معرفة بما هو منها أسهل حفظاً وما هو منها أصعب • وكلها بعد قد يسره الله سبحانه وتعالى للذكر « فهل من مدكر » • وكانت لهم فى ذلك سجعات

وأشباه سجعات ، من ذلك مثلا : « فاستمسك ــ من الرقبة يمسك » « كان الناس ، غلّب الدُّراس » « ومن يهاجرْ ــ قتل له راجل • » وقد يضيفون على سبيل الفكاهة : جا ينقلب ، قتل له كلب • جايزّ اخرْ ، قتل الاخر •

وذكر أستاذنا الشيخ جلال أن سورة الجاثية كانت مما يختبر به الحفاظ •

هذا وللحيران الصغار في سائر خلوات السودان ــ ونبئت أن لذلك مشابه في بلاد المغرب وسائر بلاد المسلمين ــ أيضا سجعات فكاهة على قدر مستوى ما يرجى لهم تحصيله وشرافته • مثلا :

ألم تر كيفَ • ــ كسره رِهَيْفه (السجعة بتطويل فتحه كيفا ورهيفا)
لم يكن • قدحاً ممكونْ (بتطويل ضمة يكن) • ممكون أى مملوء جدا بالكسرة واللحم •

ــ سيدنا ، آكل والا أقوم

ــ قوم ، تاكل أم دلدوم

ام دلدوم اللكمة بجمع اليد • والفكاهة ههنا فى محاكاة الرمية ، الحوار المتشيطن الخيالى يقول للشيخ كأنه يريده أن يملى عليه القرآن ياسيدنا هل آكل أو انصرف • والشيخ الخيالى الفكاهى يفطن لشيطنة الولد ويجيبه قم منصرفا لا أكلت الا لكمة موجعة •

هذا وكان بعض الحيران فى بلدنا يجيدون العرضة ويعرفون بذلك ومن هؤلاء يكون من بعد الحفاظ وحملة القرآن • وكان بين خلوات القرآن روح تنافس طيب فى طلب التبريز • وكانت خلوات الدامر والجعليين شرقا وغربا وبربر شرقا وغربا والغبش والشايقية وخلوات الصعيد بينهن فى الحفظة والدراس تبادل مستمر فى الزمان القديم • كان ذلك كله حيا منذ نحو أربعين سنة • ثم قد زال الآن كله أو قد اوشكت بقاياه أن تزول الا ماشاء ربك

انه عليم قـدير . قال تعالى : « انا نحن نزلنا الذكر وانا لـه لحافظون » صـدق الله العظيم

******* *******

كان يـوم الخميس للحيران ـ كما نقول الآن ـ نصـف عطلة . يمحـون الألواح أول الصـباح وتكون من بعـد بداية ثم ينفضـون . وكان يـوم الجمعة عطلة كاملة . كان يوم الخميس كأنه عطلة كاملة . وكان مما يقـوله الحيران : السـبت سبُّوت والأحد نبوت (أى عصا وضرب) والاثنين بابين والثلاثا فزعة ، والاربعا كرامة ، والخميس أخونا ، والجمعة أبونا . وكنت سـمعت من الصـديق العلامة الدكتور دفع الله الترابى ضربا آخر من هذا المعنى وأنسيته وكتبت اليه استكتبه اياه ففعل ذلك مشـكورا : الاحد باب والاثنين بابين ، والثلاثا بشـارة ، والاربعا عمـارة ، والخميس صفقـة ورقيص ، والجمعة سرحنا ومرحنا ، والسبت الفكي شال سوطه وسلخنا .

كانت فزعة الثلاثاء كالتمهيد لكرامة الاربعاء . وكان يوم الاربعاء كالتمهيد لعطلتى الخميس والجمعة . ومن جعل الأحد بابا فلمكان الذكر فى ليله الذى هو ليلـة الاثنين فنتقصر بذلك سـاعات قراءة الليل . وكانت الكرامة يـوم الاربعاء يوقد لها من أول الظهر وكانت من « لوبيا العفن » « وعيش الريف » ويكون مع ذلك التمر وينجز عمل البليلة وقت العصر . ويكون حرّ الشـمس قد انكسر واخذت الظـلال تطول . ويرفع الشـيخ يديـه بالفاتحة ايذانـا بالكرامة . وتوضع أقداحها : قدح أمام الشيخ ومعه بعض الحيران وأقداح لسـائر الحـيران ، فيأكلـون ثم يشـتت لهم التمر ويشيل الشيخ يديـه بالفاتحة وينصرف الحيران الصغار ويبقى الحيران الكبار لقراءة الليل . وكان يجاء أحيانا أثناء الدرس فى يوم الاربعاء ـ وفى غير يوم الاربعاء ـ بتمـر هدية، فيرفع الشيخ يديه بالفاتحة ويرفع الحيران أيديهم بالفاتحة ثم يشتت لهم التمر . وكان بعض الناس يفعلون ذلك يعتقـدون أن فاتحـة الحـيران لبراءتهم مقبولة فيقدمون التمر بين يدى الفاتحة صـدقة . وكـان ربمـا يجاء بهدية طعام للخلوة فيؤكل وترفع الايدى بالفاتحة .

وكانت الشَرافة مما يهيىء لصاحبها سؤال الشيخ اطلاق سراح الحيران قبل الأوان • والشرافة اظهارٌ واعلامٌ أن الحُوارَ أدركَ كذا وكذا حفظا من سور القرآن « لم يَكن الذين كَفرَوا » أولى الشرافات الكبيرة يصلها الحوار وهو صاعد من « الناس » الى «البقرة» على النحو الذى قدمنا ذكره • (الفاتحة) يبتدأ بها للبركة و « الناس » آخر الكتاب الكريم يبتدأ بها من بعد ليُسر القراءة والكتابة والحفظ • « ألم تَرَ كيفَ فَعلَ ربُّكَ بأصحابِ الفِيل » مرحلة تشريفٍ صغير اذا بلغها الحوار صنع أهله شيئا ظريفا جاء به الى الخلوة ولذلك قالوا :

« ألم تر كيف ، كسرة رِهَيْفة » أى كسرة ناعمة معها ملاح « إدام » لطيف كُرَّارة (١) مثلا أو مرقة ولحيمات حسنات وصحين فيه لقيمات(٢)حلوة • « ولم يكن الذين كفروا » شرافة أكبر يُزَيّن لها اللوح • ويصنع أهل الحوار طعاما كثيرا طيبا فيه اللحم والكسرة والملاح ، فهذا قول الحيران • «لم يكن — قدحاً ممكونٌ» يمدون ضمة كاف «يكن» والتنوين فى لهجتنا للتأكيد (قدحاً) وينصب أبدا وكلما كانت مرحلة الشرافة أعلى كان تزيين اللوح أكثر وأرقى وأجود • وألواح المتقدمين من الحيران بطبيعة الحال أحسن شكلا وصناعة خشب • وشرافة أرباع القرآن والسور المتقدمات كالرحمن وتبارك الفرقان أعظم زخارف وأكبر خطرا • والبقرة عظمى الشرافات جميعهنّ تليها الاعراف وهى أول الربع الثانى والكهف وهى أول الربع الثالث •

أبسط الشرافات خطوط وزخارف بالحبر المجرد •

وقد تعلم الحيران تسطير اللوح منذ زمن • وذلك أن الالواح أول ما يكتب عليها الشيخ يسطرها بسرعة تسطيراً أُفقيا بنواة من تمر • ثم يحذق الحيران طريقة التسطير بالنواة •

كانت سطور شيخنا محمد على سرعة خطه اياها بالنواة مستتقيمة ليس

---

(١) ملاح الكُرّارة من الروب واللبن الرائب ثم بعد طبخه يوضع عليه سمن بلدى نقى ومذاقه لذيذ •

(٢) وهى التى يقال لها الان الزلابية •

فيها أدنى انحراف والمسافات بينها متساوية كما لو قدرت بمسطرة ومقياس

وخبرنى الشيخ قمر الدين بن الشيخ عبد الرحمن عن عمه الشيخ ود الشيخ الطاهر أنه كان يضع الورقة البيضاء غير المسطورة على راحته اليسرى ويكتب عليها بيمناه مستعينا بما بين أصابعه سطورا ، وأنه صنع ذلك وهو واقف لما التمس منه تشطير قصيدة الفا هاشم الفلاتى التى مطلعها

ألاواصل الله السلام المرددا

رحمهم الله جميعا واسكنهم روضات جناته ٠

هذا وقوام الشرافة إطار زخرفى من خطوط ومربعات ومثلثات ودوائر داخله فراغ يكتب فيه أول السورة المشرَّفة بخط جميل ٠ وكثيرا ما يكتبه شيخنا ٠ هذا على واجهة من اللوح ٠ والأخرى لا تكون عليها زخرفة ولكن كتابة الحوار السابقة للشرافة ٠ مثلا آخر « هل اتيك حديث الغاشية » اذا كانت شرافة الحوار « سبح اسم ربك الاعلى » والجزء الاعلى من الاطار مكان أهم الزخرفة وتجعل فوقه قبة وأهلة ويفتن المزخرفون فيه خاصة وكان للشرافة حيران معروفون بإحسان تزويقها وخلط ألوانها واصباغها٠

وكان صفار البيض ربما استعمل للون الأصفر ٠ وأحسب أن أكثر الالوان التى كانت تستعمل فى الزمان الماضى كانت محاية (١) ٠ ولكن فى زماننا كانت تشترى الاصباغ التى يقال لها التفتة وكانت معروفة فى أكثر البيوت لان النساء كن يصنعن البروش (أبسطة السعف) والمقاطف وقد يصبغن ما يرين تزيينه منها ولا سيما طبابها (أى حواشيها المحزوزة بكسر الطاء وتخلص تاء فى الدارجة) بألوان التفتة الزرقاء والحمراء ٠ فكان الحوار يستعير من أهله مادة ما به يصبغ ٠

وفى زخرفة الشرافة الكبيرة مثل البقرة والأعراف والكهف ويس ربما تعاون حواران أو ثلاثة ويكون أحد هؤلاء أحذق بعمل التصميم وكالرئيس على صاحبيه ٠ وربما اتفقت فى الخلوة شرافتان أو ثلاثة فى يوم واحد ٠ فكان منظر المتعاونين على تزيين الشرافة مما يعجب ٠ وقد يلتف حوله

---

(١) مثل خضرة الزرع وصفرة الكركم وحمرة المغرة ٠

جماعـة من الجيران ينظرون ويتأملون ليتعلموا محاكاة ما يـرون من فـن جميل • وبعضـهم ليفر من جد القراءة • واذا بحصاة الشـيخ تقع قريبـا منه ، واذا به يعـاود القـراءة •••فجعله نسبا وَووَوَ ياسـيدنا ــ وصهرا وكان ربك قديرا •••• اقرأ يا مطموس ، خل اللعب تمكين الحوار من فرصـة سؤال شـيخه إعفاء أقرانه بسبب الشرافة ممـا قد يعين على أن يمزج بالغبطـة والاعجاب به عندهم روحـا من المحبـة وأن يفـل من غـرب الحسـد •

هذا وكان مما يزيد فن الشرافة الجميل جمالا أنه أمـر عتيق ذو أصـول عريقـة وأنه عفوىّ الروح بسـيطها غير متكلف وأنه فوق ذلك كله بَرَكة •

لم يكن فى المدرسـة شئٌ يماثل هذا حقا • والقلـة البغيضة التى توضع على الطربيزة بالقـرب من السبورة ويشرح المدرس الذى لا يعرف موضوع الظـلال طريقـة التظليل • انما كان يؤدّى واجبـا • وتمتلىء الورقـة سـوادا قبيحا من قلم الرصاص الناعم • كَفّ ! كانت حصـة الرسم أيضا يقع فيها الضرب الموجع • والألوان ــ هذه أحب • الدائرة التى فيها ألـوان قوس قزح • الأزرق والأصفر معا يكون من امتزاجهما لون أخضر • اللون الاخضـر جميل لم يعلمنا أحد التلوين فى الرسـم • وكـان اسـتعمال ألوان الشـمع صعبا ويشوّه الورقـة أحيانا كثيرة • كَفّ ! مع سواد قلـم الرصـاص القبيح • كف ! واذا تساقطت الدمـوع فالـويل لك • يا بِتْ •

أركع دِيسْ • والركبـاتُ الى الأرض وباقى الجسـم معتدل والوجـه الى الجدار • كأن هذا نـوع من الحبس والرفض والإهانة للتلميذ الذى يعاقب بهذه الطريقة • كان فهمنا هو أن « ديسـاً » هذه تدل على هيئـة البـروك ومواجهـة الجدار وما شرح لنا أحدٌ معناها ، وهو من الفرنسيـة وصـل الى مصر ومنها الينا ، وديس معناها عشرة أى أركع عشر دقـائق ، وهيئـة البروك أو الركوع التى تقدم ذكرها هى الذى عليه العمل فى صلاة الكنيسة•

لم يكن رسمى رديئا . كنت لا أحب ألوان الشمع . وألوان الاقلام والحبر الاحمر كل ذلك كان أحبَّ إلىَّ . وكنت أُحِبُّ رسم الخُرَط وأصبر عليه وأُتقِنه . لم يكن تلوينى فى مستوى رسمى ولكن تعلمت أن المرور بالقلم الملون بعد خط الحبر يجعل اللون أسطع . اللون الاصفر سيد الالوان . كيف ترى الخط الجيد منه ، المتابع لخط الحبر ، يشع مثل نوار القطن ! والتحبير نفسه يحتاج الى مهارة وفن . ترسم بقلم الرصاص وتمحو ذلك بعد التحبير بالاستيكة فتكون الورقة ناصعة نظيفة فيها خطوط الحبر . تعاريج النرويج . قرن أفريقيا . ايطاليا . وأرخبيل اليونان . هذه تعرض التلميذ لاعوجاج الرسم وتضييع النِّسب وينشأ شىء مختلف عن صورة الخرطة التى فى الأطلس

ــ تعال هنا يا حمار .... امشى ...اتلهى

ــ تعال هنا يا أهبل ...

ــ لا مش كدة يا فهيم

ما سمعنا بفهيم هذه الا فى المدرسة الوسطى ...

ولكن كان فى وقت عمل الخرط متسع ، لانها كانت تعطانا واجبا نعود به ناجزا بعد أيام ، فهذا كان يمكننا من أن نتعاون ، وكان الحذَّاق من الرسامين والخطاطين بين التلاميذ يستعين بهم أصحابهم ــ وإياكم والشف . وكان كثير من التلاميذ يستعملون الشفافة والمدرس يتفرس فى الخرطة فاذا وجدك استعملتها ....

ــ لا والله يا فندى ما شَفَّيت (بامالة فتحة الفاء)

ــ كمان كدّاب (بالدال المشدد واللهجة الدارجة عندنا بالضاد : كضاب)
كَفْ . . ! كَفْ . . !

كان استعمال الشفافة يحتاج الى حذق . وكان كثير من التلاميذ يرسمون بلا شفافة ويحتقرون صورة الخريطة المشفوفة .

ــ يا سلام ، انت فنان ممتاز .

ـ يا خى دا شــف ســاكت .

هذا كان أفعل فى النفس من كف الاســتاذ .

شىء من روح الاتقان الفنى الذى فى الشرافة كان مما يوجد بعض مشابهه فى رســم الخرط ـ امريكا شــمالا وجنوبــا ـ مديريــات الســـودان ، الفونج ، جبال النوبــة ، منقلة ، بحر الغزال ، أعالى النيل ، حلفا ، دنقلــة بربر ، البحر الاحمــر ، كســلا ، النيل الابيض ، النيل الازرق ، كــردفان ، دارفــور ، الخرطوم ـ مناطق الدنيا الســبعة ، الغــابات الحــارة تهطل الامطار كأفواه القرب الخ ـ سخالين ـ أرخبيل اليابان . الخرائط السياسية فيها مجال للتلوين الزاهى من أجل تبيين الحدود السياســية . الخــرائط الاقليميــة تعطى فرصــة لغمر الورقــة بالالوان من التندرا الى الغابــات الحارة . والخرائط الطبيعية التى فيها بيــان المعادن والنباتات والحيوان . صــورة شجيرة البن فى اليمن ، صــورة البيزون واليــاك واللامــا والجمل ذى الســنامين .

ـ خرطــة الهنــد .

ـ فندى فندى تشــبه النهــود

وجوم واســتنكار . وصرف المــدرس الذى كــان يلبس البالطو الدّمّــور والطربوش المغربى والعمــة الصغيرة بميلان فى مقدمــة الرأس الى الامام شيئا ـ صرف كل زوبعــة بحركــة من يــده .

كان مَرهَق الوجه ، مُتعَبَ الصــوت ، فيه بَحّــةٌ ما ونوع خفوت يتكلّفه . يعرف الانجليزية جيدا ـ هكذا قالوا ـ والحســاب وكل مــادة . يــدرس بســأمٍ شديد . سأم من الاعماق . فى هيئــة بالطوه ووضــع طربوشــه عدم رســمية . ذو نفس من ثورة . ثائر وشــاعر . أملى بصوت متحشرج وكتب على الســبورة بخط حســن ، فيه روح الســآمة :

افريقيا تِسمٌ من الوجــودِ فى شكلِه أشــبَه بالعنقودِ

وذلك العنقودُ فى الماءِ انغمرْ ما أملحَ الماءَ وما أحلى الثمر
مدت اليه يدَها أوربّا من فوقهِ كمن يريدُ الحبّا
وآسيا بالجنبِ كالمحتـال تحفُّه من شرقِهِ الشمالى

لا تعجبه الاقاليم • قالوا منقول • قالوا مُعاكَسٌ من فوق يعنى الخرطوم هذه أول نفحة من نفحات ضغط جو الاستعمار • كانت غير واضحة • ستتضح فى ما بعد من طريق نظيراتها •

***** ***** ****

من الأشياءِ المدرسية ذات الشبه شيئا ما بالشرافة شجرة الحمّام • الحمام ، بتشديد الميم الاولى ، كلمة كان معناها عندنا الحر الشديد ، تماما كما فى قول الشاعر القديم :

نَذُقْ برد نَجْدٍ بعد ما لعبت بنا تهامَةُ فى حمّامها المتوقد

أى فى حر المتوقد •

وكنا نقول « البَرود » بفتح الباء • « وأنا ماشى أتبرّدْ » أى أبترد يعنى استحم كما نقول الآن • وما كنا نقوله أصح وعليه قول ابن أبى ربيعة :

زعموها سألتْ جاراتها وتعرّت ذات يوم تبترد

أى تَتَبَرّدُ • • • •

أصحّ لأنه أفصح ثم هو أشبه بأحوال جو بلادنا لانا لم نكن نسخن الماء ولكن نصبه على أجسامنا باردا •
جاءت كلمة الحمام مع المدارس والتمدن •

كان جمال النساء الدهن والمُشاط « بضم الميم » أى ضفر الرأس ضفيرات دقيقات ، والرشّة وهى جعْل آخرِ كلّ ضفيرة كالمروحة وتثبيته بالوَدك وذريرةِ الصندل ومدقوق المحلب وبالمغرة والمحلب المدقوق ، وبالمغرة وحدها لغير ذوى اليسار ولحاء الشجرِ المدقوق وعروق السِّعْدة المدقوقة للفتوات (أى ، العذارى) • والعروس والنفّساء لا بد فى رشتهما من الصندل والمحلب وكان الصندل والمحلب من الأشياء العزيزة ، يجلبان من الهند • وجاء فى الأغانى الشعبية :

يا المحلب الدَّقَنَّـهْ (١) (أى يا أيها المحلب الذى دُقَقْنَـهُ)

فوق الربع ختنتـه (أى وضعنه فى الربعـات والربعة حق من خشـب مزين تحفظ فيه العطور الناشفة)

ويا مجربين فُرَقَ الحبيب كيف إنُّه

(فرق الحبيب أى فراقه)

هذا وكان الأولاد قديما يتمسحون بزيت السمسم وهو مفيد للجلد ومزيل للرطوبة يخرجها من جوف العظم • والنساء يجعلن معه العجين فيطرَى ذلك البشرة • والى حين قريب كانت توجد عصارات زيت السمسم تديرها جمال العصارة بالخرطوم • وزيت العصّارة الجديد نظيف نقى ولونه كالذهب • اختفى ذلك كله الآن •

كان الرجال يتمسحون بالزيت ولهم ثوب دسم أغبر خصوصى للمنزل يقال له هدم الدهن أو ثوب الدهن • وكان الماء للصالحين والعلماء والاولياء قال الشـاعر الـدارجى :

رجـال اللـه أبّـان مسـوحا ما

أبان أى آباء مع تسهيل الهمزة وتنوين يـراد به التوكيد • وكذلك تنوين مسوحا • وما أى ماء • أى هؤلاء رجال الله الذين مسوحهم المـاء من أجل متابعتهم الوضـوء والطهـارة •

كان مما يحاجينا به الوالد رحمه الله ونحن بكسلا صغار : كار (أى يجر) البيت ورا البيت ، مسوحه الجاز والزيت ، يَتلوْ لوْ متل الثعبان ، ويتفَشّى من مكـان الى مكان — أى قطار السكة الحديد • وكان المسوح أيام صـبانا معمولا به معروفا • هذا وانضاف اليه الماء والصابون فصار ذلك مسوح جيل حديث ، جيل التمدن الذى لعله ينكر الصلاح والولاية والعلم « التقليدى » كله •

---

(١) فى دارجتنا توجد نون النسوة ومع المضعف مثل دَقّ ومدّ يجاء بها ساكنة وحركـة ضـمير الغـائب تجعل النـون كأنها مشـددة مضـمومة •

أهمّ شى الحمام
ونظافة الاجســـام
الزول يكون بســـام
اصله (١) الجمال أقسام • • • • تمَدّنْ

بمد فتحة الميم من تمدن ترنما بها • • • تمادن ، هذه قفلة الاغنية التى ظهرت زمـان « التم تم » ــ طريقة من الغناء فشـت أخريات الثلاثين ــ وكانت روح معانيها قد ظهرت من قبل

الزول أى الانسان الظريف ثم صارت يراد بها الشـخص ونطقها بفتحة مشربة ضمة وهى فى الفصـيحة زاى مفتوحة بعدها واو سـاكنة والمؤنث زولة • قال ذو الرمـــة :

ومهمهٍ داوية مِثْكـالِ قطعتُهـا بفِتْيـةٍ أزوالِ

وفى شــعرنا الدارجى :

العَطْوِي ال جانا دابْه (أى العطوى الذى جاءنا الآن منذ حين قريب)
يسلّنْ فى رقابْه (له رقبة طويلة يستلها يباهى بها)
سنَّك لَبنْ زولاً ظريف حلا به (أى سنك بيضاء كحليب اللبن الذى حالبه انسان ظريف فهو نظيف فى بياضه)

كان حمّام المدرسة إجباريا •

كان الوضوء يترك فى ظاهر اليد والقدم قشفا • ويكون فى شقوق القشف أحيانا دم • ومع اشـتداد البرد فيما بين نوفمبر وفبراير كان التدقيق فى الاجبار على الحمام يشـتد • وزعموا أن الحمام يزيل القشـف أو يكون لا قشف معه أبدا • القشف متأخر • القشف غير متمدن •

كانت رئاسة مراقبة الحمام يومية دورية بين كبار التلاميذ الذين ليسوا برؤ ساء عنابر فى الغالب ، فى ما أذكر • وكان رئيس اليوم للحمام يجلس على كرسى ، ظاهرا عليه فَرَحٌ بنوع الإمارة الذى صار اليه • وبعضـهم يتصنع صرامة وجه وبيده كراسة الحمام مفتوحة مرسومة عليها شـجرة

(١) اى اصـل الامر ان الجمـال اقسام •

الحمام • مثل سدرة المنتهى التى تكتب عليها أسماء الله الحسنى • فى العصر السابق ليوم الحمام الذى يكون هو مسئولا عنه يستلم رئيس الحمام ليوم الغد كراسة الحمام ويرسم شـجرة الحمام على الورقة التى تلى ورقة من استلم منه • ويفتن فى تصـميمها وتصـميم ورقاتها وتزويق ذلك بأقصى ما يستطيع • ولكل تلميذ رقم • فيجعل هو لكل رقم ورقة من أوراق شجرته يكتب الرقم فى داخلها أو فوقها أو بين انعطافات تضاريسها أن يك قد جعلها ورقة ذات تضاريس • وقد يعين رئيس الحمام أصحابه بالتلاوين والزخارف وقد يكون هو غير حسن الرسم فيعهد الى حاذق يهيئه له • وكثيرا ما يجتمع التلاميذ حول من يرسم شجرة الحمام يستحسنون ويقترحون •

ويخرج الولد يكتكت من برد كيهكِ (ديسمبر) وطوبه (يناير) • ويجرى الى رئيس الحمـام أو يمشى مشـيا مسرعا • وينظر رئيس الحمـام اليه بسلطنته القصيرة الامد • هل استحم ؟ (فى الحقيقة هل استبرد) ؟ بعض رؤساء الحمام لؤماء جدا وبعض التلاميذ كانوا يغشـون ، يمسـحون الاطراف والوجه مسحا ظاهرا ويخرجون يكتكون مع مبالغة فى ذلك كأنما قد غطسـوا فى البحر وأخرجوا منه •••أرنى رقبتك ••أرفع سـاقك •••• ويمد الولد رقبته ويرفـع رجله وبين الجلد الذى مسـه الماء والذى يمسـه الماء حد ظاهر •••مستهبل •• والله اسـتحميت ••اذا لم يقتنـع رئيس الحمـام فله الحق أن يقـدم اسم التلميذ الى ضابط المدرسة حيث تنتظره الخيزرانـة أو يرجع مرة ثانية فيسـتحم • وتحصـل الوسـاطات ، فى النهايـة يشـطب رقـم التلميـذ

تشـطب جميع الارقام • حضروا كلهم واسـتحموا • انتهت الامارة • الشرافة أمتع • الشرافـة بركة • ثم مع الشرافة التمر والطعام والشـاى أحيانا واللقيمات أيضا أحيانا كثيرة • لما شرف الطيب النقر ذبح خـروفا — أو عجلا لا أذكر جيدا — فأطعم نعم الطعام وطلّق الجيران فى وقت واسع ، أول العصر • أذكر قراءته ليـلا بعد ذلك فى ألواح البقـرة « سيقول السفهاء

من الناس » وهى أول الجزء الثانى ، ويغلو فى تحرى صـــحة النطق بالقاف يقارب بها الكاف جدا والغالب على نطق الخلاوى مقاربة الغين وبعض ناس الخلاوى يخلصها غينا • وقال لى شيخ محمد ود الجلال ، رحمه الله ، عمدة الدامر وكانت له بعلوم الادب والعربية دراية وذوق دقيق ، ان الكتيـــاب ـ وفيهم علم وفضل كثير ـ كانوا يحرصون على القلقة ويمتحنـــون الحيران الكبار فيها بسورة اقتربت وبقوله تعالى فيها « فى مقعد صدق عند مليك مقتدر » وعن أســتاذنا الشــيخ جلال أن بعض فقراء الخــلاوى فى الماضى يمدون اللسان فى الغين ليفرقوا بينها وبين القاف فى نحو « استغفر لهم أولا تستغفر لهم » مع ملاحظة أن رواية الدورى على المشــهور من ادغام الراء فى اللام ـ اســتغفلّهم أو لا تستغفلّهم ـ

حاشــية : نطق القاف عندنا مقارب للكاف وليس بكاف وهذا النطق فاش فى معظم البلاد العربية ويقرأ به القــرآن فى بعضها كاليمن • ونطق الغــين عندنا من مخرجها وقد يجاء بها ضعيفة مقاربة لمخرج القاف • هذا فى العامية الدارجــة • وفى قراءة القرآن وأداء النطق الفصــيح ما قدمناه من مخالطة القاف مخرج الغين ولا يخطئون فى أداء الغين • فالذين يخلطون نطق الحرفين فى القــراءة ويخافون الالتباس هم الذين يمــدون اللسان • وليت المدرسين الان يفعل بعضهم شيئا من هذا القبيل • اذ الان قد جعل نطق الغين والقاف فى المدارس يختلط اختلاطا قبيحا حتى ان الكلمــات التى كان ينطقها الناس غينا فلايخطئون قد جعل ينطقها التلاميذ قافا فيخطئون والخطأ من التدريس فى هــذه الحالــة مثل كلمــة صــغير التى ينطقهــا بالعجمــة المدرســية صــقير ـ خطــأ جــديد جــدا •

نطق الجيم عندنا من سقف الفم حرف شديد أخو الياء لا يخالطه الانتشار الشــينى الطابع كما فى جيم أهل الشــام ولا مشابهة ما بين الكاف والقاف كما فى جيم أهل مصر • وفى كتاب شرح نهج البلاغــة لابن أبى الحــديد ان بنى عك من اليمن كانوا ينطقون الجيم كافا فيقولون الكمل للجمل • وزعــم

أبو العلاء المعرى فى رسالة الغفران أن العباديين رهط عدى بن زيد الشاعر ، كذلك يفعلون ، والله تعالى أعلم •

أصل الشرف فى اللغة الارتفاع وفى العامية نقول فلان يتشرف لكذا أى يمد رأسه تطلعا اليه وفى اللغة العربية الفصيحة شرف فلان منزله أى جعل له شرفة أو شرفات والشرفة (وهى التى يقال لها البلكونة الان) مرتفعة ومزينة بأعمدة وزخرفة بناء • والعرب قد عرفت هذا النوع من هندسة المساكن وزينتها فى اليمن وحضرموت واليمامة وغيرهن • وارم ذات العماد الاسطورية الجمال انما كانت بجنوب جزيرة العرب وزعم بعض أهل التفسير أنها هى المرادة بقوله تعالى : ارم ذات العماد التى لم يخلق مثلها فى البلاد والسياق يدل على أن ارم ذات العماد بدل أو بيان لعاد من قوله تعالى الم تر كيف فعل ربك بعاد ، فارم هى عاد الاولى وعمادها خيامها أو طول أجسامها وهذا ما عليه أرجح أقوال أهل التفسير والله تعالى أعلم •

هذا وقد عرفت العرب أيضا أنواع الوشى والزخرفة فى صناعة الثياب مثل برود الخال اليمنية التى ذكرها أمرؤ القيس فى شعره وفى صناعة الهوادج التى يقال لها التزيديات نسبة الى بنى تزيد وعليها دوائر ومربعات حمر يقال لها العَقل والرّقم وذكرها علقمة فى شعره والى ذلك أشار أبو تمام حيث قال يصف حسن ديباجة قصيدته التى مدح بها أحمد ابن أبى دؤاد واعتذر اليه :

كشقيقهِ البردِ المنَمْنَم وَشْيُه فى أرضِ مَهْرةَ أو بلادِ تزيد

وانضاف الى الزخرفة العربية الاصيلة القديمة زخارف العجم فنشأ من ذلك زخرف اسلامى انتظم ما بين المشرق والمغرب تجده بكنو وبسمرقند وبلاد البوسنا فى أوربا وبقايا آثار العرب بأسبانيا والاندلس ومن أقوى شواهده الزخرفة التى فى أول المصحف الذى طبعته الحكومة

العراقيــة بروايــة حفص عن عاصــم وحكومــة المغــرب بروايــة ورش عن نافــع •

هذا وكانت مواضــع غير أوائل الســور التى للشرافــة تزخرف أحيانا مثل آية الكرسى وجلالتى الانعــام (رسل الله الله أعلم) • وفى المجــودة النســخ من مصــاحفنا الخطيــة التى برواية الدورى عن أبى عمرو تجعل لكل جــلالة منها صفحــة مزخرفــة • وفى المصــحف الذى تركه الوالــد كانت الصفحتان قد تركتا كل منهما بيضــاء لتزخرفا فيما بعد • فأخــذت نفسى باســتدراك هذا الذى فات وجئت بقلم الرصاص أرســم به الزخرفة على طريقة رسم الخرط لامســحه بالاســتيكة بعد تحبيره بالعمار وأصناف الالــوان فمــا أدرى ما صـــنعت •

هذا وكان صغار الحيران ينطلقون بالشرافة ليرى الناس أنهم حصلوا كذا وكذا من كتاب الله • وكان الحيران فى طوافهم بالشرافة يســألون الناس الجوائــز عليها فكل يعطيهم ما يقدر عليه ، لم نحضر زمان كان للحــيران سلطان بسؤال الشرافة ، لا يخفى ما فى ذلك من ربط محكم للمجتمع بمعاهد التعليم • لا بل مصدر ذلك من صنيع الحيران انما كان من حقيقة الارتباط الروحى القوى بين التعليم فى الخلوة والمجتمع • أمر طبيعى لا تكلف فيه •

شاهدت فى مدينة كنو بعض الصبية بأيديهم الالواح يطوفون بها ويتغنون أغانى حلوة جــدا ذات نغم حى ، سريع متلاحق • ولكنه بلغة هوســا • وسمعت نفس النغمة أو نغمة مقاربة لها جدا بمدينة الرسول صلى الله عليه وسلم من أُصَيبية صغار بناحية جبل أُحد يدعون للزوار •

ومن أناشيد الحــيران التى كانوا يتغنون بها وهم يســألون بالشرافة ويخوفون من لا يعطيهم جائزتها تهاونا واســتخفافا وبخلا ، ذكر لى ذلــك الاخ المفضال والزميل العلامة الدكتور دفع الله عبد الله الترابى :

ال ما بيدينا الشرافة ،

بالعقرب النتافة ،

تنتفه فوق ندييـــــه ،
تشـــهّل عنقرييـــه .

أى الذى لا يعطينا حق الشرافة ندعو عليه بالعقرب النتّافة (أى الشديدة اللسـع لان العقـرب حين تلسع تغرز ابرتها ثـم تنتف ذنبهـا عنك كمـا ينتف الريش) ، تنتفه فوق نديـيــه بنون مفتوحة ثم دال مفتوحــة ممالة مشبعة بالامالة ثم باء بعدها الضمير بالتحامها معه (بو) ، أى عظم ســاقه سمى بذلك لندوبه وصيغة فعيل بفتح الفاء وامالة العين نادرة لا أعلم منها غير هذه الكلمة ولولا ما فيها من معنى الندوب وهو واضح فى حرف الساق لقلنا انها بجاوية أو نوبية أو غـير عربية • تشهل : تهيء • عنقرييــه : أى نعشه الذى تحمل عليه جنازته • شـحذت مرة بالشرافة ولم أحصـل على طائل وعلم أبى ولم يرضه • رأيت عدم الرضا فى وجهه •

لا أدرى كيف صرت الى شرافة ســورة محمـد ولا شرفت الرحمـن ولاتبارك قبلها • كنت فوضويا كأنما أثب وثبا • الدخان ، يس • أذكر لوحى فى يس • لكن لا أذكر شرافتى لها • وبين لى الوالد رحمه الله اجاءها بالادغام واذ جاءها بلا ادغام وقــال انها قراءتان بيانا سهلا واضـحا فى غاية اليسر وذكر لى فكى الطاهر ود بابكر رحمه الله وكان ينوب عن شيخنا محمد ود الطاهر رحمه الله ، اذا غــاب أن قراءتنا فى الخلوة بعمرو أى أبى عمـرو وقراءة المدرســة حفص والقراء سبعة • لا أذكر صاد ولا والصافات• نعم كان جماعة الشيخ البدوى فى المولد والحوليات ، وحلقتهم صغيرة ، ويجيئون ومعهم قنديل كبير مكسو ومزخرف يحملونه أمامهم ، يقولون بأصـوات ملائمة لطريقة انشادهم فى الاذكار :

سُبحانَ رَبّكَ رب العزّة عمّا يصِفون
وســلامٌ على المرســلينَ
والحمـد للهِ ربِّ العـــالمينَ

ــ الله • • • • يشْربونها هاء من عند أولها
ــ أهــلـه • • • أهــلـه • • • •

وينشدون نشيدا غريبا وبعضهم معه رق، دف فيه أصناج نحاس رخيمة لا ترن رنينا شديدا ٠ ٠ ٠ والدف نفسه خافت الصوت خشبيه غير ذى تهزم رنان ٠ ٠ ٠ رخيم جد رخيم ٠ ٠

كان بين رحمه الله مقدمهم وهو الذى يقول فيقولون معه سبحان ربك رب العزة عما يصــفون ٠ وما كنت أربط بين هذا وآخر الصــافات ٠ ولا أذكر « تنزيل » ولكن أذكر « غافر » وهى أولى الحواميم وآخرها للصاعد ٠ أذكر « فصلت » يذكر فيها آذان فكى عبد الله ود المريف رحمه الله، جهيرا صيتا ندياً قوياً : ــ ومن أحسن قولا ممن دعا الى الله وعمل صالحا وقال اننى من المسلمين ٠ ٠ ٠ الله أكبر الخ ٠ ٠ ٠ وأذكر رمية شيخنا فى غافر : أســباب السموت، هى أيضا فى كتاب قواعد اللغة العربية لحفنى ناصف ــ لعلى أبلغ أسباب الســموات والارض ــ مثال على أن لعل للترجى، رميــة شــيخنا « فاطلع » بالرفع (قراءة أبى عمرو) وكتاب القواعد « فاطلع » بالنصب (قراءة عاصم) ٠ وليت للتمنى ٠ وكان الوالد رحمه الله يترنم ترنمــا عذبا بهذا البيت :

لَيْتَ الكواكب تدنولى فأنظمَها عُقودَ مدحٍ فما أرضى لكم كلِمِى

وهو شاهد فى كتاب القواعد على أن فاء السَببية تنصب الفعل بأن مضمرة وجوبا ــ فأنْظِمها ٠

وقصة النمرود، أيضا متصلة بآية ســورة غافر ٠ وهو أيضا حاول أن يصل الى المولى جل وعلا فى السماء وسَمَّن صقوراً وطار بها، جعل لها لحما مُعَلّقا فوقها وهى تطير لتأخــذه ٠ كنا نتذاكر بها مع فكى الطاهر ود بابكر رحمه الله، وكيف أن النمــرود الملعون أهلكه الله بأضــعف خلقه ودخلت ناموســة فى أنفه وصارت الى داخل رأسه وجعلت تــزِنّ فى داخل رأســه وتتغذّى بمخه وهو من ذلك فى أشد التعب ويضربونه بالبراطيش ــ أى النعال القديمة ــ حتى انكسر قحف رأســه وخرجت الناموســة مثل العصفورة٠ هل مــات النمرود بتــورم خبيث فى المــخ ؟

وفاطر وسبأ أذكر هما الى النمل وأذكر مذاكرة فكى الطاهر ود بابكر رحمه الله وتفسيره القطمير بأنه قشرة النواة والنقير بأنه نقرة النواة • وشارك فى هذه المذاكرة فكى على ود نور الدين رحمه الله • وفسر فكى الطاهر كلمة مِنسَاة فى خبر سيدنا سليمان عليه السلام ، فمادلهم على موته الا دابة الارض تأكل مِنْسَاتَهُ ـ بأنها العصا • وخبر سيدنا سليمان عليه السلام كله طريف ممتع • وكنت أحس عطفا على العفريت الذى تبرع أن يحمل عرش بلقيس فحرمه من الفرصة سيدنا آصف بن برخيا ذو القوة الخارقة : أنا آتيك به قبل أن يرتد اليك بصرك • قالوا كان عنده اسم الله الاعظم •

وخبر سيدنا موسى عليه السلام • وكنا نتذاكر بقراءة لامية ابن الوردى وشرحها • وفيه أن فرعونَ كان اسمه الوليد بن مصعب وكان صعلوك البداية وكانوا يقولون له فرّعَوَنْ نَفْسِه لأنه كان دائما يفر وكان أنانياً فلقب لذلك بفَرّعَوْنُ نَفْسِه ثم اختصرت الجملة الى فِرْعون • وكنا نتحدث عن قوة سيدنا موسى عليه السلام وأحسب أن أصحاب الاخبار خلطوا بينها وبين قوة شمشون صاحب دليلة •

وكان حاج آدم يعرف النحو والأدب وعنده شرح المعلقات وكان من أهل الغرب اما جهة شاد واما برنو ويقرأ بحماسة • وكان فكى على ود نور الدين حسن الصوت ويستطرف من أشعار التصوف أبياتا رائقة• وأذكر قراءتى من البقرة الى الاعراف ومدارستى صاحبا لى (الاستاذ محمد أحمد الهوارى) كان جيد الحفظ مهذب الاقبال على التعليم سليم طوايا الصدر

ـ كنا نقرأ معا ومعى فوضويتى

ـ قرايتك قراية جن فى جن

كان فى الخلوة نشاط ثقافى كثير كبير متعدد النواحى منه درس ومنه

عبادة ومنه أدب ومنه تصوف ومنه عرف قديم كالتحنيك والتميمة للمولود ولامه وحجاب العروس وتمائم ورقات الاولاد • ذكروا فى الخبر عن الشاعر غيلان ذى الرمة انه انما سمِّى ذا الرُّمَّةِ لانه كان يلبس تميمة أى تعويذة ، هذا بعض التأويلات فى اسمه • والبخرة وهى ورقة صغيرة فيها تعويذة تحرق ويتداوى بها من كثير من الاوجاع • وصار اسم البخرة فى المدارس يطلق على الورقة التى يختصر فيها الطالب بعض الاجوبة ويدخل بها غرفة الامتحان وينقل وبالطبع يكون قد خمن الاسئلة • وربما غفّل الممتحنون المراقِبَ وبعثوا بالبخرات بعضهم الى بعض وأكثر ما كانوا يفعلون ذلك فى مسائل الحساب •

والشقيقة وهى الصداع الذى يصيب الرأس تُدَاوى بالبخرة وقلَّما ينجح فيها دواء آخر • وقد يلفون الرأس بمنديل ويربطون المنديل بمفتاح باب خشبى • كانت تصنع الابواب من الخشب المحلى وتكون لها مفاتيح من الخشب وأقفال من الخشب وجعل بعضهم يستعمل مفاتيح الكوالين الحديد مع منديل الشقيقة وبخرتها ، وقيل هذا لا يجدى • وكان فى القوم أطباء يقرأون التذكرة ونحوها ويصفون للناس الكراوية والرشاد والكمون والحلبة • وكانت تستعمل كثيرا وتكون فى صناعة الكسرة ويصنع منها شراب ساخن وبارد • قالوا : والحلبة مدرّة للبول • وكان حاج مجذوب ود مصطفى أوده رحمه الله ينهى عن شراب اللبن فكان هذا من أمر طبه عجبا • ولعله رحمه الله قد فطن الى كثرة ما عسى أن ينتقل من طريق اللبن من أمراض ان لم يكن معتنى به كل العناية •

وكانت الصدقة موسم فرحة طعام الحيران ووقتها وقت الغداء وتكون فى اليوم السابع بعد وفاة من يموت يتصدق أهله بذبح شاة من معزى أو ضان ويدعون الحيران وشيخهم والفقراء (أى الشيوخ) • وكان اللحم عزيزا ففرح الحيران كان من أجله • وكان بعض الناس لا يأكل لحم الصدقة

يستنكف من ذلك • وهـؤلاء فى من رأينا قليـل • وفى الصـدقة الكبيـرة يذهب الحيران ومعهم عدد من الفقراء الحافظين والطلاب المهاجرين ويكون معهم مصـحف أو مصـحفان • والمصـاحف مخطوطة ـ فيفرقها الشيخ غرفات غرفات كل غرفة فيها حزب أو نصـف حزب أو جزء بحسب عـدد الناس • وترتفع أصـوات التلاوة ويكون لها دوى جيد •

وحضرنا أخريات زمان كان الطلاب يقدمون من المشارق والمغارب • وكان فقيه صالح من الشناقيط ـ يقال لبلاد شنقيط الآن موريطا نيا وهو اسـم صـنعه الافرنج ليخلدوا به ذكر الروم ويمحوا به ذكر العـرب ـ لا يغيب عن الخلوة وأقام بالدامر زمانا طـويلا كثير العبادة ويقول له الحيران هـذا هذا كالتلقيب له لكثرة استعماله اسـم الاشارة على هذا النحو بـدلا من دا وداك كما فى دارجتهم • وكان أحد النـاس نظيف الثـوب ، يلم بالمسـجد أحيانا فيقيم الايـام ، وكان يقال انه يشـتغل بالكيمياء وكان ذلك قد كـان يسـتنكر للحاقه بالتنجيم والطلاسـم والاسماء التى يراد بهـا تـرويض الخدام الروحانيين • ومسـك الاسماء فيه خطـر جسـيم لانك اذا مسكت الاسـم من دون شـيخ فان خادم ذلك الاسـم من الروحانيين قد يغـير عليك فلا تتماسـك ويذهب عقلك مرة واحـدة ويروى عن أحـد الفقـراء اذ كان شابا جلدا انه مسك اسما فرأى شيئا مخيفا مهولا ذا شعر كثيف أحاط وهيمن وجثـم عليه جثوما واسـتعمل اسما بعد اسم ليتخلص منه فمـا أجدى ذلك • ثم آيـة الكرسى • ثم أخيرا يّس ويّس قويـة وهى سـلاح الفقراء الذى عليه يعولون فجعل الشئ يتلاشى شـيئاً فشـيئاً حتى ذاب فى ظل شعلة سِراج (لمبة جاز) كان فى جانب من البيت • وجاء الفجـر وذهب الى الصـلاة وبعد الصـلاة ناداه شيخنا الفكى عبد الله رحمـه الله وقال له يا ولدى نحن لا نشـتغل بهذه الاسـماء ولم يسبق للفكى عبد الله رحمه الله علم بهذه المغامرة التى كانت من الفقير ، أى علم إلا من طريق الكشـف فتأمـل •

وكثير من الخلوات فى السودان يداوى بها المجانين بعضهم مطلقون وبعضهم يرسفون فى السلاسل وكان الدكتور التيجانى الماحى رحمه الله يستحسن بعض أساليب الفقراء فى مداواة الجنون ويقول لها أصل علمى ، وكان رحمه الله ذا صدر رحب وعلم واسع وتعمق جمع فيه بين المعرفة والتخصص فى الطب والتحصيل الجاد فى أبواب الادب وحضارة الاسلام •

هذا وكانوا فى الدامر لا يداوون المجانين وكان الفقيه حمد ود عبد الله راجل درو ضمين الدامر وجد أهلها الكبير تعاهد هو مع الجن والتماسيح ألا تتعرض لنسله ومن حولهم وهؤلاء لا يتعرضون لها • وحافظ الناس على هذه المعاهدة وكذلك الجن والتماسيح فى ما يبدو •

وكان من عبادات الخلوة سوى الصلوات الخمس اعداد الطريق وأوراده ولياليه فى الاثنين والجمعة • والعدد كبير وصغير بيالطيف ويّس وسوى ذلك • وفى أزمان الشدة يجتمع الفقراء لقراءة العدد الكبير يّس• وفى الليالى يقرأون مولد الشيخ المجذوب ويمدحون من مجموعته ومن ديوان الشيخ عبد الرحيم البرعى رضى الله عنه • وكنت مواظبا على المديح وحفظت البردة والهمزية • وكانت فى المولد حلقات فيها مجيدون لانشاد المديح مفتنون فى روايته • وكانت رواية مديح الشيخ السواكنية من أحب الانغام الى وكذلك مدائح البرعى ولا سيما حين يشترك فيها مداح كثيرون يتجاذبونها ، ينشد هولاء بيتين وهولاء بيتين بحماسة واندفاع • كان فكى أحمد ود بابكر ود النور لا يجارى جهارة صوت واشراقه مع جودة أداء بالغة وكان مالك أب روف يسانده • وكان فكى حسين ود الريح رحمه الله محبا ذا صوت صحل ونفس حماسة صادق • وكان فكى أحمد ود النور الكبير نسيج وحده •

••• •• •• ••

كان حينما يحضر الشيخ جلال الدين (استاذنا شيخ جلال) بالعطلة يتصل عمران الدرس والفضل فى داره بعمرانها فى الخلوة • وكنت اتردد

على داره فسمعته البردة والهمزية وحضرت دروسا فى شرحهما قرئت عليه أذكر من ذلك خبر الطالب المغترب الذى نهض ليتوضأ للمغرب فذكر أهله فكان من بركة شيخه عليه أنه وجد نفسه يسير الى أهله وأقام عندهم ستين ليلة ثم عاد وأدرك صلاة المغرب ـ اختصر له ببركة شيخه البعد الزمانى وكأنه ما غاب الا طرفة عين وكنا أنا وابن الاستاذ ، الاديب الشاعر الجزل محمد المهدى مجذوب نتذاكر كثيرا ونقرأ فى المجموعة النبهانية ومقامات الحريرى • أذكر جيدا قراءتنا المقامة الشعرية وهو عرفنى بها وعجبت مع عجبه وعجب أخيه فضيلة الاستاذ الهادى وكان فى قسم القضاة فى التجهيزى ، من :

يا خاطبَ الدُّنيا الدَّنِيَّةِ إنها ... شَرَكُ الرَّدَى وقَرارةُ الأَكْدارِ
دارٌ متىَ مَا أضحكَتْ فى يَومِها ... أبكَتْ غداً تبّاً لها من دارِ

كيف صار بها حذق الحريرى الى :

يا خاطب الدنيا الدنية انها شرك الردى
دار متى ما أضحكت ... فى يومها أبكت غدا

ونقلت متنا وشرحا فى العروض للشيخ محمد الامين القرشى وكان قاضى الدامر آنئذ ، كبير قضاة المديرية • وقال فى الشاى وكنا نعجب لقوله هذا :

جاء إلاناءُ مذهّبًا يابانى ... فابن القصائد عند ذا يابانى

وأخذت مبادىء التجويد من مولانا شيخ مجذوب عندما شرع فى تدريس أرجوزة الجمزورى التى أولها :

يقول راجى رحمة الغَفُور ... دوما سليمان هو الجمزورى

ورسخ فى الذاكرة قوله فى حروف الحلق :

همز وهاءٌ ثم عين جاء ... مهملتان ثم غين خاء

وقوله :

للنون أن تَسْكُنْ وللتنوين ... أربع أحكام فخذ تبيينى

وأن حروف الادغـام يجمعها قولك : يرملون والغنـة تكـون مع حـروف ينمـو وادغامك النـون فيهـا غير محض

والثان ادغامٌ بغير غنـة　　　فى الـلام والر ثمَّ كـررنه

وعند بعض القراء ، ذكره ابن الجزرى فى النشر ، وليس ما عليه الجمهور جـواز الادغـام بغنـة فيهما ، واللـه تعـالى أعلم •

**** *** *** **

وكانت تقام الحوليات بالخلوة ويذبح فيها ثور ويغلى لحمـه ويطبخ مع الذرة فيكـون ذلك بليلـة لحم ، كرامـة ، (أى صـدقة عامـة) ويحضر أهل الطرق جميعهم ، الشـاذلية وهى طريقة أهل الدامر والقـادرية وهى الطريقة القـديمة ويحضرها حيران الشيخ الجعلى وحيران قادرية الصـعيد فتكون لهم حلقتان كبيرتان والبدوية جماعـة (بين) بفانوسـهم المتمدن الذى يداخلـه روح مصرى فى النغـم والاداء ـ ولم لا ؟ والشـيخ أحمـد البدوى ، صـاحب البيرق النبـوى ، « راجل طنطا » ، وقصـته مع السيدة فاطمة بنت بر عجيبـة • كان فكى الطاهـر ودبابكر رحمـه اللـه ملمـا بهـا أيمـا المـام ••

كان الاديب المصرى مصـطفى صادق الرافعى رحمه الله يحب الشـيخ البدوى وله فيه عقيـدة • وأذكر اذ مررنا فى بعض رحـلات مجمع اللغـة العربيـة الى اسـكندرية بطنطا فاستشعرت أسـى شـديدا اذ لم نتمكن من زيارة ضريح الشـيخ البدوى ـ أسيت على الصـبا الـذى زال ـ على أواخـر حضارة لابسـناها ولم نكـد نفعل •

وكانت حلقـة الختمية كبيرة • كانت دائما كبيرة حتى ظهرت الشبابات ـ وهى منظمـات الشباب ذات الطابع السياسى نوعا ما •

كانوا يحضرون بأحزمتهم الخضر والوشـاح الأخضر فـوق الكتف الى الحـزام ، والثيـاب نظيفـة والعمائم محكمـة :

حى قيـوم • حى قيـوم • حى قيـوم •

ويجيء الخلفاء أحدهم كان يلبس جبة وقفطانا . ويفتنون فى الانشاد الذى ينشطون به الذكر :

ـ يا حَسَنْ ...

ـ ... قيوم ـ يا حسن ... ـ قيوم

يمدون فتحة الحاء والسين من حسن :ـ يا حاسان .. ـ قيوم كنت أتحمس للقادرية . لنوعى القادرية . مديح جماعة الصعيد ، جماعة الكباشى والعركيين ، خفيف والنوبة ـ وهى الطبل الكبير ـ صوت دقتها يجلجل فى الصدر .

كنت غاضبا جدا من كتاب كليلة ودمنة حيث ذكر أن الطبل كبير له صوت مهول ولكنه أجوف لا طائل وراءه . الطبل محاكاة للقلب فكيف يكون لا طائل وراءه . الطبل قلب كبير ...دق

الله هو

صوت من الاعماق . ثم تصير الاناشيد خفيفة ..

خيول النُّورْ يَجَنْ طابورْ .

مولاىْ غفارْ عالم الأسرارْ ... بدور له خبار (أى يسأل عن خبر)

الفلك دار بدور له خبارْ وين الذكار

ساقية دفع اللّهِ حراتها أهل الله

ويا ليلى ليلك ظَلّمْ معشوقك صار مؤلمْ

سموه الملك فى كَمْ وكُبَكْ كم حلّ شبك حسن النادر

أبوك يا طَهْ ونفسهُ وطاها (أى داس على هوى نفسه فلم يتبعه)

نادى اب صوبان دفع الله

دفق الوبّان دفع الله

ويصير الذكر آخر الامر انفعال حركات منتظمة والصوت الله الله الله الله ... فى كم وكُبك كم حل شبك ـ كم وكبك كناية عن المجهول

وديــار الغيب والاسرار • كنت أقف أراقب مشــدوها وصــوت النوبــة وأطباق النحاس الجهيرة ـ كصــنج نحاس دف الطريقة البدوية الرخيم ـ يرن فى أعماق نفسى • كنت أحب النوبــة وذكر الصــعيد منذ ايــام كسلا

آل لالوبــة جات تِتكىّ : (اللالوبة : شجرة الهجليج ونوى ثمرها تصنع منه الســبحات الكبيرة ال لالوبة شُدَرة مكّة (شدرة : أى شــجرة)

اللالوبــة يا اللالوبــة

ويا ال منك باب التوبة (لان الصالحين يسبحون بحباتها ألفا ويستغفرون) بتى المنور كيسها : بنتى ـ وهى سبحة حبات اللالوب الكيس الذى توضع فيــه يشــع نــورا •

وأضــاف الاهل الى ذلك :

بنتى الميدوب عريســها (أى الشــيخ المجــذوب رضى اللــه عنه)

لالوبــة يا لالوبــة يا ال منك بــاب التوبــة

. ***. *** .

وطبل حيران الشــيخ الجعلى كــان يعجبنى

هذه طريقــة الدامــر القديمة الصــلة بالشاذلية وفقرائها • لم تكن لها نوبة آنذاك ولكن طبول صــغيرة من نحاس وجلد عالية الصــوت وطارات كبيرة وصــغيرة • والطارة دف من جلد اطاره من دائــرة خشب غير عريض الاســطوانة عمقا • وقد يكون قطر الدائــرة متوســطا وكبيرا وصغيرا • كنت أحب مديح ناس الشــيخ الجعلى أشــد الحب • كنت أنا وفكى أبشر ودشيخنا الفكى الحســين رحمهما الله جد حميمين • كنا نصنع لانفســنا طارات وطبولا من العلب والصــفيح وندق ونحاكى صــوت الطبل بأفواهنا ونمشى بذلك ولنا رايات مثل الزفــة ومثلما يمشى جماعــة مداح الشــيخ الجعلى وســط الحلقــة عندما يحمى الذكر • كانت محاكاتنا لصوت الطبل هكــذا :

كلبَلْكلْ ••• كلبلكَلْ ••• كلبّلكل ••• كلباكَلْ ••

وكنا نحاكى الذكر • نمدح ونذكر لانفسنا معا : الحق لا الـه الا اللـه بامالة شديدة ممدودة بعد الحاء وباشراب الالف من لا واوا هكذا :

الحيق لو ••• إلو •• ها •• الوّ ••• اللـه ••

ونحاكى البداية فى الطبقة الاولى من الذكر : « لا اله الا الله » وفى سائر الطبقات : الله حى •• الله حى ••• اللوه حىّ ••• بَقَرُه سَطوّحَىْ ••• ولا معنى لهذا الا محاكاة النغم بطفولة صاخبة •

وذكر جماعة الشيخ الجعلى (رضى الله عنه) سبع طبقات • وبين كل طبقتين ينشدون أناشيد يقال لها الشعر بحركة مقاربة للضم فى الشين والعين وكثيرا ما تتحول كسرة الفصيح فى العامية الى ضمة كقولنا طوال جمع طويل وكبار جمع كبير وصغار جمع صغير والضمة من الواو والكسرة من الياء والواو والياء أختان ولذلك أجازت العرب الجمع بينهما فى ردف القوافى مثل «يُعيد» «ويَجُودُ» وفى الإقواء ولم يكن عند القدما من عيوب القافية •

هذا وأجمل هذه الاناشيد كان قبل الطبقة الخامسة والسابعة • الطبقة الخامسة لها طريقة ذكر خاصة بها ثقيلة ذات أناة :ـ قيووووم وضربة طبل خاصة للطبل والطارة : كل كل كلبلكل كلكل ••••• كل كل كلبلكل كلكل ••• شوّقونى الأقوام

لَـوْمى أنـا النَّـوامْ

يا سبوح يا عـلّامْ

يا رحيم يا يا رحّـامْ ••• لومى أنا النـَّوامْ

ــ قيووووم

ونشيد الطبقة الخامسة « نصبوا خيمتن » أى خيمتهم ــ وهو حماسى يتحدث عن جهاد الصحابة :

نَصَبُوا خيمتُن ليشَافِع المخلوقْ « أى نصبوا الخيمة للرسول الشافع صلى الله عليه وسلم ــ وهنا اشارة الى عريش بدر الكبرى »

ضربُوا له النّحاسْ نَزل الوَحِى من فوقْ : «ضرب النحـاس للحـرب كمـا لا يخفى»

قال له يا محمَّدْ : يمينكم مَطْلُـوقْ

خلُّوا الكافرين مثل الجَزر فى السوق

نَصَبُوا خيمتُنْ جَلَس القريشى الحُرّ ــ القرشى الحر رسول الله صلى الله عليه وسلم وهذه الصيغة فى النسبة الى قريش صـحيحة

ضربوا له النّحاسْ أبانْ جباهاً غُـرْ : أى ذوو الجبـاه الغر

وَجْوَكَ أصحاب رسول الله ال بيكشفُوا الضُّرّ ــ جوك أى جاءوك

وخلوا الدم تقول مطر السَّوارِى تخُرّ ــ أى كمطر الساريات من الامطار

أصحابَ الرسولْ سَـوّوا العجايبْ كيفْ

كلّ من كان يَحيكْ فى الدنيا قاعد ضَـيفْ

الدِّينْ جابوه قَهْراً بالرِّمح والسَّيفْ

وخلّوا الدَّمْ تَقُول ماياً ضَرَبْ فوق قيف : أى كماء ضربت أمواجه على حافة حجرة النيل حيث يقف الماشى ــ قيف أى شاطىء

نصبوا خيمتُن يا مَرحَبا ال تَمُّوه

والكرارْ دَفَرْ طالِب بنى عمُّهْ ــ الكرار هو سيدنا على كرم الله وجهه دفر أى حمل بفرسـه

ال يا بَى الرسُولْ الليلَـه واهمُّـه

باسْراع بيعجَلْ بيدفقوا دمُّه

ضربوا خيمتن فيها المنصر كان : الكبـير المظفـر

جَلَس المصطفى سَيِّدْ وَلَدْ عَدْنان

ضربوا له النحّاس جَبَدُوا الرُّهافْ وسَنانْ :   أى جذبوا السـيوف المرهفـة الصـارمة

ـ سنان جمع سنين أى حاد

خلّوا الدمْ تقول ماياً ضربْ وديان

بمثل هذا الروح الساخر كسر قومنا مربع الرصاص الافرنجى فى حـروب المهدية • وهو الذى يسـميه الأوربيون fanaticism وأفظـع منه تحريقهم الأحياء • • •

هذا ونشيد الطبقة السابعة فيه أنغام يا ليلى الصوفية الذوق •

يا ليلى أول يا بادى

طال الشوق للنبى الهادى

نبى الخير محبوبى مرادى

وآخر الليل تسرى له اجنادى   (أى بالذِّكْر والتسبيح والصلاة)

يا ليلى أول بادينا

يا ستار للعيب ال فينـا

بالقرشى السـاكن المدينـا

من الاهوال يارب تنجينـا

يا ليلى يا م ريحا زاكى

يا م شدرا مايل متاكى   : أى ذات شجرٍ مائل بعضه على بعض

فى الحضرات نعم ال والاك ى

يا م كأساً دايرْ ما أحْـلاك ى

يا ليلى كاملات أوصـافهنْ

وخيل الغيب من صنقع شـافَهِنْ

خيل غرّ تامـات أصـنافهن

وشَلعْ النورْ الى عند اضلافهن

يا ليلى دربك زلقييَهْ   ـ أى ذو مزالق

وما بيمشيه الحاقب العبيه ــ العبية أى الشنطة أى من جعل الشنطة حقيبة له ، تعريض بطلاب الدنيا

أى دربك يا ليلى ــ وليلى رمز الصوفية ــ مزاق لا يستطيعه الا ذو الجد والتشمير الذى لا يحمل العبية أى الحقيبة أى الشنطة أو كما نقول الآن : البرجوازى •

ثم يأخذون فى مديح الأشياخ :

ليلى هُوْ أنوارُه تلالِى

أحمد أبوى يا راحة بالى : يعنى شيخ الطريق الشيخ أحمد الجعلى المثنى رضى الله عنه

أنا راجيك تصلح لى حالى

بالاسرار والكاس الحالى

ياليلى نادى لى الخاتم : أى السيد الحسن المرغنى رضى الله عنه

وتور كسلاياب درًّا عاتم :

الأسرار حاويها وكاتم

وخيل الغيب فوق راسها يلاطم

ياليلى ينتر فى الْفُهْ دا (أى ينفض حبات سبحته الالفية هذا الولى)

ما تبع الدنيا المقدودَة

سلطينتك دايما محدودة : أى حربة سنان روحانيتك أبداً حادة

على الدركان فرسك مشدودة : أى تنجد من يستنجدك وقد أدركه الكرب

ياليلى أولادك وين هم

الرشد ال ما نامت عينهم

وهكذا وهلم جرا •••

كان قرشى ود محمد على ومجذوب ود كنيش رحمهما الله كبيرى المداح •

لم يكن قرشى صيتا ولكنه كان ذا حرارة واخلاص • وكان مجذوب ذا صوت ندى وسماحة وجودة رواية • وكان ضياب المقدم رحمه الله جسيما ذا منظر حسن نظيف الهندام له شوارب دقيقة مهندسة ولونه أبيض مشرب بحمرة – رحمهم الله رحمة واسعة

ليلى ياليلى نادى صَلّاحى أبو القيمان ذِكْره صبّاحى
ليلى ياليلى نادى أبو القيمانْ نحاس القوم لِيَدُق رطّان
أبو القيمان بحر طامح واسمه الجيل أبو صالح

**** ** ****

قال لى أحد المدرسين وكنا فى أثناء رحلة مدرسية بكردفان ونحن فى أخريات كلية غردون ، المدرسة الثانوية ، التجهيزى التى كانت واحدة يشار الى تلامذتها بالبنان • كانت الدنيا مساء • كنت أقرأ شعرى فيه هزل وهجاء مشاغبة لبعض الزملاء • وكان الشيخ محمد تمساح ناظر دار حامد حاضرا وكان يسمع باعجاب وقال الله يكفينا شر لسانك يا ولدى • وقال لى أحد السخفاء ولم يفهم جانب المدح : هلكك • وسألنى بعضهم كيف تعلمت الشعر فذكرت أثر الوالد فى ذلك • وماهو الا أن قال ذلك المدرس بكل خشونة متعمدة « أن والدك كان بليدا معروفا بالبلادة ولذلك رفتوه من الكلية زمان » وغالطته وكرهته وانفض المجلس • وكنت من قبل استظرفه حتى قال ما قال وزادنى كراهة له علمى آنذاك علم اليقين بكذبه واحساسى أنه حسدنى على انشغال المجموعة بى وبشعرى من دون أحاديثه ، وقد اعتاد أن يجمع التلاميذ حوله من أجلها • وقد قرأت شعر الوالد رحمه الله وسمعت تلاوته وحسن الثناء عليه من كل الناس ولا سيما أقرانه الذين عرفوه وعاصروه ، شيخ جلال ، شيخ البنا ، شيخ الامين ، شيخ حسن أحمد ، شيخ المليك ، شيخ حسن على ، شيخ نجم الدين ، شيخ عثمان ابراهيم ، شيخ عبد العزيز عبد الله ، شيخ ابراهيم أحمد ، شيخ بابكر عبد الله ، أحمد أفندى محمد صالح وهلم جرا • وسمعت فى تركه كلية غردون من السنة الثالثة أخباراً يكمل بعضها بعضا ، أن والده أصر على اخراجه ، وأنه خاصم خصومة مرة وكتب عنه لايشتغل

بالحكومة ويعزز هذا ما ذُكِرَ من عزم والده على خروجه • وسـألت استاذنا الشـيخ جلالاً عن ذلك فجـزم لى أنه كان جيدا فى دروسـه ولم يـرفت ولكن لم يعـد بعد العطلة ونفس الخبر قص على مثله الشـيخ حسن أحمد وكان الشيخ جلال يثنى الثنـاء الجميـل على اتقانـه القـرآن ومعرفتـه بقراءاته وأنه أحيانا كان يترنم بأول الشـاطبية وآخرها وحكى الشـيخ حسن أحمد رحمـه الله طريقـة ترنمه فلم يباعد وأنشـد قولـه يصـف ادخال الكهرباء فى أمدرمان واضـاءة قنطـرتها بذلك :

مصابيح أضـواء بدون على النهر   تلوح كعقدٍ من جمانٍ على نحر

ومرة ، وأنا تلميذ بالتجهيزى ، كنا عند شيخ البنا ــ وكان أستاذنا فى مـادة العربية ــ فى دارهم الاولى بحلة ود البنا بأمدرمان فأرانى مخطوطـة من تهذيب التوضـيح وذكر أنه والوالد كانا يتذاكرانها معا وأشـار الى الغرفة التى كانـا فيهـا يدرسـان •

وعمل الوالد فى التجـارة • وكان وعـدها حسـنا أول الامـر • ثم انتهت الحرب وتبع ذلك كسـاد مروع • وسـافر هو الى نواحى الغرب ــ ذكروا أنه وصل الأضـية • ولما عـاد وجد أن ماله الناطق والصامت من صـيغة ونحوها قد بيع بحجـة تسـديد ديونه ، وزعـم من تصـدر فى ذلك وحث عليه أنه فعله بدافع الحفاظ على اسـمه أن يعاب بالتقصير فى تسديد دين • وغضـب الوالد فى ما ذكروا أشـد الغضـب اذ قد بيعت الحمير الجيـاد وغيرها وشـتى المنفسات بالثمن الوكس فما بقيت الا دار عبد اللـه والطين وغابـة السـنط •

وكانت أمام البيوت كُرفَـة ــ أى حجـرة مستديرة •

ثم عمل الوالد فى التدريس ••• كان ذلك بعد سـنة ١٩٢٤م وقد احتاجت الحكومـة الى أولاد البـلاد بعد اخراجها المصريين ••• فدرس بمدرسـة كسـلا الاولية وبقى بها سنوات أربعا أو خمسـا ثم بمقرات ثم بأبى حمد

ثم بالدامـر سـنة ١٩٣١ وجاءته الترقية والاجل معـا . ولكل أجل كتاب .
وكان رحمه الله شـاعرا محسنا وكان لجرس أبياته رنين ـ مثـلا :

حُيِّيتمو من روح كل خميلَة نسجَ الربيعُ لها حُلَى الابـراد
سَجَع الهزار بها ورتَّل حاكيا شـادٍ يتيـهُ بقـدِّهِ الميـاد
أنتم مصابيح البـلادِ وقادةُ الأبنـاءِ نحو الخـير والارشـاد

رحم الله الشـيخ حسن على . كان فى الدفعـة التى جىء بها من مصـر وفيها الوالد . لقيته بعد زمـان وأحسـبه جاء من عبرى لحضـور أحـد المؤتمرات التعليميـة اذ هو من نظار المدارس القـدامى . فكـان لقـائى له فيمـا بين أشجار المهوقنى وأشجار النخل الكاذب التى فى مدخل جامعـة الخرطـوم . ـ كلية غوردن سابقا . كان رحمه الله يلبس قفطانـا أبيض وعباءة سـوداء وعمامته ضـخمة وقد ابيض شاربه ولحيته وكان وجهـه صـبيحا وتلقـانى بانشراح نفس وعاطفة طيبـة تكاد عيناه تدمعان ـ كان يذكر عهد الوالد رحمهما الله الرحمـة الواسـعة .

وقالوا كان سبب نقل الوالد رحمه الله من كسلا بعد طول اقامته بها أنه فى ما ذكروا حسد على منزلته من السيد أحمد المرغنى وكان مدحه بقصيدة رائعة بمناسبة خزان مكوار لما افتتح ولا زلت أبحث عن هذه القصيدة أشد بحث وسألت عنها الشيخ القدال رحمه الله قبيل وفاته بأشهر فأثبت أمرها لى ووعد أن يبحث عنها . هذا وقد توفى السيد أحمد رضى الله عنـه سنـة ١٩٢٩ ونقل الوالد بعد ذلك بمدة يسيرة .

كنت أنشل عند البير التى وراء حجرة الطعام (السفرة) بالداخلية لاغسل ملابسى . وجاء أحدهم يحمل ظرفا فيه رسـالة . وفتحتها وقرأت . . .

وما المـال والاهلون الا ودائع ولا بد يوما أن ترد الودائع

واذا بحسن قد غـرق فى المتـرة يوم الاثنين .

لم يحدثونى كيف غرق . وسمعت القصـة بعد زمان . قالوا تعلقت به والدته وجدته تعلقا شـديدا ليذهب معهما الى الدامر . كان ذلك عـام

الفيضـــان • وكانت الحال حســـنة ووعد الزرع طيبا • وزرعنـــا من المترة نصـــيبا كاملا غير منقوص • وحق الارض كبير ــ النصف ــ اذ لم يكن فى رى الفيضان مشقة • وأبى • كان يريد أن يلعب •

قالوا نزل تحت حوّام الساقية • وثبت رجله فى جانب المترة • ووضـــع الرجل الاخرى على العويد الذى يقال له « الاشيقير » وكان يتربص لطائر يريد أن يمسك به • واذا بالاولاد فوق الساقية يجذبون « القشّـــق » وهو العود الذى يكون لها بمنزلة الحصـــار (الفرملة) ويحثون البقـــر ويسقط حسن فى المترة • ولما رأوه ســـقط صاحوا • وســـمع جدنا (أبو الوالـــدة) جلال الدين وهو شيخ كبير فى الثمانين • أقبل لا يكاد يعقل من شدة ما انزعج لما ســـمع ورمى بنفســـه فى المترة ، وكانت ملأى بسبب الفيضـــان •

وكفن حسن وحمل ليدفن عند والده بالقرب من حوش ضريح الشـــيخ المجذوب • قالوا عزمت جدته على أن ترى الجنازة ولم تخل من اتهام الناس بأنهم قتلوه • وما اطمـــأن قلبها حتى كشـــف لها عنه وقالت « الموت حق والحياة باطلة انا لله وانا اليه راجعون » •

لعب أطفال صادف لعبا من المقادير •

سقطت منى دمعة كبيرة جدا :

وما المـــال والأَهلون الا ودائع ولا بد يوما أن ترد الودائع

كبيرة جدا • وتماسكت متجلدا • كان موت حسن كارثة •

قالت الخنساء رحمها الله ورضى عنها اذ كانت ذات صـــحبة :

يذكِّرنى طلوعَ الشمسِ صَـــخْراً وأذكُره لكلِّ غروبِ شَـــمْس

ولولا كثرةُ الباكـــين حولِي على إخـــوانِهم لقتَـــلتُ نَفْسى

وما ييكون مِثْلَ أَخِـــى ولكنْ أُسَـــلِّى النَفسَ عنه بالتأَســـى

ولا سلوان ولا أسوة • ولكأنَّ كلَّ مصيبةٍ ننوء بها منذ ذلك الحين الى اليوم انما كانت من عواقب ذلك الحادث المشـــئوم الجســـيم • ماتت الوالدة (عائشة) • ووالدتها ذات الشكيمة بعد عامين فى نصف شهر واحد •

كانت الوالدة نقية اللون صفراء طويلة جميلة • قالوا وكانت أمها تخاف عليها العين • وكانت هى أيضـا طوالة ضاربة الى الصـفرة حسـناء أيام الشـباب • لم تكن رحمها الله (أى الجدة) تحب المهدية وتذكر أنها كانت بلى ببنتها أيام الزاكى وحسـنين ود برى وهدّدها أحد البقارة فى الدامـر التى كانت أمانا اذ لم تخرج على الخليفة عبد الله ، بالحـربة وقال « بتا بالله » هكذا حاكته ، يريد أن يشق بطنها • ولعلها أسمعته تقريعا اذ كانت حازمةً قوية الشخصية ـ أباً لنا وسندا بعد موت الوالد رحمه الله •

قالوا ولما جاءت خيل محمود ود احمد وخيل الزاكى عارضتها خيل الغيب عليها أهل الله رجال الجبانة الطاهرة بأيديهم الرايات الخضر فردوها بعيدا بعيدا ورأى ذلك الناس بأعينهم •

كانت حبّوبة بت حوا

حبّوبة أى الجدة بلهجتنا • واسمها بخيتة بالتصـغير وأبوها خلف الله ود أحمد ود بدير من رباطاب أرتل جزيرة أولياء اللـه البرشـاب بالشريف شمالى بربـر وأمها حـواء ابنـة عم أبيهـا •

كانت حبوبة بت حوا من شخصـيات البلد بلا ريب • وهى ذهبت الى أبينا الفكى البشـير رحمه الله وكان كبير الناس وبتدبيره لها ذهبنا جميعا الى المديرية وقابلنا المدير المستر انجلسون وشطب ديون البيت الذى كـان اشتراه شيخ الطيب (أبونا) بالسلفية • وأمضاؤه كبير ملأ به أسفل الورقة كله وحرفه عريض • وشدت رحمها الله عزيمتى أن استمر بالمدرسة اذ كنت فيها اقرأ داخليا بالمجان •

هل أصبت وهل أصابت ؟ • • • أظنُّ ذلك • • • وكلٌّ بَعْدُ مُيَسَّر لما خلق له ولكل أجل كتاب •

كانت حبوبة الحاجة مسرة بنت الحراس بنت عم حبوبة بت حوا وزوجة أخيها الصافى رحمهم الله جميعا • وكانت طوالة صفراء حسانة فصـيحة شديدة المودة للمهدية والولاء لها • كانت أنصاريتها فرعا من محبتها للشيخ

المجذوب وآله ناس الشيخ ود الشيخ الطاهر بحمرَى والشرق • انمــا لقب أبوها الحراس لانصرافه الى حراسة قبر الشيخ المجذوب رضى الله عنه •

والشيخ الطاهر ابن أخى الشـــيخ المجذوب واســـتاذ القائد عثمان دقنة رحمه الله •

كان جـــدى جـــلال الدين أنصـــاريا يقـــرأ الراتب •

ولم اتبين هوى الوالدة ــ كان دائما يقال لها بنت جلال الدين باخفــاء تاء بنت ــ بين ميل أبيها الانصارى وهوى أمها الختمى • ولكن سمعتها تنشــد وهى تقص علينا من خبــر المهدية ونحن صــغار بكســـلا :

مدافــع الباشا ضَرَبنْ رَشْ   وزىّ المْوُيَــة وَسْــط القَش

وقصت رحمها الله علينا خبر أبى العــاص وزينب بنت الرســـول عليــه الصلاة والســـلام وسبحـــة ستنا خديجة ، (وهى القلادة التى بعثت بهــا السيدة زينب رضى الله عنها لتفتدى زوجها) وخبر الهبــار وعلى الكــرار وقصـــت علينا حبوبـــة خبر أبى طالب لما أدركــه المــوت وأبى الشـــهادة وقال « بَخَّنْ بَخَّنْ يَجَرْدَنْ بنات قريش » اى يغصبن ويرى ذلك عيبا ومدعاة للخجل ، ولا يخفى أن هذا قـــريب مما جاء فى لاميـــة أبى طالب حيث قــال (أو قيل على لســـان حاله) :ــ

فو الله لو لا أن أجىء بســـبة   تجر على أشياخنا فى المحــافل
لكنا اتبعناه على كل حـــالة   من الأمر جـــدا غير قولِ التهازل

وسمعنا منها ومن حبوبة الحاجة مسرة مقالة أب زيد الهلالى وضــياب وعزيزة الصفيرا وتونســـة العلام • وقصت علينا الوالدة حـــديث ورقــات اللوبيا كيف وجدوا عليها اسم المهدى عليه السلام قبل ظهوره • كن رحمهن اللـــه ذوات المــام بالســير والمقالات والاخبــار •

وكان الوالد رحمه الله شـــاذليا • وكان جدنا عبد الله ود الطيب ، أبــوه كما قدمنا شـــديدا فى ذلك • على أن شـــقيق جدنا عبد الرحمن قد استشهد فى أبى طليح مع ود حلو وأخاه الاكبر محمدا قد أسر فى النجومية •

هل كان ذلك ؟ ٠٠ والخوف ؟ ٠٠ الخوف من المجهول ٠٠ فهمتنى جدتى عند موته أن معنى ذلك انى صرت يتيما ٠

رحم الله الشيخ مجذوب جلال الدين ، استاذنا الشيخ جلال ، كان فى أخريات ايامه كثيرا ما يقول لى : اليتم بركة ٠ اليتم نعمة ٠

شعرت بالحزن لما وضعت الجنازة فى ود اللحد ، الشبر الذى يحفر فى جانب حفرة القبر عميقا ويوضع فيه الميت مستقبل القبلة ثم يضعوا فوقه اللبن والطين ويهال التراب ٠ وعم القوم صمت فى جمعهم الغفير ٠ الفقراء الذين كانوا يقرأون يس ويتفلون رمزا فى اناء الغسل بثيابهم البيض عسى الله أن يمد من أجل المريض الذى قد أشفى ٠٠٠ أصناف المعارف ٠٠ الأهل من أرجاء الدامر غربها وشرقها ٠٠ ثم أثنان أو ثلاثة من الخلفاء ــ خلفاء السادة الختمية ــ أحسب أنه منهم الخليفة محجوب قالوا : على أحمدٍ والآل والصحب دائما

أذكر هذا وفى أصواتهم رقة وشجو حزن عميق بعيد
ودمعت عيناى بالحزن الشديد ٠

ذكرت ذلك جميعه وأنا واقف بجبانة الخرطوم بحرى أشهد حين وضع اللواء عمر الحاج موسى فى مضجع قبره ٠ وجاء خلفاء الختمية وأنشدوا براق السيد محمد عثمان المرغنى ، على أحمد والآل والصحب دائما ، رحمه الله رحمة واسعة من فقيد عزيز ٠

كدت أتبع الوالد وأخى حسنا سنة ١٩٣٥م ثم مَدّ الله فى الاجل ٠ وذلك أنه أقيم تأبين لشيخنا الفكى عبد الله النقر ٠ وقد توفى عن خمس وتسعين سنة ٠ وبدأ الخطابة شيخ جلال ببيان واضح وسجع وتفصيل ٠ وأتبعه سائر المؤبنين ٠ وأنشدت قصيدة همزية بصوت جهير وأداء قوى وثقة نفس :

لقد كنتم خريفا للبرايا ... اذا ما كان صيفٌ أو شتاء

وجدنا جلال الدين ، أبو الوالدة ـ وهو أيضا عم الوالد ـ قرأ على محمد الخير شيخ المهدى عليه السلام •

ولم يكن الوالد رحمه الله ذا هوى فى الأنصار ، كان ضلعه الى « السادة » بلا ريب • واذا قالت الجدة « السادة » فلم يكن لذلك معنى الا المراغنة السيد أحمد والسيد على والسيد الحسن « أب جلابية نور » •

واعلم أصلحك الله أن العين حق • « تُدخِل الجَملَ القِدْرَ والرجلَ القَبر » وكان الوالد رحمه الله شديد الخوف من العين • وكان اذا أخذنى معه يكثر من الاستعاذة يخاف على العين • وقالوا نفذت فيه هو العين •

أذكر أنه كانت لى منذ عهد غير جد بعيد سيارة مورس حمراء جديدة رشيقة المنظر من طراز ١١٠٠ • ووقفتها بالقرب من احدى عمارات الخرطوم • ونجم هينئذ شخص شديد بياض الثياب ، شديد سواد الوجه ، ونظر إلى والى سيارتى ـ الى سيارتى أكثر من نظره الى وقال يا دكتور تريد تبيع هذه العربية (أى السيارة) • واستغربت من سؤاله • ومضيت لسبيلى • وما مرت ساعة أو أقل حتى طارت حصاة فسقطت على زجاج المورس الامامى فصار كالرمل ولم أجد له بديلا الا بعد لأى ونصب •

والعين من اشعاعات الحسد وسهامه •

• • •

كانت وفاة حسن كارثة •

مر قريب من عام على وفاة حسن وتسليت كما يتسلى الناس • كان مكتوبا فى كراسة الخط أن المصائب تبدو كبيرة ثم تصير صغيرة • وتساءلت كيف كان ذلك • فضرب لى الشيخ بابكر عبد الله رحمه الله مثلا بمصيبة الوالد كيف كانت كبيرة شديدة علينا أول أمرها •

حضرت اخر مرض الوالد • وعلمت حين مات • وسرت وراء عنقريب الجنازة بعد أن شهدت الكفن والبُرود (الغسل) والحنوط • وكنت أبكى بصياح عال • لم يكن مصدر ذلك الحزن ولكن الحرص على ألا أرى مقصرا •

ونشرت القصيدة فى جريدة السودان الغراء لصاحبها الشيخ عبد الرحمن أحمد رحمه الله • كانت ظهرت ذلك العام • وكان يكتب فيها « طبجى » مقالته « فى الهدف » • وأحسسنا أن أركان الاستعمار قد أخذت تتزعزع • وظهرت جريدة النيل ومقالة : « كم هى غالية دموع الرجال » — وفى آخرها : «هنا ، هنا بكيت » • وتبعت ذلك مشادة من الصحفيين ونظرت الى القصيدة فى الجريدة وأعجبتنى غاية الاعجاب • كنت ابن أربع عشرة ، ظاهرة علىّ الحداثة •

وأصابتنى العين بعد ذلك الإنشاد فأحسست بوجع • ثم بحُمّى • ثم بغيبوبة • و أشفيت على الهلاك ومضت الايام والاسابيع — أربعة أو ثلاثة • وتكسّرت أى صرت كالمقعد فوق العنقريب لا أستطيع حراكا • ومرضتنى الوالدتان • ولم تنقطع عن العناية بى السيدة أم المهدى والهادى تحضر بالابريه الاحمر الذى كان هو غذائى أكثر مدة المرض ليس لى غيره من غذاء • ثم جاء الشفاء • وتحركت من العنقريب • أمشى حول العنقريب لا أعدو ذلك أول الامر • وجاءت بنت المزين فاستخرجت بالمص دما كثيرا من رقبتى • وكانت قد وضعت من قبل هناك ثلاث كيات تحيت القذال وضعتها بت حدّاد •

كان ذلك العام النهائى فى المدرسة الوسطى • ضاع نصفه الاهم مرضا • وما رجعت الى المدرسة حتى أصابتنى مضاعفات المرض ، أولها العُصْرَة أى الدسنتاريا • ورقدت فى المستشفى حينا • ثم سقط جميع شعرى فصار رأسى أصلع • فزعم بعض المدرسين أننى كنت مسرورا بذلك لانه يجعلنى من كبار الاذكياء أهل الصلعات • وفى فترة يسيرة استرددت الصحة • ولم أنتب من مواجهة العين التى « تُدخل الجمل القدر والرجل القبر » • ألقيت محاضرة عن المهدية بنادى الموظفين • كان ذلك أول السير فى الطريق الحلو العسر — طريق التدريس والادب « وكلٌ ميسر لما خُلِقَ له » كما قال لى أحد أساتذتى الاشياخ بعد ذلك بزمان •

كانت اللغة الانجليزية أهم دروس المدرسة الوسطى • وكانت شيئا جديدا للغاية • أذكر أوليات حصصها وكلام المدرس عن فعل الكينونة • لم أفهم شيئا من هذه الكينونة • لم أسمع بشىء اسمه فعل الكينونة • نعم ، كنت أعرف كان وأخواتها الكثيرات الصغيرات والكبيرات كما فى كتاب قواعد اللغة العربية لحفنى ناصف وأصحابه — كاد وكرب وأوشك واخلولق ورد وجعل — لكن فعل الكينونة — لا — ما هذا ؟

ونطق الحرف g كما فى اللغة العامية ونحن فى المدرسة • هذا عجيب • ينبغى أن نقول « قو » بالقاف كما فى اللغة الفصيحة • وكنت أقول بكل عناد وقوة رأس « آىْ قُو » • ثم أحسب أن فهمى للانجليزية جعل يستقيم • كنا نقرأ كتاب المطالعة المصرية وكتاب الترجمة لعبد الله العربى • وقد مر خبر أنه كان ناظرا لمدرسة أتبرا وأن أحد زملائه كان يعرض به ويقول العربى ثقيل — هذا من حكايات التلامذة • تأمل كيف ابتدأت مهاجمة العربى — أى اللسان العربى نحوه وصرفه وآدابه — فى الخيال ، خيال أبنائه ، دع سواهم ، منذ ذلك الزمان •

وحكايات الحيران فى الخلوة لعمرى أظرف من حكايات تلاميذ المدارس لسذاجتها وخلوها من روح المنافسة فى الوظيفة والتحكم الادارى والجاه الدنيوى البرجوازى الغريب الجليب •

يحكون أن أحد الحيران أخبر شيخه بأن هدية طعام جيد قد جاءت ، وكان ذلك الشيخ يريد أن يستأثر وحده بالهدية •

الحوار ، كأنه يطلب من شيخه الرمية : — سيدنا ، العمة مدينة جابت

قدحا كبيرا قالت تأكلونا

الشيخ على الفور كما يفعل الشيوخ فى الرمية :— جمعا شتّاً حتى يتفرقونا ويحكى أن أحد شيوخ الحيران المطاميس — أى غير الملتزمين بأسلوب الصلاح والتقوى — كان يشرب المريسة — وهى خمرة الذرة — ويعدها له أحد حيرانه العفاريت ويقعد للرمية ويقول :—

الحوار العفريت : سيدنا فارت وتدبدبت بأطرافها •

شـيخه المطموس : أضربها بسعن سعف فتحْلَى وتروق وتكون لـذة للشـاربين

وحكى لى الزميل الفاضل الاستاذ عبد القادر زمامة أستاذ الادب بالمغرب أن أسـلوب الرميـة المعمول به عندنا له مشـابه فى طريقة تعليم القرآن « بالفتيا » (١) التى كانت متبعة عندهم • يقول التلميذ مثلا نعماس (نعم ياسيدى) تبارك الذى بيـده الملك • الشـيخ : وهو على كل شىء قديـر •
ومما يجرى مجرى الفكاهة أن شـيخا كانت تخاط عنده الملابس فجاءه رجل لم تكن عنده الا جلابة (حلة) واحدة ليخيط مواضـع منهـا • فأعطاهـا تلميذا له فعكف عليها فلما فـرغ منها جاء فقال له على أسلوب التعلم :
التلميذ ، نعماس : الجلّابة وجدت هل أردها لمولاها • الشيخ ، : أسكت (بمد ضـمة الكاف) لعله ينسـاها أى هل أردُّ الحلة لصاحبها فأمره الشيخ أن يسكت أملاً أن ينساها صاحبها ، وكيف ينساها ولاحلة عنده غيرها •

مثل هذه النتف على عدم جديتها المطلق مما يصلح أن يرد به على ابن خلدون فى الذى زعمه أن حفظ القرآن لا تنشأ عنه ملكـة البيان فى الغالب لأن الناس مصروفون عن الإتيـان بمثله بالمعجـزة • هذه من أضعف النقط فى المقدمة لما فيها من السفسـطة ولها مشابه ليت ابن خلدون قد أعفى قلمه وقـراءه منها ، وقد كان رحمـه الله مزيجا فذّا من إصـابة الحجة وتدليسها بعض الاحيـان ولله در الحـريرى اذ يقـول :

منذا الذى ما سـاءَ قطُّ ومن له الحُسـنَى فقط

فى امتحان نصـف السـنة كان من ضـمن الاسئلة أن نصحح أخطاء • وكانت احدى الجمل I teached فحذفت الحـرفين الاخـيرين I teach ولما كنا نعرض أجوبتنا بعضنا لبعض خطّأنى الكبـار بأن الصـواب Taugth وصوبنى بعضهم ثم جاءت النتيجة ١٥٠ من ١٥٠ ـ كـان جـوابى صـوابا •

(١) بكسر الفاء والفعل افت (فعل الامر) والمراد سؤال الشيخ ان يملى فيملى •

كنت فى الكتاب قد قرأت من الدروس المدرسية كثيرا • كان تحصيلى فى الحساب ـ وهو أهم علوم المدرسة الاولية ـ الى حساب المائة • قال لى الوالد رحمه الله ان الكتاب التجاريين يقولون المابة (ميم فالف فياء فهاء) ذلك لهم عادة والصواب المئة فى النطق ميم مكسورة فهمزة مفتوحة وفى الخط الاملائى تزاد الالف هكذا ـ مائة • قرأت الى حساب المائة بنفسى من كتاب اللئالىء السنية وستة الالف مسألة حسابية • وفى العربى قرأت كل المقرر وزيادة • لذلك تفرغت لقراءة الانجليزى : كتاب عبد الله العربى ، المجموعة الوافية وقاموسها وفيه مثل : كرنب Cabbage

خس Lettuce ـ كنا أولاد بلد لا نعرف ما الكرنب وما الخس •

بالنسبة للمجموعة الوافية كانت هذه الكلمات مناسبة لان الكرنب والكرفس والكرنبيت كل هذه خضروات معروفة بمصر •

الجزر والبنجر وأخواتها انما عرفها المزارعون عندنا أيام الحرب ، حينما احتاجت قوات الحلفاء الى امدادات غذائية من قريب • وجاء مستر كروفورد مدير الشمالية وعلم الناس زراعة الخضر الافرنجية وزراعة القرين (القريبروت) وكان المزارعون يجيئون بخضرهم الى مخاذن المديرية وتوزن بسعر الكيلو ـ أو الاوقة ـ لا أذكر (الأوقة ٣٣ ١/٣ أوقية والرطل ١٢ أوقية والأوقية ١٢ درهما) •

وظهر قبل آخر سنتنا الاولى بالابتدائى (المدرسة الوسطى) كتاب دكتور مايكل وست فى كتبه (المطالعة بالطريقة الجديدة لافريقيا (The New Method African Readers) فرحنا بها جدا • قرأنا الكتاب الاول وملحقاته وكانت مبسطة ومعها قواميس • والنطق موضح بأرقام • الحركة فى The مثلا رقمها و وفى نحو bird و First رقمها و •••و ليتنا استمررنا بالطريقة القديمة وبعلامات النطق ذات المدلول العالمى فى اصطلاح الافرنج وبالتدرج القديم الذى كان يلح على الكلمات والقواعد التى قمتها الكتاب الجيد The English Idiom للاستاذ

براكنبرى Brackenbury • رأيته بعد دهر فى مصر فى شـقته بعمارة الاسماعيلية وهو شيخ هرم • كتابة الآن نادر الوجود •

قرأت كتب المطالعة المقررة كلها الى الخامس وملحقـات كثيرة حتى ملحق السنة الثانية أو الثالثة كل ذلك فى السـنة الاولى • قرأت ألف ليلة وليلـة • وأحب شىء الى قصـة بدور ابنـة الملك الغيـور وورق ألف ليلـة وليلـة الاصفر البراق والجنية والجنى كيف جاءا بقمـر الزمـان وبدور وجعـلا يوازنان بينهما أيهمـا أجمل • وقصة حسن البصرى والمجوسى البغيض • وحكايات السيرة وغزوة السيسـبان • وكان عند بشير (الاسـتـاذ بشـير مدنى) والدرديرى (الاستاذ أحمد مدنى رحمه الله) سيرة عنترة فقرأتها • وأنكر الان فى محـاولات القصـاص أن يكرروا شـخصية عنترة فى ابنـه الغضبان وفى أخيه شيبوب • وكنا أنا وبشـير والدرديرى رحمة الله عليه ، نتصـادف أيام العطلة لانهما كانا يقرآن فى بورسودان • ثم استمر لقاؤنا واصطحابنا فى العطلات بعد ذلك زمانا • وكان بشـير يجيد انشـاد

أرانى ما ذكرتُ لك الفِـراقا ودمعُكَ واقِفٌ الاّ هـراقا

أذكر مرة سهرنا ليلـة العيد بالزاوية بالفريع ـ كان ذلك آخـر عهـدى بالمديح وكلانا أنا وبشـير مدرسـان حينئذ ومدحنا الى طلوع الفجر :

نبىٌّ أنزل الرحمـٰن فيه تبارك والضحىِ والانشـقاقا
عليك صـلاةُ ربِّك ما تبارت رياحُ الجوِّ تستبق استباقا

ثم لازمت صـلاة العيـد كلما أحضر بالغرب • وكان الامـام شـيخنا الفكى الحسين رحمه الله يعبر ليلة العيد وأعبر صباحا بعده فأدرك الصلاة • وكنـا أنا والشـيخ الجيلانى ، لما أم زمانا بعـد والده رحمـه الله ، نعبر صباحا معا كلما نتصـادف أيام العيد • ثم لما أم فكى أبشر رحمه الله عـاد الى العبـور ليلة العيد وكنت أعبر صباحا بعـده ولم انقطـع عن صـلاة العيد بالغرب أيام امامته ما أمكننى ذلك حتى اننى لقد حضرت مـرتين من كنـو • وقد توفى فى عقد الخمسين ، أسـكنه الله الجنة • قد كان رحمه الله الى منذ عهـد الصـبا من أحب النـاس •

قرأت مختصر حكايات شكسبير لشارلس لام Charles Lamb
وأعجبتنى جدا حكاية بروسبيرو وابنته ولعبها مع فردناند الشطرنج •
ولم أفهم مكبيث • وأعجبتنى حكاية اورلاندو ورزاليند • وكان التلاميذ
المتقدمون علينا يوازنون بين انشائى وانشاء أحد زملائى كان أكبر منى
سنا وأوعى بالدنيا وله أصحاب وعصبية وكان يقرأ النظرات والعبرات
ويمدح أسلوبهما ويستعمل عباراتهما من أمثال وتغشت جبينه سحابة من
الحزن • وكنت أكره النظرات والعبرات من أجل هذا المديح لهما ، مع انى
حفظت فى الكتاب قصيدة المنفلوطى :

إن أسماء فى الورى خير أنثى	صنعت فى الوداع خير صنيع
جاءها ابن الزبير يسحب درعا	تحت درع منسوجة من نجيع

لم يكن مصطفى المنفلوطى رحمه الله عندى بمجهول • ولكنى جهلته
منذ ذلك الزمان وأنا ابن احدى عشرة سنة الى عهد قريب • نظرت فى
كتاب النظرات من بعد وأعجبتنى قصة يوم القيامة المأخوذة من رسالة
الغفران • لم تسغ لى العبرات على كثرة ما أطنبوا فى حسن الثناء عليها •
وكأنه فى كل قصة يلزم الفتاة أن تحس جنى الحرام — الجنين على حد
تعبيره — يتحرك فى احشائها •

كان ذلك الزميل من خيرة التلاميذ ولكنها المنافسة •

وكان بيننا من الصداقة والمودة ما قد يتفق نحوه من التنافس •

وكان أحرص على منافستى منى على منافسته • ومرة ، فى ما بعد السنة
الأولى ، وضعت لنا مسابقة فى الانشاء • فكتب ما شاء من عبارات
جياد وخطه حسن رائق• وكتبت ما كتبته مسجوعا على طريقة : «أما الاخلاء
والصحب والسجراء » التى درسنا اياها الشيخ عبد العزيز عبد الله
من كتاب صهاريج اللؤلؤ • وكان يحرص على جمع درجات الامتحان ليتبيّن
طبيعة الفرق بينى وبينه • ومرة كان الفرق فى كل العلوم بدرجتين منى
زيادة على درجاته وفى الحساب فوق ذلك خمسين درجة • واذن ففوتى

له قد كان فقط فى الحساب ، كأن الدرجتين لاشىء • كان الحساب انئذ يسمى «طَقّش العشرين» • وذلك أن امتحان الحساب كان من خمس مسائل ودرجته الكاملة مائة درجـــة ولكل مسألة عشرون درجة • فاذا حللت الخمس وأخطأ منافســك فى واحــدة « طقشــته » بعشرين درجة واذا أخطــأ فى أثنتـين طقشته بأربعين درجـــة • وقد يعطى نصــف الدرجات أحيانا لطريقة الحل فتطقشــه بعشــر وبثــلاثين وبخمســين •

وعينونى الأَلْفَــة لأنى كنت الأول • ولكنى كنت صــغيرا ما جاوزت عشرة أعــوام الا بقليل مُفْرَداً حَاداً • ذلك كان أول الســنة الثانية قبل وفاة الوالد رحمه الله • ثم جاء ضــابط المدرســة وأنزلنى بغلظة من الالفوية وأعطاها منافسى • وعرفت ألوانا من الشــماتة حينئذ • ولكنى حقاً لم أكن أبــالى بأن أكون ألفــة • « ألفــة » أى رئيس الفصل (الصف) — Prefect

ومــرة — وهذا فى السنة الرابعــة وهى الســنة النهائية وبعدها التجهيزى لمن ينتخبون له بعد امتحانه الكبير — وقف منافسى وقال انه حلم بأنــه رأى الشــيخ عبد القادر الجيلانى وقال له أنت أول اللجنــة — هكذا كان يسمى امتحان دخول التجهيزى الكبير — أى الاول من بين كل الممتحنين من القطر أجمعــه المتنافســين من أجل دخول التجهيزى — الكلية — كلية غوردن — بالخرطوم ، وأنه رأى فى المنــام أنه خنق شــخصا ينافسه على الأوليــة خَنْقَةً واحدة • وكان ظاهرا أننى أنا المقصــود • وأكد له المدرس ، يجامله ، أنه صالح والأولياء كشــفوا له وأنه ســيكون الأول بدون شك — والمخنوق عــدوه • واغتظت جــداً • ولم أخف من حلمه هذا الذى كان يراد بحكايته هكذا تحطيم أعصــابى ، مع شــدة اعتقادى فى الأولياء • وذلك لاننى كنت اعتقد أن الاوليــاء فى جانبى على رأســهم أبى والشيخ المجذوب ومــوسى الغرب ورجال الجبانة الطاهرة وغير معقول أن ينحاز الشــيخ عبد القــادر الجيــلانى الى غــير جــانب هــؤلاء •
أنشد منافسى متقمصــا شخصية الشيخ عبــد القادر الجيــلانى قــوله

المنسـوب اليـه :

أنا الجيلى محيى الدين اسمى وأقـدامى على عُنْق الرجال

ورنت فى أذنى :

كلبلكَلْ كلبلْكل كلبّلْكل كَلُبلكَلْ

الجيلى القايـد وشى لله ياب فَخْراً زايد

لا إلاه إلا الله ... لا إلا ..... ها إلا الله

يـا سـيفى ال بيـك بعَـارض

وبَقْطَـعْ بيك رأس المتعارض

(أى يا سيفى الذى به أعارض الاعداء وأقطع رأس من يتعرض لى بالمكروه)

لا الاه الا اللـه كلبلكل كلبلكل

نادِ الأَشـقر نادِ الاشـقر (أى الشيخ الجعلى بكدباس)

والغُبش ال سـكونكم بـربر

لا إلاه إلا اللـه

(الغبش بنو الاغبش أهل علم وقرآن وصـلاح منهم عبد الماجد ود حمـد رضى الله عنـه وحكايات ولايتـه معـروفة)

ويـا الميـدوب ال مـا بتـعضَّرْ

ال ما بينـا تجييـوه مَكنقَـرْ

يا الميدوب أى يا شيخنا المجذوب بقلب الجيم ياء . ال . الذى . ما بتعضر ، أى لا يتعذر بالمعاذير (بقلب الذال ضادا) ولكن يستجيب ملبيا مسـرعا . ال ما بينا أى (الذى يا بانا ـ أى الذى هو آبينا وما زائدة ـ أى من يأبنـا ويكـرهنا ويكـد لنا فجيئـوا بـه معطـوبا متدهديـا . مكنقـر صوت انهيـاره وتدهديـه) .

وحميـت واسـنحفرت :

ـ فنـدى ، فنـدى ، فنـدى .

ولكن المدرس آثر أن يأخذ فى باب آخر . وضرب الجرس .

الجرس هجوم تبشيرى على الاســلام بدون شك • وليت شوقيا رحمــه الله تنبه لهذا المعنى فى قصيدته البائية الرائعة التى يقول فيها :

لهم جَـرَسٌ مُطرِبٌ فى السَّرَاحِ ... وَلَيْسَ إذا جـدَّ بالمُطْـرِب

وأولهــا :

ألا حبذا صــحبة المكتبِ ... وأحبب بأيّامــه أحْبِب

ويا حَبّذا صِـبْيَةٌ يلعبــون ... عنانُ الحياةِ عليهم صـبى

ثم يقــول :

وكم منجب فى تلقى الــدروس ... تلقى الحيــاة فلم يُنجب

يا للمأســاة •

كانت الخلــوة أرحــم •

وكان مولانا محمد الهادى بن الشــيخ جــلال (وكان آنئــذ فى قســم القضاة فى التجهيزى) يقص من خبر الشيخ الطيب السراج الذى صــورته فى كتاب شــعراء السودان وتحتهــا :ـ

هذِهِ قَومُ صُــورَتى ... وَهِىَ عنــوانُ هِمَّــتى

فازَ من همّـــه التقى ... والتُّقىَ الدفــع بالتى

كان يركب حصــانا أسود نبيلا • رأيته يروضــه على شــاطىء النيــل بشــارع البحر بالخرطوم من شباك السنة الثالثة أو الســنة الرابعة بكلية غوَرْدن • قالوا كان يقحمــه قفزا على معدية شَنْبات (شمبات) أيام كــان يعمل كاتبا بمصــلحة الوابورات بالخرطوم بحرى : ويقول أعلمه القفــز على الاســاطيل • وحاكى الشيخ محمد الهادى طريقة انشــاده وأعجبتنى حماســتها وأعجبت به وبطريقته علىٰ هذا الســماع ••• هذا قبل أن أراه على الصــورة التى نعتها وقبل أن ألقــاه من بعد تغير ناظر المدرسة وضابط الداخليــة وكان يشجعنى على قراءة الكتب الانجليــزية ويختار العبــارات الجيــدة فأحفظهــا مثل : The very sunshine of my life

كان ضابط الداخلية الجديد شديدا • يضرب بلا رحمـة ويوبخ باسراف • ولكنـه كان يسـخو سـخاء عجيبـا فى التدريس وخطـه على السـبورة جميل يراعى فيه القواعد • وسـأل مرة عن سـبب تأخر مغيب الشـمس بالقاهرة فى ذلك الوقت من السـنة عنه فى الخرطوم مـع أن القاهـرة الى الشرق أقـرب من الخرطوم • وأجبت بأن الكرة الارضـية أوسـع بطنـا عند خط الاسـتواء وتنحدر نحو القطبين ففى الصـيف يستمـر شـعاع الشـمس فى المناطق الواقعة شمال مدار السرطان مـدى أطـول • ولـم يكن يتوقع جوابا من هذا النوع • فسر به وجعل يشرح •

كنا فى المدرسـة الوسطى ندرس قدرا عظيما من الجغرافيا • كنـا فى المدرسـة الأولية ندرس عن السـودان وعن انجلتـرا • نحفظ مديريـات السودان وقبائله • واستزدت من تقويم السودان الذى كان عند أبى فقرأت عن الاحـواض وعن البعوض والملاريا • وكنا درسـنا فى حصة الاشـياء عن الأمراض ، وعن السـل وهو مخيف • أمـراض الحيـوان ، أب نِينِى والنجمـة • كنت أحس فى نفسى الرحمة للخيل ــ الخيل النبيلة ذات الصهيل النبيل ــ التى يصـيبها مرض النجمـة فتنتظر وترفـع رأسـها ويسـيل اللعاب والمخاط منها وتموت • وفى المدرسـة الوسـطى كان مقررا علينـا جغرافية مصر والعالم أجمـع بدءا بالاقاليم • ثم ندرس عن التقسـيمات السياسـية وعن المـدن الكبيرة • كنتون وشـنغهاى ومرو وخيوه وافيون قره حصار وازمير وفينا وريودجانيرو وبنارس والله أباد وكابل • كنت أقرأ كتب الجغرافية بشـغف وكتاب أحمد حافظ بوجه خـاص • وكانت خطوط الطول والعرض متعـة ــ مسائلها ورسمها • وما زدنا فى المدرسة الثانوية ، التجهيـزى ، على ما درسناه فى الوسـطى شيئا الا « الكنتور » • وحاول مدرس الجغرافية الثانوى تفهيمنا مسألة « ايسـوثيرم » و « ايسـوبار » فما أفلح • وما أصبنا فهم شىء مفيـد الا من المستر هانكس فى السـنتين الاخيرتين ، وكان يرسم على السـبورة وقد يلوِّن ولا يألو جهدا • وصـار

الى بخت الرضا (معهد التربية) وبلغنى انه لم يطب له العمل بها وكـانت تلك أيام المستر غريفث وقد أصـاب التعليم منه خلط عظيم •

ذلك بأنه ــ أى المستر غريفث ــ فطن الى أن تعليم مدارسهم مما يبتعد بالتلاميـذ عن واقع بيئتهم • وخيل اليه أن تلافى هذا النقص ممكن باعـداد منهج من التربية الخلقية على أساس الشـعور بالمسئولية الوطنية • مدلول الوطنيـة عنده كان أنه يجب على السـودانى التلميذ أن يتعلم فى ما يتعلمه أن عليه واجبا ينبغى أن يؤديه نحو محمد أحمد دافع الضرائب • محمد أحمد هذا اسم جعله رمزاً لأفـراد أبناء البلد (The Natives) دافعى الضرائب وسوادهم الاعظم أميون غـير ذوى أدنى حظ من تعليـم المدارس • الذى يدخل المدرسـة يحصل على امتياز ينبغى أن يؤدى ثمنـه شعورا بالواجب ــ هذا الواجب نحو محمد أحمد يتمثل فى الخصال الحميدة التى تمكن من أدائه نحو الولاء والمبادرة والحـزم والتخشـن وهذه ينبغى أن تغـرس ويراقب نماؤها من طـريق منهـج التعليم •

غاب من المسـتر غريفث أن مناهـج التعليم التى يقصـد منها تقـوية جانب أو جوانب من التربية الخلقية ينبغى فى المكان الاول أن يكون أساسها مسـتندا على قـدر من روح المجتمع وعرفه وقيمه وعقيدته •

ثم غاب من المستر غريفث أيضا أن الحاكم الاجنبى الذى يتغلب على بلد مهما يبغ أو يبلغ من حسن النية عدو محذور • وانك لا تجنى من الشـوك العنب • ثم لم يخل المستر غريفث فى اختياره اسم « محمد أحمد » رمـزا لدافع الضرائب السـودانى من نوع استخفاف وتهاون بوطنية السودانيين ودينهم ، اذ « محمد أحمد المهدى » اسـم الزعيم الدينى الذى قد كان نهض بهم فثاروا فهزموا عسكر الخديوى وكسروا مربع الجيش البريطانى وقطعوا رأس غـوردن •

◆◆◆◆ ◆◆◆◆

لفتت أسـتاذنا الهادى « أبو بكر » اسحق طريقة انشـادى :

حكم سـيوفك فى رقاب العـدلِ واذا نزلت بدار ذلٍ فارحل

وكان له أصحاب من الافندية أذكياء أذكر منهم الاستاذ حسن أحمد عثمان (الكِد) رحمه الله • وسألونى عن قراءتى فذكرت مختارات البارودى والبيان والتبيين والكامل والسير والاخبار وكرامات الاولياء وجغرافية أحمد حافظ وفوضى من الكتب • واقترح الاستاذ الهادى على قراءة طه حسين (رحمه الله) • وأعارنى « على هامش السيرة » • وجدته ساحرا ملك علىَّ أقطار نفسى • الآن وجدت عصا موسى التى ستلقف ما يأفكون ، ثعابين المنفلوطى ــ النظرات ــ العبرات ــ الفضيلة ــ وأحسست بالجنين يضطرب فى احشائها •

كَتبتُ فى امتحان نصف السنة موضوع الانشاء على طريقة طه حسين • وسألنى أستاذنا الهادى أبو بكر وزملاؤه عن عملى فى الانشاء وكنت قد احتفظت بالمسودة فقرأتها عليهم • وتعجبوا • مثل أسلوب طه حسين تماما ••• ثم استدركوا وانتقدوا السجعة : « ارتياح الثرى للندى والكريم للجدا » أو شيئا من هذا القبيل • قالوا أسلوب الاملاء والالفات اللينة • وأسررت لهم بحب ايقاع الشعر والقوافى عدم موافقة عميقا •

كانت جريدة الجهاد تجىء الى ضابط الداخلية وجرائد أخر • وكنت أقرأها بنهم • وحديث الاربعاء ــ ساعة مع طرفة ــ ساعة مع المثقب ــ ومقالات توفيق دياب ••

كان الاخ الأديب حسن مجذوب الوقيع ذا معرفة واسعة بالجرائد أوسع من معرفتى الحديثة العهد بكثير وكان فى دفعة وراءنا • من طريقه عرفت كوكب الشرق والبلاغ والأهرام ــ (كنت أكره الاهرام) ــ واللطائف المصورة وحبيب جاماتى • أسلوب فكرى أباظة لا يعجبنى • وكان حسن مجذوب يعرف السياسة المصرية •

ــ النحاس ــ صدقى ــ محمد محمود ــ حمد الباسل •

قرأت كتاب تأريخ الحركة القومية بانتباه واقبال شديد وعلق منه فى نفسى شىء كثير : محو بك • أحمد باشا أبو ودان • جعفر مظهر باشا ــ

ابراهيم باشا وحروبه فى تركيا واليونـان • حروبه فى الجـزيرة العربية •
لما زرت مدينـة الرياض وأرونى مكان وضع ابرهيم باشا مدافعه وضـرب
الدرعيـة ــ قالوا وانما دله خائن على المكان الوحيد الذى يمكنه منه ضرب
الدرعيـة ــ تذكرت تأريخ الرافعى •• " تأريخ الحركـة القومية فى مصر " •
وقـرأت كتـاب نعـوم شـقير •

ولا أدرى كيف نشأت فكرة القاء محاضرة بالنادى •••نادى الموظفين •
وحاضرت مدى سـاعة • وحاضرت ارتجالا لا أقرأ من الورق • وحاضرت
بالعربية الفصـيحة لا أَمْتَ ولا عِـوَج •

قالوا وزعم بعض المسـئولين أن ذلك كان مجازفـة خاطئة لان أهل المدينة
أنصـار والمحاضرة كان فيهـا تحامل على المهـدية •

يا للباطل الحنبريت • كان أهل المدينـة الذين حضروا أكثر الناس سرورا
بما سـمعوا وأعظمهم رضا • أعجبتهم فصـاحة الولد الصـغير وجـراءة
قلبه •واعتزوا بها كل اعتزاز • أحسست ذلك فى نظراتهم وصفقة تشجيعهم •
بعض المسـئولين ••••

نشـبت الحـرب الايطـالية الحبشـية •

مسـاكين •

مسـكينات بنادق الحبش ومدافعهم ومجهودات المتطوعين القلة الذين
وقفوا الى جانبهم ، الى جانب الحق المهيض • ما كنت أحب هيلاسلاسى لانه
اغتصـب عرش منليك • ولكن الكارثـة وحـدت الرؤوس •

جاء دى بونو وأجناده وصـورته ذات اللحيـة المحددة وتلكأ دهـرا • ثم
جاء بادوليو • ونقـرأ عن قجام والدنـاكل وأمبـا ألاجى • كنت اتعصب
للحبش كنت مقاتلا بروحى فى صفوفهم • وكانت جريدة مانشستر غارديان
تجىء للداخلية فجسرت واطلعت عليها وحذقت تهجية أسـماء مواضـع
المعـارك والقواد ورتباتهم ولأول مـرة سمعنا الراديو •

وسنرى السينما • ستجىء السـينما للخرطوم فنراها • الراديو اخترعه ماركونى الطليانى • الكهرباء توماس ألفا أديسون ، أعنى مصباح الكهرباء • القطـار جـورج ستيفنسـون •

قال لى الاسـتاذ البروفسـور الفاضـل وأنا طالب للدراسـات العليـا بانجلترى : « انهم ظلموا فتانا الذى اخترع اللاسلك وزعمـوا أن ذلك عمل ماركـونى • الحق أن السـبق كـان لفتىً منـا » •

وقرأنا فى مجلة كلية غوردن : « وداعا يا سينما سكيتنج ومرحبا ياسينما كوليـزيوم » • لبِّث قليلا ينزل الهيجا حمل

وجاءت مجلة الفجر ولا أدرى لمـاذا كرهتها نفسى ،أدرى ! •• لانها كانت مع النظـرات والعبرات وأحست بالجنين يتحرك فى أحشائها •

آفة الرأى الهـوى • الرأى نائم والهـوى يقظـان •

نفس شعور الاحساس بالانتقال (بأنا فى فترة انتقال) الذى اعترانى وأنا استمع لأول مرة أخبار لندن عن الحبشة هو الذى أحسسته وأنا أشهد فيلم Treasure Island بكوليـزيوم وفكرة أن نركب الطيارة العام المقبل لأول مرة ــ هذا بعد أن سافرنا لانجلترا (١) بوابور البحر ومضى علينـا عـام ونصـف هنـاك •

وحاولت أن أقـرأ بالانجليزية قصة كبيرة (٢) : Novel فوجدتها عسيرة وهى قصـة The Man Who almost Lost • وفيهـا التعبير To play abad hand well وحسب المدرس أنه من لعبة التنس وهو من لعبات الـورق ، ولم يكن لعب الـورق آنئـذ قد تفشَّى تَفَشِّـيَهُ اليوم • ويقولون الآن لتوزيعة الورق «يد» و «إيده كويسـه » و (إيـده بطالة) وكلتا كويسة و بطالة ليستا من أصـل الدارجة السودانية فى شىء ، وانما كنا نقول «سَـمِحْ» و «كَعَبْ» • وكنت استغرب لقولهم الكعبة يعنون بيت الله الحـرام ، كيف يكون بيت الله كعبة ؟ فيقولون «الكعبة المشرفـة»

---

(١) كان ذلك فى اغسطس سنة ١٩٤٥ (٢) هذا فى سنـة ١٩٣٥ .

يجعلون المشرفة بمنزلة النفى للكُعُوبّية ــ أى القبح • وقد تبين لى أخيرا أن الكلمتين مختلفتان وأن « كعب » أى قبيح أصلها من طريقتنا فى قلب الهمزة عينا كما نقــول سَــعَلَ فى سَــأَلَ والقُرْعــان فى القــرآن •

يحكى أن رجلا قال لجاريته خــذى ولــدى هذا الى شيخ الخلوة وقولى له أبوه « بقول ليك ، انت ليك اللحم ولينا العضم » أى أن أباه يخول لك أن تضربه على جلده كيف تشــاء فقط لاتكسرن له عظما • قالوا فأخذت الجارية الغلام الى شيخ الخلوة ولما سألها ماذا قال أبوه قالت له : قال لك أبوه : « دُقّه ان كضب (أى أضربه ان كذب) وعلّمه الأدب • أمّا القرعان ، قسمة من الرحمان » ــ أى القرآن حفظه هبة من الله فلا تضربــه من أجل ذلك • ولايخفى أن الجارية بحديثها هذا كانت أجــود فهمــا وأبلغ مقالا وأخبــر بأصــول التربيــة من ســيدها •

هذا •• فكلمة كَعَبْ أصــلها كأَبْ أى كَأَب تحركت الهمزة الساكنــة ثــم قلبت عينا أو قلبت عينا ثم تحركت • والكأب الفم ومنــه الكئيب والكآبــة فكلمتنا الكعوبية معناها الكآبة أو الكآبيّة بالنســبة اليها • واما الكعبــة البيت الحرام فاشــتقاقها من التكعيب وذلك انها بنــاء مربع • ويقــال للجارية اذا تربع ثديها ونهض واستدار كاعب وذلك انما يكــون عند ريعان الشــباب •

أول حصــة حضرناها فى الابتدائى كانت فى العربى وجاء مدرس مسحنفر الوجــه كبير الصــوت مصرى المخــارج وأمــلانا :

أطــع الاله كما أمَــرْ	وامــلأ فــؤادك بالحَــذَر
الــدينُ لا تلعَبْ بــه	لعب الصّــوالج بالأُكــر

أخذنا هذه المحفوظة من قبل فى الكُتّاب وكتبوها لنا على السبورة وحفظتها

وما أعجبتنى . قـرأنا فى الكتـاب :

لا يبلغ المَجد من لم يركب الخَطَرا ولا ينال العُلَى من قدَّم الحذرا
ومن أراد العلى عَفْوا بلا تعبٍ قَضَى ولم يَقْضِ من أسبابها وطرا

كان المدرس يكبـر الراء جدا ... أَمَـرْرَرْ ... بالحَـذَرْرَرْ ... ولـم تعجبنى طـريقة القائـه

أطع الالاه كمـا أمـررر وأمـلأ فـؤادك بالحـذررر

ولم تعجبنى المحفوظة وكانت لا تعجبنى . كانت خيبة أمل . والآن ــ بعد ذلك الدهـر الطـويل ــ لا تعجبنى

الدين لا تلعبْ بـه لعِبَ الصـوالج بالاكَـرْ رْرْرْ

والصوالج بالاكر كانت شيئا لا أعرفه . وأقرب أمر اليه شاهدته لما جـاء أحد المدرسين السودانيين من بيروت ونحن فى التجهيزى وأدخل لعبة الهوكى وولدت ميتة . والبولو أيضا كانت لعبة صـوالج وأكر ولم أرهـا . كانـوا يلعبونها فى المكان الفسيح جنوب السكة حديد حيث الآن مـوقف البصـات المقابل للمنطقة الصناعيـة بالخرطوم . والكريكيت لعبة صـوالج واستمر الانجليز يلعبونها والسودانيون لا يفهمونها ، لايريدون أن يفهموها . فقط لعبة الروندز « Rounders » كانت مفهومة ولعبناها فى الكتاب وفى المدرسـة الوسطى ثم اختفت . ومرة ضربت ضربا شديدا عليهـا فى الكتاب وانا ابـن تسع والمدرس الذى ضربنى أراد أن يغيظ الوالد وشـعرت بذلـك ووقفت للضرب مثل الحمار وجعل يقول لى «أجرى أجرى». تكررت نفس القصة معى فى الثانوية فى المباريات التى كانت تعقد للرياضة البدنية . « سَبَق المائة ياردة » « نط الحواجز » « جر الحبل » (ربع الميل) ــ انتقد رئيس المشرفين The Senior Tutor جريى وحثنى لاسرع وأحسبنى تعاندت . فلحقنى بعـود البيرق الذى كان مغزوزا فى طـرف الميدان وضربنى : run-run وأبيت ووقفت

مثل الحمار وصاح بى رؤساء الكلية اشفاقا اجر ، اجـــر ـ فجريت وجعــل يغايظنى أحد الزملاء ويقول لى بمرارة ضربوك مثل الحمار •

كنت أحبُ الشعر من أيام الكتّاب ونظمت قصيدة باللغة الدارجة بمعاونة فكى الطاهر ود بابكر رحمه الله هو ينظم بيتا وأنا انظم بيتا وبعدما أتممناها حبرناها على الورق وكتبنا صلاتها فى أولها ولكنا ألفناها فى الاخر •

يا ربِّ يا ربِّى   صلِّى على النبى   ياربّ ياربِّى

وكنا ونحن تلاميذ فى داخلية المدرسة الوسطى من بعد نتآنس بالاعراب وبيت زهـــير :

ومهما تكن عند أمرىءٍ من خليقةٍ   وان خالها تَخْفَى على الناسِ تُعْلَمِ

كان رئيس بيوتِ الإعراب • أما كون «من» زائدة فهذه نكتة البيت الواضحة بقيت (إن) فى عجز البيت زائدة والواو واو الحال • يا ولد ! حرف شــرط جازم والجواب محذوف ، تقدّم ـ ظاهر •

وكنا مولعين بالمساجلة ، ننقسم فريقين وآخر البيت يرد عليه الفريق الآخر ببيت يبتدىء به ، مثـــلا :

حصانى كان دلّال المنايا   فخاض غمارها وشَرَى وباعا

الرد عليـــه :

علينا البَيْضُ واليَلَبُ اليمانى   وأسيافٌ يَقُمْنَ وينحنينا

وكان التلاميذ الكبار يشتركون أحيانا فى المساجلة ويعاونون وكان يسودها روح طيب • وعنصر الاعجاب والاستحسان للحفظ الجيد وسرعة البديهــة كان أكثر من عنصر الغيرة والتهافت على طلب الانتصار • وبالتدريج انحسر عنا حب هذا النوع من المساجلة • تجاوزنا روح سماحته وسذاجته •

كان المفتشون يحضرون كثيرا

مرة يجىء مفتش واحد ومعه دفتر ويدخل فى الفصل • ويقول المدرس لنا « قيام » فنقوم «جلوس» فنقعد • ومرةً يجىء فريقان للمفتشين ـ مفتشو

العربية والدين ومفتشو سواهما من العلـوم وجماعة من المفتشـين كانوا معروفين جـدا مثل الشيخ عمر اسـحق والشيخ كمال الدين عباس • وكان أحيانا يجىء مفتشون انجليز مثل المستر ايليوت والمستر سكوت والمسـتر غريفث • وكان يسيطر على المدرسة من حضور المفتشين جو اهتمام خاص• كان فى الفصـل المفتش •

وكتب المدرس على السبورة أو تكلم ثم كتب • وقع خطأ منه لاريب فيـه لعل المفتش نفسه لم يفطن له وفطن له التلميذ الصغير ــ فندى فندى فندى ــ مزعج ، اسكت يا ولد ــ أقعـد يا ولد •

كان المدرس انما يهمه فى حضرة المفتش حفظ النظـام • وهذا تشويش • وما خطر بباله أنه أخطأ • وتنبه المفتش وشعر بحرج شديد وتدخل بلباقة وانحلت الزوبعـة •

ولم يتب التلميذ الصغير من الطيش الأرعن المزعج عندما صـار الى كلية غردون ذات المرحلة الخطـرة • وخالطت سذاجة الطيش الناشىء القديـم فردية ناشئة جديدة لا تخلو من نوع غرور • وقد كان الغرور من الخطايـا التى لا تغفر •

Very conceited ، معناهـا تقريبا لا يعمل فى الحكومـة « لا يـوثق به »

يعاكس • يحطم • — Sir,Sir,Sir

حلـت هذه ال Sir محـل :

ــ فندى فندى التى كانت فى المدرسـة الوسـطى •

على أن « فندى » هذه لم يذهب استعمالها مرة واحدة •

كان الدرس عن المنظار الفلكى « التلسكوب » • رسم المدرس وشرح على السبورة ومسح الرسم ثم أعاده • كان الظل بعد نقطة التقاء الاشـعة التى تجتاز العدسـة The Principal Focus

كان الدرس بالانجليزية . وكان التلميذ واثقا أن المدرس أخطأ اذالظل يكون اذا خياليا والذى بيديه التلسكوب بحقيقى الظل . الظل الخيالى هو الذى فى المِجْهر الطبى وفى المرآة .
— Sir, Sir, Sir

وغلظ المدرس عليه وزجره بغضب وانفعال . والتفت اليه بعض زملائه بعض كثير ـ بنظرات تعكس غضب المدرس . لا يعقل أنهم لم يفطنوا للخطأ لايمكن أن يكون الظل حقيقيا بعد النقطة الرئيسية . ولكننا الآن تجاوزنا مرحلة المدرسة الوسطى ووحشية الذكاء المندفع « فندى فندى فندى » الآن الحذر والتروى على أحسن تقدير . انتهازية خوف إغضاب المدرس . خوفُ التقارير . انتهازية التزلف . تعقّد الأمر . داخلت الزملاء روح التواء . أنانية وعدم مودة . بعد ما بين القلوب . كتبوا الخطأ بقلوبٍ غلاظٍ .

— Sir, Sir, Sir

لم يبال المغرور ، صاحب الفرديّة الرعناء بانفعالة غضب المدرس الظاهرة . وأيضا هذه المرة كان فى الفصلِ مفتشٌ . وكان قابعا بعيدا وراء . وهو لم يكن يعلم بوجوده . الذين نظروا اليه صافِّين مع غضب المدرس كانوا يعلمون أنه موجود . والمدرس كذلك . وانتهر المدرس : Get out أى أخرجْ . وساد سكون . ووقف يلمُّ شعثه الكثير . الكراسة المبعثرة . القلم . — Get out

ولم يملك المفتش أن اندفع من مخبأه فى أُخريات الفصل الى السبورة . وبانفعالٍ قال : اظن أن التلميذ مصيب . ماذا تريد أن تقول ؟

انتصر الملعون المغرور الصغير . هكذا كانت تقول روح الساعة ـ تلك الساعة المفاجئة المفعمة بشحنة الانفعالات والتوتر . وشرح التلميذ نظرية التلسكوب وأن الظلّ الذى على السبورة خيالى . وتصبب المفتش الشجاع عرقا . خالف قواعد التفتيش وكان على ألّا يخالفها حريصا . وكان المدرس معروفا بالجد والحزم والمحافظة على الواجب .

لم يرتح الى ذلك التلميذ الشاذ من أول يوم . بدرت بوادر تدلُّ على عدم ارتياحه هذا وأحسها الولد الحساس وأضمر عليها ثورة . والأرواح

جنود مجندة ، ما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف • وكان أَمْرُ اللهِ قدراً مقدورا • كان موقف ذلك اليوم من الحتميات التى انما توجد نظائرها فى مأساة اليونان القدماء • الحتميّات التى تسبب العداوات التى لا هوادة فيها ولا بُقْيا •

كان المدرس محترماً • من خيرة الاساتذة وأكثرهم اخلاصاً وعناية بالدقة والانصاف • وليت أن صاحبنا الصغير الشاذ فهم بيت زهير :

ومن لم يُصانِعْ فى أمورٍ كثيرةٍ يُضَرَّسْ بأنيابٍ ويوطأْ بمنسم

فهما أكبر من أنه حكمة واستعارة تمثيلية وأن « من » اسم شرط جازم جزمت ههنا فعلين ، ويجوز فى «يوطأ» النصب والرفع والجزم وهنا الجزم لا غير لكيلا يكسر البيت • واذا لاستراح وأراح • فصل التجهيزى ليس لتلقى دروس الكتب ، حظه من ذلك قليل ، ولكن لتلقى دروس الحياة •

أعطاه المدرس تسعا وأربعين ونصفا من مائة فى الامتحان التجريبى • سقوط بنصف درجة • وروجعت الورقة فكانت درجتها فوق السبعين مع حرص المراجعة على الالتزام جانب التصحيح الأول •

ومرض المدرس وخيف عليه الموت وعاده كل التلاميذ وكان ينبغى عليه هو أن يعوده أيضا ، وقال له زملاؤه فى ذلك وأصدقاؤه منهم خاصة • وأبى • نفرت نفسه من ذلك نفورا • أراد ليشعر مدرسه فى ساعة ضعفه أنه هو أيضا غير راضٍ عنه • ياللغرور • يا للجهل المثبور • وسأل المدرس عنه وتألم لغيابه وكرهه بلا ريب •

ثم التقيا بعد زمان طويل فى ظروف العمل • لا زالت ثمَّ بقايا عدم الارتياح القديم • ولكن أحس من جانبه رقةَ أسىً • أحسا معارقة أسىً وذكّرى أشباحِ ندم • الجد والحزم والمحافظة على الواجب • لعلهما فى هذا مشتركان •

كانت الدنيا شــتاء . وكان البرد شديدا . لم يكن أشدَّ من برد مقرات . أول ما جئنــا مقرات كان فيها شيء يقال لــه « الكُنتَيْبْ » والكلمــة غــير عربيــة ـ فسألنا عن معناها فقالوا : لانه « يكنتب فى جادك » . والكنتيب ضَرْبٌ من الطير مثل البعوض ، خبيث اللســعة ، يخرج معها دَمٌ يســتدير نقطة حمراء كما لو طعنك حكيم بالابرة فى اصــبعك لاختبار دمك . كان ذلك الكنتيبُ يأكل ساقَيَّ أكلا ذريعا فكنت امسحها بصــابون الفنيك أدهنها بــه دهانا فيخترق بإبرة فمه غِشاءَ الصابون الذى كان كثيفا على ساقى . وكنت أبكى منه وكان فى مقرات القَشَفُ المؤلم يشقق منه الجلد بعــد أن ينشــف كذلك الآن يشــقق الجلــد من القشــف .

كنا شديدى الشعور بالبرد اذ نحن صغار . كانت ملابس الصوف شيئــاً نادراً . واشترى لى الوالد فنلة صوف لها رقبة . الى الآن كلما أرى فَنِلّة صوف برقبة على احد الناس أحسِبُه ولدا صغيرا . كانت البطاطين الصوف عزيزة كان من تَرفِ الداخلية أن لكل تلميذ بطانتين احداهمــا يفرشــها والأخــرى يتغطى بها وكانت بطانية الداخلية سوداء من عهدة « المخازن والاســلحة » التى طلب كتشنر عيناتها لعسكره أول أيام الفتــوح .

كانت البطاطين من أدوات النعمة والخفض . أكثر ما كان عند المستطيعين البطاطينُ الحُمر القطنية تقليد الصوف . البطانية الصوف الحمراء الاصلية كانت ذات شخصية ، ذات اشعار بوجود الثروة والجاه عند صاحبها ، مثــل العباءة والفروة والحمار الفاره والسجّادة الحُرّة .

لما كتب مدرس الانجليزى على السبورة آيم هوت I am hot سألناه عن معناها . فقال معناها : « أنا حرّان » وسأله بعضنا : ما معنى أناحران ؟ كنا لا نستطيع أن نفهم معنى « حران » هذه . انما كنا نفهم معنى : « أنا بْردان » .

كان الناس يؤذيهم البرد فاذا رأوا الصغار نشطين حسبوا أنهم فى حــال دفء طبيعى . وكانوا يقولون لنا على وجه الممازحة والمكاواة أن الصــغار

لايبردون • ولكن نحن الصــغار نبرد ، نبرد ، • وكبرنا وصــرنا أفندية من بعــد • وفهمنا معنى حران وصرنا لا نبرد • وصرنا لا نســتطيع القعود فى المكاتب ، وهى محل العمل ، الا بالمكيفات • ولا فى البيوت أيضا الا بالمكيــف ••• لمن استطاع اليه سبيلا • ومن لمن يستطع الآن فهو غدا مســتطيع ، لا لا بُدّ أن يســـتطيع •

كانت الهبّابات معروفة ، حمر الالوان ، زخرفية الشــكل لها خمل حريرى كان يستعملها كبار السن من الرجال ، وبعض كبيرات النســاء • وأكثر مــا تُقَدم الهبابة للمرأة الضــيفة • قل أن تستعملها نساء أهل البيت • ولم يكن استعمال الرجال للهبابة كثيرا ، كان كالشىء النادر ، مرات قليلة فى اليــوم الواحد ، مثلا بعد أن يدخــل أحدهم يتصــببُ عرقا يجلس قليــلا أو يتكئ ويضــع الرجل اليسرى على اليمنى أو اليمنى على اليسرى ويهبِّب نفســه بيده ، وسرعان ما يشعر بنوع تعب أو ملل من تهبيب نفســه •

مفتشو المراكز الانجليز الى مديــر المديرية ــ والمأمور ابن البلد أحيانــا فى المكان الذى ليس فيه مفتش انجليزى ــ كانت لهــم فى مكاتبهم هبابــات كبيرة مثبتة على السقف الهَبَّابة عبارة عن لوح كبير من الخشب أو عدة ألواح مركبات معا ثمَّ مكسوة قماشا فى أطرافه كشكشة ، شىء مقتبس من زخرفة الهبابة البلدية الصغيرة الحمراء • وجانبا هبابة الخشــب هذه منوطان الى حبل • ويكون جالسا خارج المكتب مسجون يهز الهبابة بانتظام •

لم يكن يبدو على المسجون المكلف بالهبابة ما يدل على ارهاق كان عمــله فى الظل وهو جالس على كرسى • أحسب ذلك كان أفضل له مما لو كلف الحفر وقطع الخشب والأعمال الشاقة المشابهة التى تكون تحت وهج الشمس •

السأم الذى نفهمه نحن الآن لا أحسبه كان يلم بباله ، لكن يلم بباله الصبر كانت حاله حال صبر والصبر كثير بأرض السودان • والصبر والحزن صديقان متلازمــان : إنا لله وإنا اليــه راجعــون •

بنيت خارج حوش المدرسة حجرة كبيرة مستطيلة ذات أضلاع وزوايا واضحة • أحسبها بنيت من الطين الذى يقال له : « الجالوص »، وأركانها •• هل كانت من الطوب الأحمر الآجور ، وطلاؤها الخارجى من الزبالة (روث البهائم المخلوط بالطين) • بناء « الجالوص » يكون ببل التراب وتركه حتى يتلبك •

عندى أن كلمة الجالوص مشتقة من الجَلْس بجيم مفتوحة ولام ساكنة وهى الأرض الغليظة • وقالوا شهد جلس أى عَسَل « غليظ » • وصاد الجالوص أصلها سين • وكثيرا ما تتحول السين صادا والصاد سينا • كان أكثر بناء السودان من الجالوص • كان أكثره خشن الصنعة وفى جدرانه اعوجاج وشبه انحراف الى الداخل يجعل ساحة سقفه أقل من اتساعه تحت • واكثر ما كان البناءون الجالوصيون من الشايقية وأحيانا من المناصير يتجولون ويقيمون فى تاياتٍ ، وفى عيشهم شدة •

كانت لأهل بربر بالبناء عناية وحذق • كانوا يحسنون بناء الطوب الأحمر (الآجور) والطوب الاخضر « اللِّبِن » ويرتقون بأصناف ما يبنونه من الجالوص يجعلون لها برنداتٍ وعقوداً وضروبا من الزينة والتحسين • وكانت بربر مدينة قديمة كانت عاصمة فى التركية السابقة وملتقى قوافل تصلها التجارة من شندى ومن دنقلا ومن سواكن • كانت هى من فوق النيل رصيفة سواكن التى فوق البحر الملح ومكملة لها • لكن الآن قد انتقلت أهمية بربر القديمة الى مدينة أتبرا الجديدة ، ملتقى الخطوط الحديدية وعاصمة السكة الحديد •

اسم أتبرا القديم الداخلة وهكذا سمعنا أهلنا يسمونها وذلك لأنها داخلة بين النيل والأتبراوى آخر الفروع التى تصل النيل من هضبة الحبشة • ثم نقل اسم ناحية الأتبراوى (أتبرا) الى المحطة الحديدية فسميت به : محطة أتبرا • وكان اسم « أتبرا » لا يطلق الا على البلدان

الواقعة على الأتبراوى بعيدة عن النيل مثل بلدة « الشُّوَك » وما أشبه ٠ والكلمة بجاوية غير عربية بهمزة فتاء فباء فراء بعدها هاء ، ان شئت كتبتها ألفاً كما تنطقها وان شئت كتبتها تاء مربوطة (أتبرة) ٠ ثم ان المصريين الذين خطوا اسماء محطات السكة الحديدية مع جيش كتشنر الفاتح ، فخموا الهمزة والتاء فكتبوا « عطبرة » ٠ فصار بعض الناس يقولون « عطبرة » وربما سمعت ذلك من الإذاعة أحيانا ٠

ومن الاخطاء القريبة من هذا التى شاعت زمنا اسم محطة جبل قرِّىْ (تنطق القاف قريبا من الكاف بعدها راء مشددة مكسورة فياء ساكنة) فقد كتبه مرافقو جيش كتشنر « جارى » اعتمادا على نطق الجيم المصرية المقارب للكاف ، فكنا نسأل : أين هذا الجبل الذى يجرى ، فيقال لنا : انها « قرّى » بلدة المانجل عبد الله جماع شيخ العرب العبد لاب الذى أقام مع « المك » عمارة دولة سنار ــ المك أى الملك ٠

وكما انتقلت أهمية بربر القديمة الى أتبرة ، كذلك فوق سيف البحر الملح انتقلت أهمية سواكن القديمة ــ القديمة جدا ــ الى بورسودان ٠ كان يقال لها قديما بُرتِّ سودان ٠ لايخفى أن بور أو بورت هى الكلمة الانجليزية Port أى فُرْضَة أو ميناء ٠ وحظ سواكن كان أتعس لأن الخراب قد أسرع اليها كل اسراع وتداعت قصورها ذات اليسار التالد والعلالى والمشربيات البارعة والجمال الأكيد ٠

قالوا وانما دعا الى هجر سواكن وانشاء بورسودان أن صخور المرجان أمامها كثيرة وماء البحر فى بورتسودان أعمق ووضع الفرضة أصلح للسفن الكبيرة ٠ والحق أن صخور المرجان انما انتشرت فى بحر سواكن بعد اهمال فرضتها كل الاهمال ٠

وعندى أن السبب الحقيقى الذى دعا الى اهمال سواكن أنها لم تسقط فى يد المهدية فبقيت تابعة للخديوى حتى انتصر كتشنر على الخليفة فى حرب

« كررى » . فكأن الانجليز ، لما استبدوا بسلطة الحكم الثنائى فى السودان ، رغبوا أن يكون ميناؤه خاليا كل الخلو من ظلال شرعية سلطة الخديوى ومن عسى أن يخلفه . ولم يكن عسيرا أن يجدوا مكان فرضة مناسبة وانما كان العسير أن يجدوه قريبا من موارد الماء العذب . والماء الجوفى وماء الجبال كان من سواكن غير بعيد .

ولما تم نقل الماء العذب من عين «أربعات» بالجبال الى الميناء الجديد الذى أعطى اسما انجليزيا Port-Sudan بالانابيب ، كان ذلك بداية القضاء المبرم على سواكن .

كانت فرضة سواكن أيام عزها جزيرة . وكانت زاوية الشيخ بالقيف « على الشاطىء » المقابل لها . وذلك قوله يمدح سيد المرسلين عليه الصلاة والسلام :

يا صحيح الباطن هانذا قاطن هانذا ساكن
فى بسور سواكن
أهل القيف والحافه مُدلَهمْ ألطافا كن بهم رآفا
يوم الناس خوّافه

أخبرنى الشيخ قمر الدين بن الشيخ عبد الرحمن بن الشيخ الطاهر المجذوب رحمهم الله جميعا أن الشيخ رضى الله عنه لما نظم هذه المدحة ، حاكى بها نشيدا بجاويا هدندويا من أناشيد صيادى الحوت .

ولازالت زاوية الشيخ ـ الى زمان قريب ـ بحالة حسنة من عدم التداعى وبعض العناية وفيها بقية من المكتبة القديمة فيها مخطوطات حسان نفيسات .

هذا ، وكانت بربر القديمة أنقاضا : سورها قَيْقَرُها واستحكاماتها ، معمل النِّيلَة القديم ، قصور الحكام ودور المثرين ـ كل ذلك أنقاض ، فقط قبة الشيخ زين العابدين كانت باقية .

كانت المبانى الحديثة تنتهى بحلة الدكة • وترى المعزى تسير نحو انقاض المدينة القديمة التى يقال لها القيقر والمخيرف • وعند الشاطى نخيل ويبـــدأ السور الانقاض ونراقبـــه حتى تنخفض أكوامه وتنتهى وبعـــد قليل حلـــة عنيبس التى عندها محطة عنيبس •

من عند عنيبس كان يعبر الدراويش القاصدون كدباس حيث مركز الطريقة القادرية وقبر الشيخ أحمد الجعلى وخلوة خلفائه • وقريب من كدباس حلة الغبش وبها خلوات الغبش القديمة العهد الشهيرة منذ أيام سلطنة الفونـــج وفيها تعلم المهدى على شيخه الشيخ محمد الخير وقد تأثر به اذ كان جـــادا فى أمره ذا شـــكيمة وغـــيرة على الـــدين •

وبجبانة الغبش قبر الفقيه الولى الصـــالح عبد الماجد ود حمد وتوضـــع عنده الودائع ويحلف باسمه الحالفون ومن تهاون بامره ينكب •

وعلى مقربة من مضـــاجع أجداده مضـــجع زميلنا الاديب الفطن الاريب الدكتور أحمد الطيب أحمد (١) حم حمامه ولم يجاوز نصف عقده الخامس • مات والناس أحوج ما يكونون الى عمله وفضـــله • ولكل أجل كتاب •
رحمـــه الله رحمـــة واســـعة

وقفت لديـــه أنظـــر الى الحصى •••

سَقَى اللهُ أرضاً حَلَّها قبرُ مالك	ذِهَابَ الغوادِي المُدْجِناتِ فأمْرعا
فو الله ما أُسْـقِى الديار لحبِّها	ولكنما أَسقِى الحبيبَ المودّعـــا
تحيتهُ مِنىّ وأن كان نائياً	وأَمسَى ترابا فوقه الارض بلقَعـــا

كان بالسنة الرابعة فى التجهيزى اذ نحن فى رابعة الوسطى وكان ذلك عـــام نشر فى مجلة الكليـــة نونيته التى جارى بهـــا على سبيل الفكاهـــة نونية ذى الاصـــبع :

يا من لقلبِ طويل الهمّ محزون	أمْسَى تذكّر ريّا أم هـــارون

(١) توفى رحمه الله فى اوائل سنة ١٩٦٣ بالخرطوم ونقل جثمانه ودفن بالغبش

كنا نستعد بعد محطة عنيبس لرؤية انقاض السور • ترتفع من اللاشيئية ومن ورائها الخراب • وتلك قبة الشيخ زين العابدين • وتأخذ الاكــوام فى الانخفاض وتنحنى فى اتجاه نهايتها • ونرى المعزى وخــور الدكة ، وحلــة الدكــة ، بيوت المدينة ، الجبانة • وصلنا الى ناحية المدرســة • ذلك حوش المدرسة • تلك هى المدرسة وفضاء ميادين الكرة أمامها •

المحطة تدنو • تلك قاعة الامتحانات ••• قد أزف زمان الامتحانات ونحن هذه السنة ، ديسمبر سنة ١٩٣٥م عندنا امتحان اللجنة «أزفت الآزفة ليس لهــا من دون اللــه كاشـــفة » •

مضت على الحرب الطليانية الحبشية شــهور • قالوا اســتعمل الطليان رصاص دَمْ دَمْ ــ هكذا سمعناها فى اذاعة لندن Dum Dum bullets والغاز السام • وكان فضيلة القاضى الشيخ محمد الامين القرشى رحمه الله قد نظم قصيدة يذكر فيها أمر العدوان على الحبشة وقال فيها :

اذا العهودُ مضت حبراً على ورقٍ فأنت جعجعةٌ ياعُصبةَ الأُمَمْ

نشرتها جريدة الســودان وصــار البيت صيرورة عظيمة •

****** ******

كانت فى السودان الانجليزى المصرى بضــع عشرة مدرســة من المدارس الوسطى • أُلغيت مدرسة الدويم الوسطى سنة ١٩٣٢ • وصارت مدرستــا حلفا وأتبرا نصفيتين تقبلان عاما بعد عام • وكانت بورســـودان وبربر والخرطوم والخرطوم بحرى وامدرمان الاميرية (وكانت فيها مدرستان معا) ورفاعة وود مدنى والابيض كلهن كوامل • هل كانت فى سنجة مدرسة أو لا ؟ وكانت مع هؤلاء مدرســتــان كاملتان بأمدرمــان غير حكوميتين ، الأهليــة والأحفاد • وكانت المدرستان الصناعيتان ــ مدرسة أتبرا ومدرسة أمدرمان تعدان فى منزلة المدرسة الوسطى لكن تلاميذهما لم يكونوا يجلسون لامتحان اللجنة • وبخت الرضا أنشئت فيها ســنة ١٩٣٤م مدرســة لتدريب معلمى

المدارس الأولية مكان مدرسة العرفاء القديمة التى كانت بالخرطوم ، وهذه كانت من ست سنوات • وكانت مديريات جنوب السودان اقليما مغلقا Closed district فما كان للتعليم فيه بنظام التعليم فى سـائر القطـر من اتصـــال •

كان أمر جنوب السودان مجهولا لدينا كل الجهل • فقط دروس الجغرافيا مديرية بحر الغزال ــ مديرية منقلة ــ مديرية أعالى النيل ــ حاصـلات الجنوب ــ قبائل الجنوب ــ عواصم المديريات ــ المراكز •

جئ بامرئ جسيم طويل القامة عظيم الهامة جهير الوجـه يلبس قطعة ثوب يلقيها على كتفه ، (عرفنا من بعد أن اسـمها الـلاوه) قيل انـه من سادات «الشُّلُك»(١) أحدث شغبا فحوكم بالنفى الفورى نفوه بالدامـر • أحسبه وضع فى سجن المديرية بالدّامر • ثم حددت اقامته بالبلدة • وطالت اقامته وجئ له بزوجته وكان منظره ذا هيبة ووجاهة • وجعل يلبس جلابية جيدة غاية فى النظافة وعمامة لفتها قريبة الشكل من لفـة عمة الطربـوش المغربى • وأسلم وتطرف بالشاذلية وكان قوى العقيدة فى الشيخ المجذوب ، وسمى بنتا له الدامر وولدا له محمد المجذوب وكـان ذا شخصـية وروح رئاسة • اسمه ناويلوكور • توفى رحمه الله وجئ بآخر من النُوَيْر (٢) كان طويلا نحيلا • ولم تطل اقامته ببلدتنا كما طالت اقامة السيد ناويلو رحمـه الله • قيل لم يلائمه جفاف الطقس وقيل مات بعد ذلك بقليل •

هذا وكانت لبعض الجاليات المسيحية بالخرطـوم مدارس خاصـة بها ، أشهرها مدرسة الكمبونى • أول مرة سمعنا عن الكمبونى من أحد المدرسين الجدد سألنا عن عدد المدارس الثانوية بالسودان • فهمنا منه أن كلية غردون مدرسة ثانوية وكنا نعتقد أنها الكلية المعرفة بالالف واللام • وسـألنا كـم

---

(١) الشلك بضم الشين واللام قبيلة من سودان النيل مساكنها على النيل الابيض جنوبى بلـد الجبلين •

(٢) النوير من قبائل الجنـوب مساكنها جنوبى السـدود •

مدرسة ثانوية بالقطر ، فقلنا واحدة ، هى الكلية ــ كلية غردون • فخطــأنا وفهمنا أنــه توجــد ثــلاث مدارس ثانويــة هى :

١ ــ Gordon College كليــة غــوردن

٢ ــ Comboni College كليــة كمبــونى

٣ ــ AL-Giraif College كليــة الجــريف

الى الآن ما عــرفت ما كلية الجريف هذه أو كما قــال (الجريف كلــج) هذا ولا اســتطعت تحديد مكانها وزمانها ــ هل كانت معهــدا زراعيــا ؟ هل طال العهــد وضــلت الذاكــرة ؟ هل أخطــأ •• ؟

ولم تكن كليــة غوردن حقا مدرســة ثانوية • كانت مدرسة إعــدادية للتوظيف • كانت التجهيزى • انما صــارت مدرســة ثانوية فى ما بعد وذلك بعدما أُدخل فى نظــام التعليم امتحان شــهادة كمبردج وقامت المــدارس العليا التى انتقل اليها اسم كلية غوردن ومهدت لقيام جامعة الخرطوم •

****** *****

كانت الفصــول النهائية بالمدارس الابتدائية (قبل أن تسمى الوسطى) يذهب أبناؤها كلهم لامتحان اللجنة فى الخرطوم • يقيمون بداخلية كليــة غوردن ويجلســون للامتحان فى قاعة السفرة • ثم تغير هذا النظام قبــل دورنا بزمان غير بعيد ، سنة أو سنتين أو ثلاث أو أربع على الاكثر • فصارت كل مدرســة وســطى يجلس أبناء فصلها النهــائى لامتحــان اللجنــة فى مدرستهم • يجلســون لنفس الأوراق التى يجلس لها سائــر أبناء دفعتهم فى المدارس الأخــريات • مــر بنا امتحان اللجنة لما دخلنا الابتدائى • كانت تلك لجنة المديريات الشــمالية بربر ودنقلة وحلفا ، جلس لامتحانها النهائى تلاميذ الفصــول النهائية بكتاتيب تلك المــديريات • أمــا الآن فالامتحــان لكل السودان ، لكل مدارســه الوســطيات ــ إلا الجنوب •

وكانت كلية غــوردن تبعث بمفتش انجليــزى ومفتش « ود بلــد » أى مواطن ــ لكل مدرسة وسطى ليمتحنا التلاميذ فى الشفهى الانجليزى والاملاء

وليشرفا على مراقبة جلوس التلاميذ للامتحان نفسه وقد يصححان ما يكون قد صدر اليهما توجيه بتصحيحه من مواد تخصصهما ، واذ كانت كل دروس المدرسة الوسطى بالعربية الا اللغة الانجليزية ، فقد كان جليا أن تخصصَ المفتش الانجليزى مع اشرافه العام كان مادة اللغة الانجليزية ، نطقا وكتابة وانشاءً واملاءً ونحواً — لا غير • كان جانبها مهيبا • نعم ، الحساب طقش العشرين ، ولكنها لغة الحكام ، ومفتاح المستقبل • المستقبل بيد الله وهو على كل شيء قدير •

كان كل انجليزى يقال له المفتش ، جناب المفتش • وكلمة « خواجة » التى نستعملها الآن فرع من معنى المفتش وجناب المفتش ، وانحراف به لا يخلو ••• بل هو مفعم بمادة من جذور روح احترامه القديم •

وكان كل استاذ من كلية غوردن اذا زار المدرسة الوسطى يقال له المفتش • واذا كان من المواطنين قالوا : مفتش ود بلد •

وحضر مفتشان ، انجليزى « وود بلد » لامتحاننا امتحان اللجنة • وجلسنا كل الامتحانات فى قاعة الامتحانات الا الإملاء والانشاء والشفهى •

لم يكن الدين مادة امتحان • مع اننا درسنا الزكاة فى المدرسة الوسطى وفى الكتاب وعلمونا التِّبيع والحِقّة وبنتَ المخاضِ وبنت اللبون — أشياء كانت بعيدة جداً من واقعنا • أقرب الى مداركنا وصف الصراط ، أدق من الشعرة وأحد من السيف • وعذاب القبر • ولكن كان يعيننا فى هذه الناحية روح الخلفية الدينية التى كانت فى بيئتنا على كل حال •

وقرأت كتاب دقائق الاخبار فى ذكر الجنةِ والنار برَهَبُوتٍ عظيم •

كان الشيخ بابكر عبد الله رحمه الله يهتم بشرح دروس الدين شرحا عمليا واضحا يسأل عن كيفية الوضوء والاستنجاء والغسل • وكان يقول لا حياءَ فى الدين • وفهمنا معنى دم الحيض والنفاس والمنى والمذى والودى• وكنا نتطلع الى البلوغ ويشوقنا اليه الذين كبروا • كانوا حقا أكبر منا ، ويتكلمون عن بنت ابليس • وينضاف اليهم من حين الى حين محتلم جديد •

ولم نصل سن ثمانية عشر حولا ظهر (١) حتى نزعم أننا بلغنا بالسنين وأخذ الكاتبان يسطران علينا الصغيرة والكبيرة • ويجيء منكر ونكير ليقذفانا الى الأرض السابعة بمقامع من حديد كلما تلعثمنا فى الجواب هذا هو الامتحان الاخير والكبير :

ـ من ربك

يقول الذى يموت على سوء الخاتمة

ـ أنت

يتملق منكرا وأخاه نكيرا • سوء الخاتمة قد يجيء فى أية لحظة •

ـ من نبيُّك

ـ أنت

ويقع العمود الحديدى ، مِقْمَعَةُ الملكِ ، بخبطٍ شديد • أما أنا فأتماسك وأكون رابط الجأش وعندما يسألنى الملكان ، من ربك ، أقول ، لا اله الا الله وعندما يسألان ، من نبيك ، أقول محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم • وأمر فى كل الاسئلة بجواب صحيح صادر عن ايمان صحيح

وقَدَرٌ كذا صراطٌ ميزانْ حوضُ النبىِّ جنَّةٌ ونيرانْ

ولكن بنت ابليس ما جاءت •

ولكن هل يوجد إنبات الشَّعَر ؟ ألم يقل ابن عاشر فى علامات البلوغ انها : بمنى أو بانبات الشعر أو بثمانى عشرة حَوْلا ظَهَر

ولكن الشيخ بابكر عبد الله رحمه الله يوضح أن انبات الشعر ليس معناه هذه الهُلبة التى تكسو جلدنا • إنبات الشعر هو أن يصير شعر العانة ـ أى الشِعّرة بكسر الشين ـ مثل شعر الرأس • مثل شعر رأسك يا ولد • مثل شعر رأسى هذا ويرفع العِمة ويرينا شعر رأسه •

---

(١) هذا من منظومة ابن عاشر :

او بمنى او بانبات الشعر او بثمانى عشرة حولا ظهر

كان الشـــيخ بابكر رحمه الله حسن الهندام ، وعمامته جيدة اللفة جيـــدة القماش ، من أجود « الكِرِب » ومــرة تنبه أحــد التلاميــذ الى انهــا من « المركزى » وهو أجــود وأغلى من « الكرب » ، كانت عمتـــه (الكـــرب) البيضـــاء الناصـــعة البياض أحب عندى لانها تظهر أسلوب لفته للعمـــة كل اظهار ، كان أسلوبا متقنـــا ذا أُبّهـــةٍ وهـــدوء ،

كان رحمه الله يعــرف درس الدين ويحرص على تفهيمه ويفهمه التلاميذ منه جميعا ، كان يدرســـه لا ليجلس التلاميذ فيه للامتحـــان ولكن ليعرفوه، وكان التلاميذ يستجيبون الى أن يعرفوه مع علمهم أنه لم يكن فى الامتحان مـــادة ، بل لعل هذا اعتبار لم يكن يخطـــر لهم ببـــال ، كان الدين لا يزال جزءا من حياتهـــم ،

الآن يجلس له التلاميذ فى الامتحـــان ، بل هو فيه من المواد الاجبـــارية يجلســـون له ولا يعرفونه ولا يريدون ولا يراد لهم أن يعرفوه ، سيعرفونه من بعد ، من طريق الايديولوجيات سلبا وايجابا ،،، ولكن ،،،، لا حيـــاء فى الدين ،،، رحم الله الشـــيخ بابكر عبد الله رحمة واســـعة ،

كان الامتحان الشفهى بسيطا ، كان أصعب شىء فيه كما خوفنا مدرسونا هو مواجهة انجليزى من الانجليز أنفســـهم ، من أجل اعدادنا لهذه المواجهة كان دعـــا ناظر المدرســـة مفتش المركز المستر فحضر بنفسه الينا فى الفصل وتحـــدث وفهمنا كلامه ، أعطانا كلامه فكرة كيف يتكلم الانجليز الانجليزية

Suppose I am a man who is مفلس and I have no money.

يعنى : Suppose I am a Sudanese

طبعا كلمة «مفلس» غير انجليزية ، فهى بمنزلة الرمز ههنا ،

كان ذلك المســـتر قدامنا فى الفصل لما تكلم واضح الصـــوت والكلمـــات ولطيفا ،، كانت ســـمعته أنه شديد ولئيم وكان فيما يقـــال اذا لقِىَ شخصا يركب حمارا فانه لا بد لذلك الشخص أن يترجّل ويحيى جناب المفتش واذا

كان ماشيا فعليه رفع يده بالتحية (يقطع تعظيم كما فى العبارة العسكرية)
واذا لقى شخصا يلبس حــذاء يابانيا (آساهى) يجبره على خلعه ويأمــره
بشراء مركــوب • كانت المراكيب رخيصــة ولكن «أساهى» كانت (جزمة)
أى شيئا متمدنا مع كونها من قماش وكانت رخيصة بالنسبة الى «الجزمات»
من طــراز باتا • كانت بخمســة قروش • منظر المركوب البلدى لاشــك
أجمل وتصميمه أفضل وهو أكثر وقاية للقدم من الرمضاء والشوك والوسخ
ولا يفــوح برائحــة المطاط والقماش وذفر العــرق • ثم المركوب صناعة
ســودانيــة • لعل المســتر الشــديد كان اجباره مــرتبا على مثل هــذه
الاعتبارات • ولكن القروش كانت العزيزة والناس فقراء والى مظهر مــن
مظاهر المدنيــة ــ تصــميم بداية نفور من القديم والاصــيل ــ متطلعون
أو مســوقون بعوامل اجتماعية ذلك المستر نفسه جزء منها بل أقواها وهو
لا يشــعر وهــم لا يشــعرون •

وقد كره الناس المســتر واتهموه لا بأنــه كان يحــرص على الصــناعة
الوطنية وذوقها الجيد ألا يَتَطَلا ، ولكن بأنه كان يحرص على محاربة اليابان
غيرة على موقف انجلترا التجارى الذى كانت هذه الدولة الشرقية الفتيــة
تهدده • كنا نشــعر باعتزاز ازاء اليابان • وقالوا لنا أن اليابان دولة صناعية
لانها بحريــة شمالية مثل الجزر البريطانية ويأتيها تيار من المحيط الهادى
مثل تيار الخليج الذى يمر بالقرب من الجــزر البريطانية والدنيا فى اليابان
بــرد وليســت حارة • البــلاد الحارة متأخــرة •

وفى جريدة كوكب الشرق التى أخذتها من حسن مجذوب الوقيع تــوالت
عدة مقالات عن نهضة اليابان • أحسب أنه كتبها الدكتور محمد عوض محمد
رحمه الله • المسألة ليست مســألة حر وبرد ، ولكنه مجهود متواصل وقيادة
رشــيدة وحــزم ونضــال • وقرأنا قصــيدة حافظ ابراهيــم رحمه الله
وحفظنــاها :

أنا يابانيــةٌ لا أَنثنى عن مُــرادِى أو أَذوقَ العطبَــا
هكذا الميكــادُ قد علمنا أن نَرى الأوطان أمًا وأبــا

كان زميلنا الأديب الناقد المطلــع الفطن الاســتاذ عبد الرحيم الامــين رحمه الله يسمى حافظ ابراهيم ، يجعل ذلك كاللقب له « شاعر ســنة ثانية ابتدائى» • ولعله قسا عليه شيئا فى هذا الحكم • وهذه البائية أفدناها ونحن فى ســنة رابعة ابتدائى •

******* *****

كانت الجرائد المصرية المصورة فيها حــوادث الدنيا الكبــار وزعماؤهــا الكبار • وجريدة Pictorial Education وجريدة The Illustrated London News

مما نحبه جــدا • موســلينى يرفــع يــده بالتحيــة الفاشستيــة • ليس له أدنى بريق عنــدنا • نحن مــع الحبش • قُتل ملك يوغسلافيا فى مرسليا ولم تقم الحرب •

ظهر فى المانيا زعيم اسمه هتلر • المانيا براقة جــدا • كنا بعواطفنــا الى جانب غليوم وهندنبرج ولودندرف وضد الحلفاء وضــد معاهدة فرســاى كان روحنا الوطنى ضد الاستعمار ، يعنى انجلتره وفرنسه وما خطر ببالنــا أن المانيا أيضــا اســتعمار • حقا كنا نراها ظُلمت لانهــم أخــذوا منهــا مستعمراتها • كنا نعطف عليها لانها ظُلمت لاننا نحن مظلومون •

هتلر يظهر عليــه الحزم والصرامة وأنه ســيؤدب الاســتعمار والانجليز يخافون منه • وسَتالين (بفتح الســين ، هكذا كانوا ينطقونها) •••

كان كأنه شىء بعيدٌ جدا • لم يكن له بريق وصُوره كانت قليله • وروســيا شىء بعيــد •

ولكنا كنا نحب رسم خط حديد سبريا ــ أُمســك • تُمســك • آركتســك ••• الى فلادفستك ••• بورت آرثر •• من سمــاها بورت آرثر •• شىء شاذ ••• مثل كلية غردون فى البلــد المســلم •

أريد أن أكتب على كراستى أم أربع وستين ورقة . صرفو لنا فى السنة الرابعة (الوسطى) للانجليزى كراسات من هذا النوع . للانجليزى وحده لانه العلم الممتاز فى الفصل الممتاز ، فصل امتحان اللجنة . كنت أتشوق لان أكتب على ظهر كراستى فى ورقة الاسم البيضاء :

The Gordon Memorial College

وهناك ، فى « غردون مموريال كوليج » تصرف الكراسة الحمراء لكل العلوم ، فاكتب عليها كلية غردون ، هكذا : كلية غردون كما رأيتها مكتوبة على كراسات أبى :

وهل يُنبت الخطىّ إلا وشيجه وتُغرَس إلا فى منابتها النّخْلُ

من أجل إعدادنا لمواجهة الانجليزى الشفهى أخذنا مدرسونا لسماع راديو لندن . فرحنا لسماع راديو لندن وسماع Big Ben التى هى من عجائب الدنيا السبع ـ كانت أكبر بكثير من افادتنا استعدادا لمواجهة شفهى الامتحان .

عجائب الدنيا السبع كانت فى الحقيقة أكثر من سبع ودائما تزيد . خبرنا أحد المدرسين الجدد عن ناطحات السحاب . كل مدرس جديد كان يحرص على أن يضيف شيئا جديدا .

حتى فى التجهيزى دفع المدرس الجديد للتلاميذ الذين كانوا فى الترماى أو (الترماج) حق التذاكر . مد يده بالقروش لأحدهم وقال له بشهامة Go ahead ـ أى أمض فى سبيلك .

فى قصة Box and Cox المسرحية ، التى كانت فى كتاب المطالعة فى السنة الرابعة كان ناظر المدرسة ، وكان يجيد الانجليزية ، يصحح نطق التلاميذ وطريقة أدائهم فى : Smoke does not go down, it goes up

ويرفع رأسه وحنكه بكلمة up هذه ليدل على أنها صاعدة النغم ...
هكذا يتكلم الانجليز لغتهم . فاهم يا ولد ؟! It goes up

وحفظنا العبارة : There is plenty of room at the top
وفهمونا معناها ، على أنك اذا كنت فوق ، أى كنت الاول ، وجـدت مجـالا واسـعا ٠ رحم الله الوالد ، كان كثيرا ما ينشد يترنم به

واذا كانت النفوسُ كباراً   تعبَتْ فى مرادِها الأجسَامُ

كنا صـفا تحت برندة الفصول منتظرين ٠

ونوديت لامتحان الشفهى فى حجرة حضرة الناظر ٠

الآن حمـى الـوطيس ٠

****** ******

لم أكن خائفا من امتحان الشفهى نفسـه ٠ دخلت الحجـرة متهيبا كـان فيها شىء آخر غير امتحان الشفهى هو شبح المستقبل متمثلا فى هذا المفتش الانجليزى الذى فى صـدر طربيزة المكتب ٠ كـان المفتش ود البلـد يجلس بجانب الطربيزة ٠ لا أذكر أكان حضرة الناظر هنـاك أم لا ٠٠ الراجح أنه لم يكن هناك ٠ سألنى المفتش عن اسمى وعن عمرى وأعطانى فقرة من كتاب المطالعة فقرأتها ، أسئلة سهلة جدا بعضها مستوى أولى وثانية ، ثم قـال : ماذا تريد أن تكون ؟ سمعت السؤال وكأننى لم اسـمعه وفهمته وكأننى لم أفهمه وأجبت بصوت بين الواضـح والمتردد : أريد أكون دكتور ٠ لم أكـن أريد أن أكون طبيبا وانما أردت أن ألفت نظره الى أننى تلميـذ ذكى وأريد القمة وزعموا لنا من قبل أنها كلية الطب ٠

وما كان سؤاله ، كما تجلى لى من بعـد ، الا ليعـرف عدد الراغبـين من مدرستنا فى الالتحاق بقسم القضاء الشرعى ٠ كان النظام آنئذ أن يختـار للقضاء الشرعى من التلاميذ الاذكياء والمناسبين عدد محدود مرة كل خمس سنوات ٠ وكانت مدة الدراسة فيه خمس سنوات ٠ وكانت فرصـته تعـد فرصـة نادرة وممتازة ٠ وكان المشايخ يحرصـون على ألا تفوت أبناءهم وقراباتهم الذين ينجحون فى امتحان اللجنة ويقبلون فى التجهيزى ٠ وكانـت هذه الفرصة الآن أمام دفعتنـا ٠ ولكن ما سـبق أن علمت بهـا ٠ أما كنت

غائبا لما كلم الناظر التلاميذ ولم يكلموني واما لم يكلمهم بها أو لم يصله إشعار رسمي بذلك ، والله تعالى أعلم .

كانت دفعة القضاء الشرعي التي اختيرت من لجنتنا هي آخر دفع القضاء الذي من هذا النوع . اذ بعد أربع سنين من دخولنا التجهيزي أنشئت المدارس العليا وجعل فيها قسم خاص بالقانون بنوعيه المدني والشرعي وجيء بالاستاذ الكبير العلامة النحرير الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد رحمه الله ، ليتولى تدريس اللغة العربية والشريعة . كان ذلك سنة ١٩٤٠م وكان انشاء قسم القضاء الشرعي القديم سنة ١٩١٢م على يدي فضيلة قاضي القضاة الشيخ محمد شاكر والد العلامة المحقق الشيخ أحمد محمد شاكر رحمهما الله وأخيه الاديب الفذ والاستاذ الكبير محمود شاكر حفظه الله وأطال بقاءه .

بعد قبولي في التجهيزي ووصولي الخرطوم وعند بدء انتظام العمل بالكلية نصحني المشايخ أساتذة اللغة العربية والدين وعلى رأسهم مولانا الشيخ جلال أن أقدم لفرصة القضاء الشرعي وحثوني على ذلك ولكنني أبديت عدم رغبتي فيه . كانت نصيحتهم لي جيدة أرادوا بها برّي ومنفعتي لأن مستقبل القضاء قد كان ولا زال أفضل بكثير ، من حيث المرتب والجاه وأوضاع المعاش من التدريس الذي كنت فيه شديد الرغبة .

كنت قلت لضابط الداخلية القديم لما سألني ونحن في السنة الثالثة ، أريد أن أكون مدرسا ، فقهقه من ذلك وتعجبت . وسألني أحد زملاء الضابط الجديد وهو معهم وأنا بالسنة الرابعة ، قلت أريد أن أكون مدرسا ، فسخروا من ذلك وتفَّهوه وخبروني أن التدريس مهنة بلا مستقبل ، وحزنت لذلك ولكني لم أغير رغبتي .

بعد ذلك بزمان لما أوشكنا على التخرج من الكلية ، وكانت العليا ستفتح لأول مرة وتقدمنا لها ، حثني المستر سكوت ، وكان مدير الكلية

حثا شـديدا على قسـم القانون الجديد ، ولما اعتذرت بطول مدته وحاجتى لأن اتـوظف بسرعـة لفقرى ، قال لى أن الحكمـة تقضى أن أطلب وظيفة أجود حتى أكـون بها على مساعدة أسرتى أقوى ، ولما ذكرت له عدم ميلى الى القضـاء نفسه وشـدة رغبتى فى التدريس ، ذكر أن القانون عنـوان للحضـارة وهو من أمهـات علومها المقدمـة ، ويتيح فرص التدريس على مستوى أعلى ، ثم فيه من المحاماة ، وهى مجال للبلاغة والخطابة والبيان .

نعم ، كنت أقـرأ مرافعـات الهلباوى وأعجب كيف أتيح له أن يترافع وهو قاضى دنشواى ، ومرافعات مكرم عبيـد . كنت أقرأ هذه المرافعـات بعزم مواصـلة الاطـلاع واتوهم أنها ينبغى أن تكون ذكيـةً رائعة ولكنى لم يكن يعلق بذهنى منها فهم شىء . كأنمـا كنت أنظـر فى أسـطر حبـر لا كلمات . خطبة بورشيا Portia الخيالية المبسطة التى قرأتها أروع :

The quality of mercy is not strained,
It is the mightiest in the mightiest

فضيلة الرحمة لا تبتز هى أعز ما فى الأعـز

كان أستاذنا البروفسر غرى Gurry فى معهد التربية بجامعة لندن يقول : You can't simplify poetry , can you?

عندما اقترح أحدهم تبسـيط الشعر ليفهمه الناشئة . أى تبسيط الشعر بتحويله من لغته التى صـيغ بها لا يستطاع ، وعلى هذا فترجمتـه كأنهـا أمر مستحيل ، ولكن الأقـلام من شأنها أن تجمح وتطمح . وقـد يلهـم ملهم فيبدع كالذى يستحسـنه بعض نقاد الانجليزية من ترجمـة فتزغرلد للرباعيات الخيامية وكما كالمجمع عليه من استجادة ترجمة غلبـرت مـرى لا لكتـره « ورب شىء كهـذا » .

A Daniel come to judgement

أحسب الصـيغة المبسـطة فيها A Daniel is come to judgement

وأن الأصـلية 'Tis the mightiest in the mightiest

بحذف حرف (i) الأول ، لتستقيم رنـــة ضربات النظـــم •

كانت خيبـــة أمل للمستر ســـكوت (disappointment) انى لم

أســـتجب • جاء يزور بخت الرضا بعد ذلك بزمـــان ونحن نتحـــدث ونلعب الشطرنج وقد تذكر أيام تدريسه لنا : « انك كنت أذكى تلميذ مر بالكلية » — ثم أضـــاف : « أنت وفـــلان كنتما أذكى تلميذين مـــرا بالكليـــة » • أبيت يا مستر سكوت الا أن تقرن بى آخر على طريقتنا نحن السودانيين • وكرر : « فلان وأنت أذكى تلميذين مرا بالكليـــة » •

****** ******

كنا أنا وفكى الطاهر ود بابكر رحمه الله نقـــرأ بشـــغف عن لقمان الحكيم وعجائبه فى العـــلاج • أريد لأتذكر واحدة منها أعجبتنى جدا حينئـــذ فـــلا أستطيع • ليست « مات الطبيب وما ألفت له دوا — أى ماء اللِّفْتِ له دوا » • تشبه جدا قصـــة الفتى الذى تقيأ دما فجىء به الى محمد بن زكريا الرازى فألقمه طحلبا كثيرا فخرجت العلقـــة (نوع من الديدان يمص الـــدم) التى كـــان بلعهـــا وشـــفى •

أول عهد لنا بأطبة كتشنر كان فى كســـلا • تعور أصبع من أصـــابع قدمى فى بعض شقاوات الاطفال ، أظنها طاحت بظفر الأصبع وفسد الجرح وساء وذهبت الى الاستبالية (المستشفى) وفى حجـــرة لا أذكـــر الآن منهـــا الا أسمنت السلالم ، كأنها كلها كانت أســـمنت الســـلالم ، كوانى التمـــرجى (المرض) بشىء مثل قلم الاردواز • قبـــل ما كوانى التمرجى أذكـــر أن الدكتور أمســـك باصبعى وتلمســـه وكواه بقلم الاردواز • بعد ســـنوات فى الخرطوم وأنا فى الســـنة الثالثة بكلية غوردن انكسرت يـــدى وأخـــذونى للاستبالية وقعدت فوق كنبة الخشـــب وجاء دكتور مكتمل الهندام بســـترة وبنطلون وأمسك بيدى المكســـورة بنفس طريقة الدكتور الذى كان فى كسلا وبنفس نوع ابتسامته وبنفس نوع اشباه تعبير لا تعبير عينيه •

ثم جاء التمرجى بقلم الاردواز بعد أن صار فى يده أداة تعذيب ، أظن ذلك كان فى اليوم الثانى كوانى « تِشْ » • وجاء بقطرة « نترات » الفضة ونقطوا فى عينى ومع النقطة تنقفل العين وتحبو فوق كرة الحدقة أنواع من الوقائع ، بعضها مثل الحصى ، وبعضها مثل التراب • من العجائب كنت مع هذا أحب « نترات » الفضة اللاذعة المؤلمة لأن اسمها « نترات » الفضة • كنت أحب الفضة • الانسان حيوان متحيز • لو أتيح لك شهود مباراة بين فريقين ليس لك بأحدهما أدنى صلة أو ميل ، فانك لا تنجو من أن تجد نفسك تتحيز الى أحدهما • دوافع ذلك خفية •

وقطعة « أب قرشين » فضة ، بخلاف القرش والتعريفة فهما نيكل • والمليم صفر ونحاس • وقروش المهدية دمج ــ طبر ساكت يا ولدى • كان خالى الطيب ود آمنة يجىء عندنا وينزل فى القطية المنفردة ويفرش برشا كبيرا ويفتح كيسه وجزلانه ويعد القروش أكواما أكواما ــ أبا خمسة وابا عشرة وأبا عشرين الكبير الذى كله فضة • وكنت أقف أمامه وأقول له يا خالى « مش يخصك » ــ عبارة سمعتها من الكبار ولم أعرف معناها • وكان اذا أتم عده أعطانى قرشا • كان ذلك فى حياة الوالد رحمهما الله ، ونحن بكسلا •

اذكر فى كسلا جرعات الكينا للطحال • الكينا أمر من الحنظل • ولمرارتها التواءات وكل التواءة منها أوجع مرارة من التى قبلها ، وتجىء بقوتها كلها بعد أن تظن أنك قد تخلصت من آخر مذاقها • وكانت أختى الكبرى رحمها الله تعاف الكينا وُتكرَهُ عليها ، ثم قيل للوالد انها تسبب الصمم فأعفانا منها • وجعلت أنا بعد ذلك أتهيب الكينا السائلة كل التهيب • ثم بلغنى أن حبوب النيفاكوين تسبب العمى ، وأن الحقنة قد يخطىء طاعنها موضعها من عضلات الإلية فيسبب ذلك الشلل فما أدرى ما صحة ذلك والله المستعان •

وأول قراحة لى كانت بكسلا وصارت كبيرة صفراء ولعلى لا أحتاج معها الى قراحة أخرى • وكنا فى المدرسة الوسطى نعصر الليمون على

مكان القراحة « لتفسّد » أى تبوخ • فعلت أنا ذلك مرة واحدة ولم يكن ذا جدوى • ومن رحمة الله أن تنشف القراحة بسرعة • وهى من بلاء العصر ومضايقاته التى لا تنتهى • وما خفت « الطِهَارة » ـ أى الخِتَانة ـ كما خفت منها • هزت السوط وقلت أبشر أبشر وكان ثم مشجعون وانتهى الأمر • نعم شعرت بوجع الكلابة الحاد القاطع ••• لكن بعد أيام جاء « ود المزين » لفك الرباط وعالج الجرح بسائل ما شيئا فشيئا ثم غفلنى عند آخر لفة من الرباط كانت لاصقة بالجرح لصوقا ، فجذبها وقلت فى نفس الوقت « وَعْ » ـ هكذا « وع » كأنى أردت أن أقول(وَاىْ) التى عندنا هى الصراخ الجازع ثم استدركت • وسخر من وع هذه ، فتماسكت • واى عند أهل غرب السودان معناها نعم ـ كأن الواو للعطف •

كان مساعد الحكيم رءوم الوجه ذا رأفة • ووضع فى عيوننا المس بسلفات النحاس Copper Sulphate • كنا نحترمه ونكره سلفات النحاس • وكنت أنا اعتقد أنها أقل فائدة من نترات الفضة • وكان المس ضربة لازم على من عنده الرمد « التراكومة » وعلى من ليس عنده •

لما كنا فى كتاب مقرات كنا نعامل بنفس المعاملة • ونخاف من المس ونكرهه • وبعض التلامذة كان عندهم الحصر بفتح الحاء والصاد وناس مقرات يخطفون أواخر الكلم فلاتكاد الراء تظهر • والحصر البلهارسيا • فكان أمر هؤلاء أتعس • كانوا يعطونهم أربع عشرة حقنة • وعندما توضع الحقنة فى الغرف واليد مبسوطة مفتوحة الكف والتمرجى قد ضغطها حتى طارت العروق وبرزت ، يجىء فيها الدم • هذه الحقنة هى حقنة الانتمون ـ لفظة أعجمية معناها الكحل وهى دواء البلهارسيا وقالوا اخترعها مفتش طبى بالخرطوم وهو الذى ذكره الاستاذ حسن عمر الأزهرى فى قصيدة له التزم فيها مالا يلزم بقافية انجليزية نهايتها شين ونون مطلعها :

ألا يا فاضل الاخلاق انى رأيتك عاشقا للاديكيشن Education

والبيت الذى ذكر فيه اسم المفتش الطبى :

سَبقت خرستفورسَ فى علاجٍ وجئت لنا بأنجع أوبريشن Operation

ولعل الاسم خرستفُورسَنْ Christopherson فهذا أشبه بأسماء الانجليز ويستقيم به الوزن وليست ضمة الفاء مشبعة حتى يلتقى ساكنان • وخرستفورس أشبه بأسماء يونان واستبعده • والله أعلم •

وهذه القصيدة جيدة فى بابها ، لأنها تمثل روح هذا الخلط العجيب بين العربية والانجليزية الذى نجده الآن فى طريقة تحدُّث مثقفينا حين يجلسون يتكلمون بعضهم الى بعض ، والى الآخرين أحيانا •

كنت أخاف من « البلهارسيا » • قرأت عنها فى الاشياء • وتفزعنى صورة الرجل الراقد ويده مغزوزة عند كُلْيتهِ وهو يتألم وصورة جراثيم البلهارسيا وهى تستنُّ الى القدم الفلاحة الغليظة وهى تخوض فى الماء الراكد • وما زعموه من أن دودة البلهارسيا ربما التصقت بباطن غشاء الأمعاء كما يلتصق الضب بجدار البيت ، وجعلت تمتص الدم مباشرة ، وربما ساءت أخلاقها فجعلت تأكل من أغشية الأمعاء نفسها •

وكان الأولاد فى مقرات يقولون أن « الحصر » يسببه الحفاء والمشى فى الرمضاء وكانت الاقدام ربما كستها من تحت طبقة سميكة من الجلد وتشققت كما تتشقق جروف النيل بعد انحسار الفيضان وجفاف الطمى •

كانت حقنة الأَمِتِين للدوسنتاريا نظنها أرحم من حقنة البلهارسيا لأنهم كانوا يطعنونها فى عضل الذراع الاعلى • وكان اسم الدسنتاريا البلدى : « العصرة » من العُسْر بصيرورة السين صادا •

وكان يكشف علينا الكشف الطبىّ فى أول كل عام • أول العام الدراسى فى يناير • وكان يكشف علينا مساعد الحكيم • ويفرح منا كل من كان نظره ستة على ستة كأنما قد حل مسائل فى ورقة امتحان الحساب ولابد

من شربة ملح مرة فى العـام على الاقل وتأتى بعد ذلك مرة أو مرتان يعطى فيهـا المرء شربة ، مثلا اذا شكا الحمى ، أول شىء يعطى شَربـة ، ثـم اذا ظهرت الملاريا أعطوه الحقنة • ويشرب التلميذ الماء باسـتمرار ، ويخـرج باستمرار حتى نصـف النهار ، الساعـة ١٢ ، وعندئذ يعطى « الشُـوربة » (المَرق) التى هى طعام الشربة • وأحيانا كانوا يعطوننا «شوربـة» عدس رقيقـة •

« شُـوربة » كلمة دخيلة على دارجتنا • انما تعـرف دارجتنا من أسـماء أشربة الحساء الساخنة ، المَرق (المرقة) والعقود والمديـدة والنشا وملـح البليلة • « الشُوربة » جاءتنا مع المدارس والاستباليات والمدنية •

هذا ودائما مع شَربة الملح أربع وعشرون سـاعة راحة • ومـع المـزيج الابيض « دوا شغله » ــ أى يذهب للدرس ولا يعطى راحة • وكذلك مـع المزيج المنفث والبزموت • وكذلك رباطات الجـروح التى كان يداخل لفهـا وفكها نوع من عناية وتفنن ولا سـيما حين يرمى الشريط القديم ويستبدل بشريط جديد • وويل لمن يكتب عنه « مُتَصـنّع » فهـذا ربمـا انتظـرته الخيزرانة • وجاء مرة فى الداخلية شـخص عنده عروق العقرب • وأخـرج من كيس له عقارب صُفرا كثيرات جعلت تدب على ذراعه • وكان ذلك يـوم شربة وشوربة عدس لى • فكرهتها ورأيت العقـارب الصُـفر تخـرج من الصحن أياما متتابعات بعـد ذلك •

وشَرْبة زيت الخروع سخيفة • وقالوا حسـنة لانك بعدها تحتاج للسوائل الساخنة كالشـاى ولم أجربها • وناس الخـلوة كانوا لا يعدلون بسـنا مكة شـيئا • وكانت سـنا مكة تنمو كثيرة بنواحى ما بين الدامـر وبربر • فهل هذه هى نفس سنا الشَربـة التى يتداوون بها ؟ كانوا يسحنونها سفوفا وربما وضـعوها فى فنجـان عسـل •

لا استحضر أن شكسـبير ذكر شربة الملح فى شىء من شعره ، مع أنه كان يستخرج من قريب من مدينة لندن ، ويقال له أحيانا ملح إبسوم

وهو سلفات المغنسيوم . ولا أحسبه ذكر زيت الخروع مع أن كاستور الوارد فى قولهم Castor oil معروف من آلهة الاغريق ، كانا هو وتوأمه بولاكس فى رحلة الصوف الذهبى مع جاسون . ولكن شكسبير ذكر السنا ، وهى فى كلمات ماكبيث المشهورة التى يخاطب بها طبيب زوجته لما انهارت وجعلت تمشى فى نومها وتهذى هذيانا :

What rhubarb senna or What purgative drug . . .

ــ أى رُوَنْدٍ أو سنا أو دواء مُسَهِّل

لقد طبق صيت سنا مكة الآفاق كما ترى .

كان مدّاح القادرية بكسلا يقولون :

لالوبة يا لالوبة

يا ال منك باب التوبة

يعنون « بلالوبة » هنا السبحة المصنوعة من خرز اللالوب . والاستغفار بها يفتح باب التوبة .

ال لالوبة جات تتكَى	(تنطق تتكا)
اللالوبة شدرة مكة	(تنطق مكا)

اللالوبة فى الاصل هى ثمرة شجرة الهجليج ، وقد تطلق فيراد بها الشجرة نفسها أحيانا . وشجرة الهجليج من أشجار الشوك الصحراوية ، أغصانها وأوراقها خضر لمقاومة الجفاف ، خضرة تعلوها غبرة وترهقها قترة من حر الشمس ولفح السمائم ، لا تلك الخضرة الناضرة التى تنشأ من توالى الغيث . اللالوبة برقوقة افريقية أو قل برقوقة السودان كما الحنبق كرزته . وينشف اللالوب ويدخر كما ينشف البرقوق . وحبته التى فى جوف ثمرته جوزية زيتية ، ولها كساء خشب قوى ، يثقب ويجعل خرزا يسبح به العابدون ، ويصنعون منه سبحة اللالوب الألفية التى يقوم بها الصالحون الزهاد الليالى الطوال ، ويهجرون لذلك ملذات الدنيا .

واذا قيل « اللالوبة » فى المديح فان هذه السبحة التعبدية هى المعنى المراد • وقد أعطاها المادح ههنا صورة رمزية نسبية اذ جعلها « تتكَى » أى تتبختر كأنها تتوكأ ، كما يمشى الوجِى الوَحِلُ ، كأنها ليلى العاشقين • ثم نسبها الى مكة يخلع عليها بذلك القدسية • « وشدرة » أى شجرة ، يجعلون الجيم دالاً ، بضم الشين وفتح الدال ، وقد يفتحون الشين ويختلسون الفتحة ، شَدرة ، وقد يكسرون الشين ـ شِدرة ـ وهذه قرأوا بها فى القرآن الجيم غير محولة دالا « شجرة » فى قوله تعالى : « ولا تقربا هذه الشِجَرَةَ » « أَلَم أنهَكُما عن تِلْكُما الشِجَرةِ » فقيل انها قراءة سودان مكة وعبيدها • وقال المادح فى الصالحين الذين يقومون الليل بسبح « اللالوب » :

النوم تركوه ياليلى

اللالوب بكوه ياليلى

أى هم ، الصالحون ، تركوا النوم وجعلوا اللالوب (أى خرزات سبح اللالوب) يبكى • وكما ترى قد جعل المادح ههنا اللالوب مثل جوارٍ يبكين عند الجِمَاع • وكان من عادة السودان أن الجارية اذ أرادها الرجل ، ولاسيما فى ليالى العرس، بكت ، فربما سَمِعَ صَوتها الجيران • فمن ههنا تتجلى لك براعة الاستعارة المتقدمة •

وزعموا أن الشيخ الدرديرى رضى الله عنه تزوج امرأة من سنار فبكت وأحزنه ذلك ثم علم أن تلك لقومها عادة فسُرَّ واستراد منها ، فالله أعلم أى ذلك كان •

هذا ، واللالوب ربما صُنِعت منه شَرْبة ناجعة ، فاتفق هو والسنا فى النسبة الى مكة ، كأنه يشار بذلك الى معنى الشفاء والله تعالى أعلم •

وكان التلاميذ يتحدثون عن شَرَبة يقال لها الكربون فما أدرى ماهيه • والذى أعلمه من أمر « الكَربُون » أنه الفحم وأنه فى ما بلغنى يصلح لعلاج الغازات التى فى البطن • وكانوا اذا قالوا « كربون » حسبته مادة سحرية من نوع « كربون » الورق الشديد الزرقة ، ومن مادة قلم الكوبيا وكانوا

يقولون أنها سامة • قالوا ويجوَّع الانسان لشربة الكَربون تجويعا ويعطى جرعــة من الصــباح كأنها سُــمٌ ناقِعٌ يَغْشَى عيونــه لها ظــلامٌ ودوارٌ أو ظلامُ دُوارٍ ، ويهوِّلون فى هذا كلَّ تهويل • ولكنها تُخرِجُ الدودة الشريطيـــة بلا ريب • وهى التى يســميها الناس الدبيب ، أى الثعبان • ويقــولون ان فلانا أعطــوه شربة فى الاستبالية ومرقوا منه دبيب من بطنه • ففكرة هذه الدودة الدبيبية (أى الثعبانية) كانت تخيفنا جدا • وكــذلك فكــرة دودة الفرنديت التى تستخرج بان تُلَف على أعــوادٍ مثل أعواد الكبــريت ، واذا أخطا التمرجى أو أخطأت أنت فى لفها انقطعت ، واذا انقطعت فانها تنمو كما كانت من قبل فى لحم عضلة الساق نموّا جديدا ، وتكرر المحاولات ولا سيما مكان دودة الفرنديت الفاسد اللين ، فى مخاوف الخيال الواضــحات التّصَور كالاحــلام المرعبــات تمامــا •

المرة الثانية التى رأيت فيها « دكتور » من مدرســة كتشــنر ••••••

دكتور بالســكون على الحكاية سئل الخليل رحمه الله عن قول العرب مررتُ على أيهُم أفضَــل بضــم أىّْ عــلامَ ضمُّوه فقال فى رواية سيبويه عنــه أن ذلك على حكايةِ سؤالهم : أيُّهم أفضل ؟ مستفهمين • واستبعد سيبويه هذا الوجه وزعم أنه لو جاز ، لجاز أن يقال اضرب الفاسقُ الخبيث بالرفع حكاية لقــول أنــاسٍ ذلك • ومــن العجب لســيبويه أنــه رجــع الــى قول أهل الحجاز للذى يقول مررت بزيد ــ من زيد ، يحكون قوله ، « انهم حكوا ماتكلم به المسئول كما قال بعض العرب دعنا من تمرتان على الحكاية ، تقول ما عنده تمرتان ، فانما أراد أن يحكى قوله عندنا تمرتان • وسمعت أعرابيا مرة وسأله رجل فقال : أليس قرشيّاً فقال ليس بقرشياً حاكيا لقوله!• •هـ »

رجــع الحــديث

المــرة الثانية التى رأيت فيها دكتور من مدرســة كتشــنر ، لما جىء بأبى من أتبرة الى فراش المــوت • وصلتنى اشارة بالتلفون من محطــة الدامر بأنه (خطرى) وكنت العب فى غفلات الصبا ، فنبهنى أحد التلاميذ الى معنى (خطرى) ففزعت وذهبت بالمحلّى ، ولاقانى أحد الناس فى المحطة وقال لى

بأنه صار أحسن ، استطاع أن يقعد اليوم . كانوا قد حملوه من المحطة على حمار . لم تكن بالدامر عربات . وجعلت الحقيقة المخيفة تتجسد أمام تصوري الجاهل . ولما دخلت وجدت حالته أسوأ بكثير من الوصف الذى سمعته . وقد ضعف جدا . ورفع رأسه بعيون الموت . كان لا يتكلم ولكن كان واعيا . أحنى رأسه بالمعرفة لما وقفت أمامه وعرفت فى عيونه أنه مَيّزنى .

وكان الفقراء حوله ومنهم يمرضه ويهبب ، ومنهم يقرئون يسّ . وجاءت سيارة الطبيب . كان عبور السيارة من أتبرا الى الدامر بمعدية ذات اسلاك وحبال وكان ذلك أمرا مخصوصا بسيارات الحكومة فقط . كان يلبس بدلة من النوع الفاتح الضارب الى اللون البنى الخفيف . وهو نفسه كان قمحىّ اللون ، لا أذكر من هو . وقالوا يُجاء له بفنجان قهوة بن ، وأحسبه أشار بأنه لا يريد ذلك . اقتراحُ تقديم قهوة البُن كان فيه نوع من الاشارة الى أنه من الطبقة الحاكمة . كان أول ما جسر السودانيون على تقديمه للمفتش الانجليزى قهوة البن ، اذ كرهوا أن يلم قريبا من بيوتهم ولا يقدمون له عروضا ، ولم يجد هذا بدا من قبولها بالادب الذى ربّىَ عليه ، وبدافع ذكاء حبّ الإستطلاع ، ثم ساغت له ، فلم يَخْل من عدم كراهية توقعِها كلما ألمّ بقرية .

ووضع الطبيب سماعته ولون لستكها جديد ، وكان شابا ظاهر الشباب ، وحديدها يلمع . شعرت حينئذ — استحضر ذلك الان — أن عمله واكبابه كل ذلك لا معنى له . وكذلك مجهود الفقراء ، يتفلون فى إناءِ العسل :

فسبحان الذى بيده ملكوت كل شيءٍ واليه ترجعون ...

..... آمين ... تف ....

الا أنه كان أروح للنفس ، لانه سيخفف عليه فى ما بينه وبين الله . فيه الأجر .

وذهبت السـيارة بالدكتور الأنيق الشاذ المظهر والروح والاسلوب فى تلك الساعة من ساعات الاحتضار بمشهد من الفقراء والاسـلام .

ـ لا الـه الا اللـه

وقف الفقـراء حول فراش الوالـد يهيئونه للقـاء ربـه . مات فى نفس اليوم ، نهار الثلاثاء ، مر على حين من الدهر وأنا انكمش من يوم الثلاثـاء وأوشـك ان أتشاءم منه . ثم انحسر عنى ذلك بحمـد الله وعـونه . كل الأيام لله . وكلُهن موضـع خِشية وموضـع رجاء .

وكلّ أناسٍ سوفَ تدخُلُ بينَهم دُوَيْهِيَةٌ تَصْفَرُّ منها الأنَامِل

المرة الثالثة التى رأيت فيها دكتورا من مدرسة كتشنر حين انكسرت يدى . بالطبـع رأيت كثيرا منهم قبل ذلك فى الكشـف الطبى . وكح . ودق دق دق على الصـدر والظهر ، وفتـح الفـم ، ومد اللسـان ، وقلب الجفن ... ولكن شيئا من ذلك لا يكـاد يليق بالذاكرة منه شىء .

كنا فى المدرسـة الثانوية ، كلية غوردن ، نُرسَل عند المـرض الى عنبـر مخصـوص لنا فى اسبتالية النهر . وكانت فيها عنابـر للسـل الـرئوى . ووجدنا انهم يسـمونه تى بى . T.B . فكنا نخاف من ذلك جدا .

وكان قـولهم « تى بى . » نفسـه من الطلاسـم المخيفـات مثل قلـم المخابـرات ، ومثل البوليس السرى ، وهـذه النحيف عنده « تى بى » وفى خدوده شىء كالعرق . وهذا ذهب لاسـبتالية النهر فى عنبر الـ « تى بى » ، والآن هو سمين . كل من عنده الـ « تى بى » يصير سمينا على وجهه عرق .

أُعِيذها نظراتٍ منك صادقةً أن تحسِبَ الشحم فى من شحمه وَرَمُ

والسل يسـكن فى البيوت ، وكل بيت يدخله لا يخرج منه الا اذا هـدم وكشـف للشـمس . ولكن عنبر الكلية المخصوص فى « اسبتالية » النهـر ما هدموا سـقفه . . رشـوه بالأدوية التى تقتل المكروب . ولكن ألا يجوز أن احدى الجـراثيم اختفت وراء ورقة . قالوا أن كاترين دى مدسى سمَّت شـارلس التاسـع ابنها فى ورقات كتاب فيها نفثات مسـلول ، وأحكمت

الصاقها فاضطر الى أن يمسها باصبعه بعد أن يضعه فى لسانه كل مرة، ليُفرِدَ كل صفحة من أختها ، فأصابته العدوى القاتلة .

وكأيٍّ من حلةٍ ناس كاملة أبادها السُل : يموت الأبُ الكبير ، فالابن ، فالاخ فالاخت ، فجار فجار آخر — المرض البارد — الـ : تى بى T.B.

كنا نرقد فى عنبر التلامذة للملاريا . ويجىء الدكتور وينظر الينا ويجاملنا وينظر فى الورقة التى فيها درجة الحرارة . ودرجة الحرارة اليوم ٩٨ مع خطين ... « نورمال » تقريبا ، أى درجة حرارة الجسم الطبيعية . كان الأطباء يهتمون بنا . ولكن كان فى هذا الاهتمام بنا نوع من بعد شديد عنا . كان الطبيب كأنه طبقة أخرى تتحرك فى داخل العنبر . كان خاليا من محاولة الوصول الينا التى عند المدرس — التى كانت عند مساعد الحكيم لماكنا فى المدرسة الوسطى . كان التمرجيون يزيدون مسافة هذا البعد بالذى كانوا يظهرونه من مزيد الاهتمام بساعة مرور الدكتور أكثر من حالة المريض نفسه . لكن بعد ما نقلونى الى العنبر فى ليلة الكسر وأحسست بكلاب الألم تنبح فى ذراعى ، اهتم التمرجيُّون بى وأعطونى جرعة نمت بعدها .

أرسلونى للأشعة . كان الكسر فى العظمين ، بسيطا ، عند الرسغ . قرروا عملية وتكلموا . قال الحكيم الكبير : بنج توتال — أى تخدير كامل بالبنج . هَلاّ هلاّ . العمليات هنا مجرد تجارب . فى مصر البنج له حكيم مختص والعملية نفسها لها حكيم آخر . على باشا ابراهيم أحد بضعة قلائل يشار اليهم بالبنان فى كل العالم . هو الذى عمل العملية للسيد على المرغنى .

جاءوا لابسين « البالطو » الأبيض . حفوا بى حولى . وأرقدونى فوق « اللستك » (فراش من المطاط) الأحمر فى غرفة العملية . كان واضحا لى أننى لم أكن موضع عطف من حيث انسانيتى المباشرة ، من حيث انى الشخص « فلان » . كنت موضوع انشاءٍ على السبورة .

كنت حين سألونى حريصا على اشعارهم بشخصيتى وذاتيتى ـ وصفت لهم شعورى بالبنج والالوان التى أراها جاء شىء لذيذ كالنوم بعد مقدمات من الأحلام ذات الرؤى ، وكانوا بعيدين يراقبون قضيتى ـ تعوم ظلالهم وراء ماء وزجاج ٠٠٠٠ تتلاشى ٠٠٠ وكأنما أحسست أن أحدهم قال :الآن نام فاذبحوه ٠

أَفقت من البنج فى عسرٍ شديد ٠ وبعد يومين أُرسلت للأشعة وظهر أن الكسر لم يلتئم ، وقرروا عملية أخرى ٠

لم أكن حقا أريد أن أكون دكتور عندما قلت للمفتش الانجليزى الذى امتحننا واسمه المستر لى وأنا فى نهاية المدرسة الوسطى :

I want to be a doctor

وصح عندى بلا شك اننى لا أريد أن أكون دكتور وأنا فى السنة الثالثة فى الكلية (كلية غوردن) فى الفصل الممتاز ٠ نفرت من سمت تقديم طقوس النظام على أريحية العلاج مع شىء من روح تأله : شىء استعمارى ٠ نعم ٠ مرت السنون وخبرت أنواعا من الانسانية فى الدكاترة ٠ أخص بالذكر الدكتور حسين فى « استبالية » العيون ٠ على أن زميليه الدكتور ماكلفى والدكتور الباقر ابراهيم رحمه الله كانا فى غاية الاتقان ٠ ولكن الدكتور حسين كان بشوشا بزيادة كبيرة على الأسلوب المهنى فى الملاطفة ٠ كان عنده من اليُسر وعدم التكلف ما يخلق علاقة مباشرة بينه وبين المريض شبيهة بالتى تكون بين الأستاذ والتلميذ ٠ لدى جميع هؤلاء الثلاثة واحدا واحدا أصبت عناية عظيمة مع جودة فى النظافة والعلاج ٠ وقد اجتهد الدكتور ماكلفى فى أمر عينى اليسرى كل اجتهاد ٠

كنت أسير ٠ أحسست بعد مجاوزتى ناحية الكُبْرِى (الجَسْر) الذى على النيل الازرق بظلام ما يغشى احدى عينى كأنه غمامة مارة ٠

وفى صباح اليوم التالى (كان الاحساس بما أحسست به وقت العصر قبل الغروب بأكثر من ساعة) بدا بياض يترقرق عند جانب السواد من المقلَة غير غالب على لونه ٠ ذهبت الى المستشفى ٠ قبل أربع سنوات ،

فى السنة الرابعة بالمدرسة الوسطى فى نصفها الثانى مرضت حتى شارفت الموت ٠ والآن ، فى رابعة التجهيزى ، عند نهاية الكلية ، فى ربعها الرابع ، تتلقانى هذه الكارثة ٠ هل كان هذا نتيجة جرثومة عدوى فى خريف رحلة كردفان ؟ هل أصابتنى العين ؟

لم تنجع المراهم والقطرات من بينها — من دون شك — نترات الفضة القديمة ٠ كشفوا على الدم ، يأخذونه مرتين من الوريد مباشرة ٠ أعطونى من الحبوب والأسقية ٠ صرت كما قال ابن أحمر الباهلى :—

شربْتُ الشُّكاعىٰ والتددتُ أَلِدّة ً ... وأقبلتُ أفواهَ العروقِ المكاويا

وأرسلت الى معمل « استاك » الطبى ، حيث تلقانى طبيب يشبه الذى قال : « بنج توتال » فى السحنة وهيئة الطول وتعبير الحنك والعينين ٠ وأعطانى حُقَيْنَة صغيرة تحت الجلد لم يتغلغل بها ونشأت منها «نَفَحَةٌ» صغيرة مثل الحمصة البلدية أو أقل ٠ كانت الحقنة فى ما بين الرسغ والمرفق ، أقرب الى الرسغ، فى اتجاه راحة اليد مفتوحة ، وأعطانى «الكرت» فعرفت أن اسمها تبلوكولين Tuberculin ، وقال لى ان أحضر بعد كذا — ثمان وأربعين ساعة أو أقل — ولما حضرت المرة الثانية نظر الى « النفيحة » وهز رأسه ٠ فسألته ان كان ثم شىء يدل على وجود ٠٠؟ وكأنه انزعج قليلا ، قليلا جدا ، للسؤال ، ثم انطلقت أساريره ، وقد ذكرت له أن مكان الحقنة قد احمر شيئا ، فقال ان هذا كلا شىء ٠٠٠ ان كان عندى « تى بى » ٠ T.B فانها تنتفخ وتصير مثل هذا ٠٠٠ وأخرج قطعة نقود من جيبه وقال ، مثل التعريفة (أظنها تعريفة نيكل ٠ لا توجد الآن) يعنى فى اتساع قطرها ، ويتبع ذلك ارتفاع أو أكثر وكان شرحه واضحا ٠

أعطونى ثلاث أو أربع حقنات ثم لما استيأسوا عادوا الى المرهم مرة أخرى ، وقالوا ان العين ستطيب من تلقاء نفسها — قال ذلك الدكتور ماكلفى ، ولكن بعد علاج ٠ وشفيت ٠ ومرت على « البياضة » فترة

اشتدت فيها وكادت تغطى الحدقـــة كلها • كـــان مثل كســـوف الشـــمس الجزئى الكبير • وزالت • ونقصت قوة العين من ستة على ســـتة الى شىء دونها ، لا بكثير • وعند اشتداد البياض حزنت ورثيت عينى بقصيدة جيمية مثل مرثيـــة ابن الـــرومى :ـــ

أمامكَ فانظرْ أى نَهْجَيْكَ تَنْهَجُ   طريقان شتّى مستقيمٌ وأعوَجُ

فى الوزن والقافية • وابتهلت فيها بالدعاء ابتهالا • وضـــاعت منى فلا أذكر الا قطعـــة من بيت :

فهب لى يُسْـرىٰ ناظـرىّ التى بهـــا

لا أشـــك أن مثل هذا الدعـــاء كان له أثرٌ عظيم فى زوالها • والله سبحانه وتعالى يقول : « وقال ربكم ادعونى أستجيب لكم • » وقال تعالى : « واذا سألك عبادى عنى فانى قريبٌ أجيب دعوة الداع اذا دعانى » •

هذا وأخص بالذكر الدكتور عبد العزيز نقد • كان حكيمبـــاشى الـــدويم فى ســـنوات الاربعين الاولى • زرته بمجموعة من تلامذة الكتـــاب ، وكنت آنئذ (سنة ١٩٤٢) فى أخريات التمـــرين ، فى المســـتشفى ، فى حصـــة من حصص الجغرافية المحلية • كنت انما أؤدى واجبا لانى لم أكن راضـــياً عن الجغرافية المحلية كما وضـــعها المســـتر غريفث وكأنه ينتقد بهـــا أســـلوب التعليم القديم ، ولو احتفظ بشىء منـــه أفضـــل • كنت أدرى أن التلاميـــذ لا يتبعـــون خطـــة الطريق المرســـومة ، ولكن يصـــلون الهدف من أقـــرب وجـــه لتمام معرفتهم ببلدتهم ثم يغشـــون فى صـــفة الطريق الذى سلكوه فى مابعد ، ومـــع أن هذا كان لا يخلـــو من فائدة ، كان فى ذاته بعيدا جـــدا من المـــــراد •

كنت أريدهم ليستفيدوا وأُرجح أنهم سيجدون ذلك فى زيـــارة المستشفى أكثر من أية من الزيارات الأخرى للســـواقى وما أشـــبه ، مما سبق لهم أن قتلوه علما ، فلن يجـــدوا من زيارته الا المَـلال • هش اليهـــم الدكتـــور عبد العزيـــز • وطاف بهم • واستخـــرج من أدوات العـــلاج الجرائحيـــة

مجموعة وجعل يشرح لهم بأريحية وشــهامة وهم منتبهون كأنما يستمعون الى أســطورة • ورفــع أداة بيده وقال فى حالة عُسر الولادة المســتعصى نطمن الجنين بها فى دماغــه فيمــوت داخل البطن ، ونقطع أعضاءه عضوا عضوا ــ اليد ــ الرجل ــ الرأس ــ شيء مخيف • ولكن التلاميــذ استمعوا وانتبهوا بلا خوف ــ كان الشرح واضحا مفيداً • فهموا شيئا من أمر عسر الولادة وضرورة إنقاذ الأم • ولعل من صار منهم طبيبا بعد أن يكــون قد انتفــع بتلك اللحظــات أى انتفــاع •

وسوى هذين اللذين خَصصتهما بالذكر جماعــة من الفضلاء ، منهــم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر ، أهل معرفة وجد واحســان ، جــزاهم اللــه خيرا كثــيرا •

كان من خير من عرفت من مساعدى الحكماء الدكتور اســماعيل أفنــدى كرار • كانت كلمة « الدكتور » فى ذلك الزمان تعنى الطبيب الــذى يعالــج بأدوية المستشفى العصرى وجراثحياته • وما ســواه بَصِير وفَكِى • وماظهر شيء من الدكاترة الذين لا يعالجون ، دكاترة بى اتش دى ودكتوراه ديتــا ، وتروازيم ســيكل وهلم جــرا • قالوا الشيخ الــرَيّح العيَــدروس أخــذ دكتوراه فى الفلك • وبعدءببضــعة عشر عاما أخذ اســتاذنا الدكتــور مكّى شبيكة أول دكتوراه فى العلوم التأريخية فى آخر ســنة ١٩٤٩ ثم الدكتــور عبد الله الطيب فى يونية ١٩٥٠ • قالوا حينئذ Paper Qualification (أى قصاصة ورق) قال هذا الحكام • لا يمكــن أن يعطى السودانى أكثر من وظيفــة Junior lecturer أى محاضر صــغير حتى تصهره التجربة وتتبين حقيقة معدنــه • وقــال أحــد المســئولين أولاد البلد الذين كانوا ينظرون الى الدكتوريات الأدبيــة (أى اللاطبية) بنكران ساخر : « لابد للواحد من شيء من المرمطة » ــ اشتقاق المَرْمَطَــة من المرمطُون وهو المســاعد الأخير للطباخ ويغســل الآنية ويأكل الفضــلات •

كنت أود أن أكون مثل الدكتور طه حسين لما كنت فى المدرسة الوسطى، ولكن لم يكن هذا المعنى واضحا فى ذهنى لما قلت للمفتش : أريد أكون دكتور • شدما أعجبت بعلى هامش السيرة • سمعت بالأيام • ولكن لم أقرأه • لاتنس انى كنت أنظم الشعر وأحب شوقى وأبا تمام ، والشعراء ليس فيهم دكتور • وكنت فى السنة الرابعة والثالثة قد تغلبت على المخالفة فى الإعراب عند حرف الرَوى • كنت اظن خطئاً ـ أم لعله صواب ـ أنه يجوز رفع المجرور وجر المرفوع من أجل القافية • أليس زهير يقول :

وإن الفتى بعد السفاهة يحلم ى

ومن يكثر التسآل يوما سيحرم ى

أم ليس الحرث اليشكرى يقول فى المعلقة :

ملك المنذرين ماء السماء •••• هذا •••

وكان الدكتور اسماعيل أفندى كرار من أُولى الفطنة والخلق الكامل • وعند الاسماعيلية أن كل اسماعيلٍ كامل ، تبركا بالسيد اسماعيل الولى •

كان يعاوننى بالعطف والتشجيع والاعجاب وأساعده فى بعض درس الانجليزية فيجعل ذلك سببا الى مساعدتى بالمال أحيانا كثيرة • وكان يستمع الى باعجاب صادق • وأطلعت على كثير من النشرات والمؤلفات الطبية التى كانت لديه • وكان يقول لى انه يريد ابنه لما يكبر أن يكون مثلى • وأشهد ما كنت بشىء الا أنه كان أمرأً كريم المعدن ذا مروءة مفضالا • وكان ملاحظ الصحة معه ، مجذوب أفندى ، من أهلنا ناس بربر بالغرب ، من أهل الخير والطريق • ونقلوه بعد ذلك بزمان الى الزيداب • واستزارنى فزرناه أنا وطبيب بلدتنا الذى جاء بعد الدكتور اسمعيل كرار وكان قبله بها حينا ـ الدكتور عبد الرحمن أفندى الحسن ـ وكنت على صهباء قلوص فخيف عليها من اللصوص ولاسيما وقد وصلت مجموعتنا بشكل يلفت النظر ، د • عبد الرحمن أفندى على حماره الناصح ، والشيخ

عليش على حصـــان مطهم وأنا على البكرة ٠ فأوصدوها داخل حوش وكنت استعرتها من خالى ٠ وأذكـر أنه اشـترى لى مجذوب أفنـدى قمـاش جـلابية جيـدا ٠

لما كنت فى مدرسـة بربر الوسطى أجد من أمـر الملابس عنتا شـديدا ولا سـيما بعد ما نضبت أخريات ما خلف الوالد عند الوالدة من صيغتهـا ، وبيعت صـحون النحـاس ، واختفت أقـداح الدبكـر ، وما سـلم بعض الطين ٠ فصل لى مولانا شيخ جـلال مجموعة طيبة عند حميدة ود بكـرى بالدامر بعد ابلالى من مرضتى الطويلة التى استقبلت بها الكلية ٠وكان الشيخ بابكر عبد الله رحمه اللـه لاينى يعيننى ويختـار القماش الجيد للجلابيـة والعمـة ٠ وكان ابنه محمد يُولم لنا تلاميذه السـنة الرابعة الولائم الجياد وفى المـدة التى سبقت النتائج ما كان لنا من شـغل غير الولائم ٠ فذهبنـا مرات الى منزل ابرهيم على وكان قد جاءنا منقولا ، والى منزل المرحـوم أحمد السيد محمد بابكر ٠ كان من الأذكيـاء المفرطى الذكاء ٠ دخل قسـم الحقوق سنة ٤٠ ٠ كان زملاؤه يجدون ويكدون ٠ وكان منهم جماعة أكبـر منه سـنا وأوسـع تجربة اذ قد عملوا موظفين بالحكومـة دهـرا قبـل الانخراط فى المدارس العليا ٠ ومن هؤلاء من حفظ أسـماء المتاجر فى أحـد شـوارع الخرطوم ، (الآن شـارع الجمهورية) بين المحطـة الوسـطى وفندق سنت جيمز ، وجعل يسمعها طردا وعكسـا يروض بذلك نفسه على حفظ القوانين ، وكان جفاف القانـون وكثرة مـواده من شريعـة ونَحْـوٍ وفلسفة ومقدمات وقضايا ، كل ذلك بالنسبة الى أحمد السيد ، رحمـه الله كأنما هو ملهاة من ظاهر يسره عليه ، وعدم اهتمامـه بالكـدّله ، وسـهولة نجاحه فى كل امتحـان ٠

ونقلت مرة كراسـة فى الأمراض ٠ ولفت نظرى بوجه خاص أن رائحـة فم صاحب السكرى مثل رائحة التفاح ٠ وكان التفاح شيئا لا يعرف ٠ قرأنا عنه فى قصة « سنو هوايت Snow White والأقزام السبعة »

كان ينبغى أن يقال مثل رائحة النَّبق الغضّ • من العجائب أن قومنا يسمون النبق الغض الجيد « تفاحى » ولا عهد لهـم بالتفـاح الا أن يكـون محض ذِكرى لغوية • وأعجب من ذلك أن طعمه مقارب لطعم التفاح •

وكل مرض له مضاعفـات توشـك أن تجعل أمر العلاج كله باطلا • مثلا مذكور فى مضاعفـات الالتهاب الرئوى السـل الرئوى نفسه أنه أحـدها • وكان الدكتور اسمعيل كرار يتكلم عن المضاعفـات وخطـورتها • خفت من الالتهـاب الرئـوى وأرعبنى أن الرئـة فيه تصـير مثل الكبد • (قالـوا ورئـة صاحب الدخان كذلك •) أذكر حين مرضـت خالتى فاطمة من بعد ، رحمها الله به وكان سـبب وفاتها • كانت مثل جدتنا بنت حواء ذات شكيمة وشخصيـة قوية وحزم • وبلغنى أن وفـاة الوالدة من قبل ، رحمها اللـه ، كانت به • وأحسـب أن شـقيقتى أم الحسنين ماتت به ، مع أن الحكيـم الذى كشـف عليها ظنها مريضـة بالملاريـا :

والمنايا بَين سـارٍ وغـادٍ كلّ حيٍّ برهنهـا غَلِـقُ

ومرة صافحت شخصا كأنه مد الى يـده • فما هو الا أن جـاء الدكتور اسمعيل بإناء فيه مُطهِّر وغمست يدىّ فيه ومسحهما من بعد بمادة مطهرة• وقيل أن الشـخص متهم بالمرض الكعب • وفى الكراسـة أن الجُذام بطىء العـدوى وتستغرق حضـانته عشراً من السـنين وخمس عشرة وخمسـة وعشرين • وقال لى النطاسى الاستاذ الدكتور التجانى الماحى رحمه اللـه ان صاحبى السـل والجذام من أشـد الناس حسـدا ، لو استطاع أحدهما أن تنتقل عدواه الى ابنه الوحيد لفعل • وزرت الدكتور اسمعيل كرار لما صار الى شـفخانة كبوشية ، وكان فيها يقـام سـوق كبير ، وكان فيه أحـد التجار « البنيان » شاب دقيق الجرم والتقاطيع كنت آنئذ فى المدارس العليا فى أولها • وكنت آنس اليه ونتحدث عن الحـرب • وأهدى الى فنلة صوف بلا أكمـام • وذهبنا الى « الطرابيل » أى أهرام البجراوية ، بالحمـير • وكنت أراها من القطار فتتوق نفسى الى رؤيتها • وهى بنـاء محكم • وقد

علمت من بعد أن الصدوع والخراب الذى بها انما طرأ فى القرن الماضى ، لما قدم بعض الطليان ، فحصل على اذن بتنقيبها ، وكان يأمل أن يصيب فيها كنوزا كالتى أصاب الحفريّون بمصر . وهان على أولى الأمر شأن السودان وأهله فأذنوا له أن يخرب كما شاء . ولا يخلو أن يكون الاجانب قد استكثروا على بلد السودان أن تكون فيه ، فى عمقه البعيد كالبجراوية ، آثار حضارة سالفة وأهرام . ولعله قيل للأهالى أن الطليانى انما جاء ليستخرج تركة أجداده ، فصدقوا ، لانهم انما كانوا يعتقدون أن تلك الآثار من بناء الكفر ، ويقولون لمعبد المصورات «قصر أَبْ جَهَلْ» — يعنون أبا جهل القرشى الكافر — والنصارى — (أى الانجليز ومن اليهم من الافرنج — كانوا لا يستطيعون التفرقة بينهم كثيرا ويسمونهم جميعا التُّرْكْ والنصارى) — كانوا من قريش . فقط بقوا على كفرهم . ولكنهم أحرار وعُزَاز — أى أعزاء .

ومررنا على عبد الله الماحى فصنع لنا شايا . وهو الذى كنت أسمع صوته فى كسلا من الاسطوانة — أم بعد ذلك ؟ فى الاغنية المشهورة : نَظْرَه نظره يا السَّمْحَة أم عَجَنْ .

واتفق الوالد وأزرق أفندى أحمد — رحمهما الله — على أنها أجود الاغانى السودانية جميعا وترنما بأولها وهما عائدان من المشرع ولم يجدا المركب ، وكانت الدنيا عشاء والقمر ملء السماء . ترنما بصوت خفيض شَجِىّ . وكنت فى كسلا اسمع صوت الفونوغراف من جيران لنا ، ويقول الفونوغراف :

لو تجازى ولو تسمحى
حنانة ريدك ما بيتمحى

وكان الفونوغراف آنئذ شيئا جديدا ومن بدعات المدنية . وماعرفت أهمية ابراهيم عبد الجليل رحمه الله الا بعد زمان . كنت أسمع من جهة السوق أسطوانته :

حبيبى جمالـه ال بيشـرح صـدرى
النور فى جبينـه يفـوق البـدرى

فلا أعيرها اهتماما • وينبغى أن أكـون قد ارتحت لها بحجة علوق هـذا البيت منـذ ذلك الزمـان بالذاكـرة •

وكان عمى جبـارة فى الداخلية يتـرنم :

ياعـزة الفـراق بىَّ طـال
وسال سيل الدمع هطـال

وكان الناس المثقفون آنئذ مفتونين « بعزة فى هواك » • وكان أسـتاذنا الهادى أبو بكر يقول إن فيها تنويعاً بالنسـبة لرتابة الاغانى السودانيـة وخصـوصا فى :

خـذينىباليمـين أنا راقـد شـمال

كانت اقامتى التى أقمت بكبوشيـة ممتعـة مفيـدة • رأيت الآثـار بعد ذلك مرات ، وعرفت بعض تفاصـيل متعلقة بها من القـراءة ومن أحاديث الزملاء المختصـين • يقول بعض السفهاء من الناس أن الاحاديث الشفهية لا قيمة لها فى معايير العلم الحديث • أحسـبهم لا يريدون بذلـك الا محض مهاجمة الاسـلام ، وأخذوه عمن يريدون ذلك ولم يتنبهوا وهم لا يشعرون هذا ، وقد جعل الاهتمام بآثار النوبة يزداد منذ البداية فى عمليات انشـاء السد العالى • ثم انساق الاهتمام من النوبة السفلى الى النوبة العليا التـى هى بلادنا • ولم يكن مثقفونا يعيرون هذا الامر بالا فأقبلوا على ذلك بأخرة وبعثت الدول بالعلماء والخبراء وخف من أصناف البشر الأكاديمى خلق كثير •

أنكرت طعم اللحم بكبوشية شيئا ما • ذكر لى أن ذلك سببه المُشُكْ بميـم مضمومة وشين مضمومة أيضا وهو ثقل المريسة والمريسة تصـنع من الذرة الا فى جبل مرة فانها تصنع من القمح • واشتقاق المريسة عربى لانها تصنع من الذرة الممروسـة فى الماء ، تقول مرست التمر وغيره فى الماء اذا انقعتـه فيه ويجوز أن يكون اشتقاق ذلك من ممارسة صانعها لها بيده • وهل المشك

بضمتين أو ضمة فسكون ، عربية الاصل ؟ فى ذلك نظر . وان تك من أصل عربى فلعلها من البشك وهو الخلط وفيه معنى السرعة وتكون باؤه قد قلبت ميما ، ومثل ذلك قد يتفق . ومن البشك كلمة الابتشاك التى جاءت فى شعر أبى الطيب بمعنى الكذب ، وفى أبيات جميلة هام فيها وراء الخيال ونسى الممدوح والمحبوبة معا ، وذلك قوله :

وما أرضى لمقلته بحلم   اذا انتبهت توهمه ابتشاكا

هذا ،

وذلك انهم يعلفون البهائم التى يؤتى بها للجزارة « المشك » فيقال انه عجيب فى التسمين .

وحضرت عملية خراج جىء بصاحبها الى دكتور اسماعيل كرار وكان موضعها من فخذة قد تورم واحتقن واصفار . فجد فى أمره . وكانت ناجحة وشفى الرجل على يديه فى زمان وجيز .

ثم أحسبه نقل من كبوشية ولم ألقه الا بعد زمان ، وذلك بعد عودتى من بخت الرضا لاستأنف العمل فى كلية الخرطوم الجامعية .... رعى الله عهده الطيب وجزاه عنى خير الجزاء .

****** **** *****

لقينى فى محطة الخرطوم بحرى عبد الرحيم أفندى الطيب .

كان يلبس بدلة حسنة فاتحة اللون ، أدنى الى السمنية ، وطربوشا أحمر جيدا حق أنيق . كان ـ رحمه الله الرحمة الواسعة ـ متهلل الاسارير .

حيانى بفرحة ، وهنأنى على القبول مجانا داخليا . وهل سألته ؟ كأنه همس لى بصوته العميق الجرس أننى أول اللجنة . لا أنسى همسه ذلك كأنما يخشى على من العين أو الحسد أو الغيرة أو المنافسة .

وتلقانى فى محطة الخرطوم زملائى من مدرسة بربر الذين سبقونا فى الدفعة الماضية والدفعة التى قبلها . كانوا مثل تيم الكرة الفائز . أحمد مجذوب عبدون . على التلب رحمه الله . لازلت أذكر جودة تمثيله دور Box

فى رواية Box and Cox
— مجذوب أبو النجا ، وقد التحق الآن بقسم الهندسة ، كانت تلك آخر دفعة للهندسة تؤخذ من السنة الثانية ٠٠٠٠ نعم أنا أول اللجنة ٠

****** /**** ****

كنت مهموما ٠ سؤال الانجليزى كان مطلوبا فيه استعمال كلمات فى سبع جمل ومن سبع كلمات ، فاستعملتهن فى تسع وأربعين جملة ٠ وكانت فى الحساب مسئلة طويلة من مسائل المبانى ، الطول والعرض والارتفاع والسمك واصناف من التحويلات وحجم الطوبة (أى الآجورة)

٢٥×١٢×٧٧٦ سم ونسبة المونة ٦٪ ٠٠٠ أخذت منى زمنا فى مراجعة الارقام ٠ كان امتحان الاملاء والانشاء فى حجرة السنة الرابعة لم أخطىء فى الاملاء الا أن يكون سهوا ٠ فى الانشاء الانجليزى طلب منا أن نكتب فى موضوعين أحدهما جاف ، لعله رسالة أو وصف ، والاخر خيالى وانتهزت هذا لاكتب فى مغامرة فى الحبشة هزمت فيها فرقة من جنود بادوليو Badoglio ٠ كنت حضرت للامتحان بلا ريشة (أى قلم حبر) ٠

ضاعت أو نسيتها أو اختفت بين قصاصات الورق فى الدرج ٠ ورآنى المفتش أقعد وأقوم وأبعثر ٠ وجاء المفتش ود البلد ، الاستاذ النصرى حمزة ، وعرف ما بى وأعطانى ريشة ، وكان خطى جيدا صحيحا — وصحح المستر لى الورق وعجب من اصابتى كتابة أعلام الرجال والبلدان ، وأعطانى ٢٠ فى الخيالية من ٢٠ و١٨ فى الجافة من ٢٠ ٠ وبعد انتهاء أيام الامتحان ، ومضى فترة النقاهة من حمى الامتحان والاستمتاع بالولائم ، جعل يدخلنا الخوف وقلق انتظار النتائج ٠ وفزعت الا أكون قبلت ، وخرجت من الداخلية ، وتنقلت بين الزملاء الخارجية يومين أو ثلاثة — ومرة ذهبت ضيق النفس الى شاطىء النيل عند الزراعية ، ضيق الذرع بانتظار النتيجة — تمشيت فوق الجروف الخضر باللوبيا ٠ دخلت فى الزراعية كأنى لم أرها من قبل ٠لا ٠ لم أكن أفكر فى الانتحار ٠ والقصيدة التى فى الشوقيات تتحدث عن الانتحار لم أفهمها لا أذكر منها الا نونها أو ميمها وهاءها وأنها من بحر الرمل ٠ الآن لا أفهمها

ولا تعجبنى • كنت أتمشى قلقا ، ولا أكاد أرى من حسن طبيعة النيل ، وهو هنالك جميل ، من شىء • واذا بتلاميذ يبحثون عنى • يريدونك فى الداخلية جاءت النتائج • لقيت أحمد السيد ومحمد أبو بكر وابراهيم على • ولكن فلانا الذى كان ينافسنى لم يجىء اسمه فى قائمة المقبولين • لم يخنقنى كما أرى فى الحلم • لعلى أنا الاول • مع ذلك لم أرتح لعدم قبوله • كان من أحق الناس بأن يقبل • ضيق فرصة المجانية وحده هو الذى منع قبوله وكان فى الخمسين الاوائل • ولما لقيته فى الخرطوم أهديت له أنفس كتاب عندى ، مختارات البارودى • كان أوعى منى وأبى أخذه • ثم لما أحس صدق رغبتى أخذه • ما لقيته بعد ذلك الا أحيانا جد قليلات •

جاء التلغراف وفيه اسمى ، مجانا ، داخلى •

وذهبت الى مكتب حضرة الناظر • وكان يكتب التصريح المجان • أفضل الصاد على السين فى التصريح لأن فيها معنى البيان • والسين والصاد بعد تتبادلان • وناولنى التصريح وقال لى : مجانا داخلى ثم أضاف (ما تستاهلش) ••••• جرحتنى عبارته هذه جرحا وكنت أقل ما أتوقع منه تهنئتى وتعريفى بترتيبى أن كنت الاول أو لا أو شيئا من هذا القبيل •

كان لا يحبنى • أحسست ذلك فى تصحيحه لى موضوعات الانشاء الانجليزى وغيرها وأعطانى درجات فى ما بين ١٤ و١٥ الى ١٢ مع اجتهادى وجودة خطى • كان فى درجاته عنصر تثبيط لم أرضه : أحسست (ان بعض الظن إثم) به كأنه كان متعمدا • ومرة طلب منا أن نكتب موضوعا : كيف تصرف مائة جنيه لو صارت اليك • واستعمل كلمة Spend

وجاءتنى فرصة الانتقام من درجاته المثبطات • فرسمت عمودين حسابيين على الورقة ، فى هذا له credit نقلت طريقة debit وفى هذا عليه رسمها من ورقة دفتر حساب تجارى كان للوالد رحمه الله • ولم أضع الا الارقام • والحاصل صفر • صرفت الجنيهات المائة بندا بندا ، وكل بند ثمنه طبعى معقول مقبول •

وكتب فى آخر الصفحة بالقلم الاحمر Funny ولم يضع درجة واغتاظ وانتقد أحمد السيد (رحمه الله) نقدا عاصفا لانه بالغ فبنى من المائة الجنيهات معامل تحتاج الى مليون • نعم مبلغ المائة كبير ولكن لا الى هذا الحد غير المعقول • وهذا — وأشار الى ورفع كراستى ، ونظر الى شزرا وقال يقرأ نفس ما كتبه Funny علمت بعد ذلك ، مسئولية ذلك على راويه ، أنه لما سألونا أن نتقدم وتقدمت مجانا داخلى لفقرى ويتمى وتقدم ترتيبى علق على ذلك فى التوصيات السرية تعليقا مضادا ووصى بأن أقبل بالمصاريف الكاملة بحجة أن أحد أقاربى موسر ومدرس فى كلية غوردن يعنى الشيخ جلال رحمه الله • ولما علم بعض الاساتذة أمر ذلك من توصيته اتصلوا بالمفتش الذى جاء من الخرطوم وأفهموه بالحقيقة وأن هذا ولد فقير جدا ويتيم وذكى ومحافظ على الاولية وأن حضرة الناظر لا يحبه ووصى على تلميذ آخر أبوه موجود ويظهر أنه قريب له ، وكانت لكل مدرسة فرصة واحدة للمجانية الا أمدرمان الاميرية لانها كان فيها فصلان •

قالوا وقد سئل مولانا الشيخ جلال فذكر استعداده لدفع المصاريف وبين بعض أمر الولد للمسئولين •

هذا الصراع الخفى كله لم أعلم به • علمت فقط بقول حضرة الناظر : ماتستاهلش وليته وصى علينا الاثنين واشتد فى ذلك ، واذن لعله كان يحبنى بدل أن يقرر كراهتى ، وكنت أستفيد منه أكثر ••• كان مرة كتب لنا قطعة ترجمة نموذجية ترجمها هو من نص انجليزى أمامنا فى قصة « مونتى كريستو » من بعض خبر الاب فاريا ، وبدأ نصه العربى النموذجى بالفاء •• ففى سنة كذا وكذا •• أظن هكذا كانت بدايته ••• وكان تسلسل الكلام فى نص الاصل وتعاطفه يقتضى ألا يبدأ فى الترجمة الا بحرف يدل على العطف • وما كانت الواو تصلح لما فى اشعارها الاضافة الى شىء سبق • كانت الفاء أصلح شىء لما يلابسها من معانى الاستئناف • ولكن الاستفادة

لاتكون الا بالتجاوب ، والتجاوب لا يتأتى مع احساس غير الود • والاغراض مزلـة اقـدام •

والظلمُ من شـيمِ النفوسِ فان تجـدْ ذا عفـّةٍ فلِعِلّةٍ لا يَظلِمُ

فارقت أكثر زملاء المدرسـة الوسـطى عندما صرت الى كليـة غوردن • كما كنت قد فارقت أكثر زملاء المدرسة الاولية من قبل • كـان شأن التعليم تصفية مستمرة أولها الامتحـان ، وآخرها التقارير • بعض الذين قـرأت معهم من قبل تلقاهم اذا أسـعدك الحظ • أهو حقا اسـعاد ؟ من بين هؤلاء زملاؤك فى المسـتقبل ، وأصدقاؤك ، وحلفاؤك ، ــ وعسى ــ اعـداؤك • كليـة غوردن ، هى ، كانت نهاية المطـاف • وفى ما بين أوائلها وأواخرهـا بدايـات الالـف والخـلاف •

نقلت كلية غردون من مبناها الشامخ سنة ١٩٤٠ فى سنة ١٩٣٥م ، سنة الحرب الثانية ، فى أولها أو أواخر سـنة ١٩٣٨م ، منـه ميونـخ ، زرعت أشـجار النخيل الاستوائى الكاذب الطوال التى كانت من شارة هذا المبنى وتتمته من بعد لما صـار هو الجامعة • لم يبق فى البناء القـديم من فصول الدراسـة فى سنة ١٩٤٠م غير آخر أقسـام القضاء الشرعى القديم ، السنة الخامسـة منه ، التى دخلته أول دخولنا ، وغير السـنة الاولى من مدرسة الآداب الجديدة فى المدارس العليا الجديدة • ثم بعد أخلى المبنى كله لمجهود الحرب الثانية ، وصار تابعا لقياداتها لا يدخله أحـد الا باذن خاص • وكانت فيه مصلحة عمل فيها كثير من الموظفين السودانيين كان يقال لها

Pay and Records فلا أدرى ما ترجمة ذلك الا أن تحتال عليه احتيـالا فتقول المواهى والقيودات وقيل ترجموها : المصروفات والسجلات ، وليس لذلك من معنى ، اذ لم تكن العربية اليه بحاجة ، وأن كان هو قد احتاج الى بعض أبنائها ليكـونوا عمالا كتابيين ليس غير ، وليكتبوا باللغة الانجليزيـة فيه وحدهـا ليس الا •

نقلت الكليـة القديمة الى مبانى المدرسـة الاميرية الوسـطى القديمـة بأمدرمان • وهى ذات أبهـة وفخامة واتساع • كنا نحن آخر دفعة متصلة العهد بنمط حياة الكلية ومبناها القديم • وبعد ذلك جعل الأمر يتشعب • وفى النصـف الثـانى من سـنة ١٩٤٥م نقلت الى واد سـيدنا ، ثم بعـد ذلك أنشئت حنتوب فخورطقت وانتهت الكلية وصـارت مدارس ثانوية وآلت روحها وذاتيتها الى المدارس العليا الجديدة بعد أن عادت لى المبنى القـديم مرة أخـرى ، وصارت كلية غوردن التذكارية مرة أخرى ، ثم كلية الخرطوم الجامعية ، ثم جامعة الخرطـوم • وطال النخل • وشـاخ بعضـه وفنى • وشـاركت البنـات فى الدراسـة الاولاد •

اخترت للتدريس بالكلية القديمة آخر زمانها بأمدرمان فى أول سنة ١٩٤٥ أنا والاستاذ دوليب المهدى ، كان أبوه الشيخ محمد المهدى دوليب رحمه الله ناظرنا بالمدرسة الاوليـة بعد الشيخ عمر أحمد رحمه الله والـد الاسـتاذ محمد عمر الذى هـو الآن •• (نحن الآن فى سـنة ١٩٣٦م) ••• رئيس عنبرنا ••• عنبر أولاد مدرسـة بـربر ••••

أنا والاستاذان دوليب ومحمد خوجلى ، وكان تلميذا ببربر الوسطى ثـم بالكلية فى الدفعة التى بعدنا ••• ثم الاستاذ عبد الرحيم الامين رحمه الله ، توفى فى يونية سنة ١٩٦٨م ، وكان من زعماء السياسـة ورجالات حـزب الامـة وكبار أدباء القطر ومفكريه • كان قبلنا فى الكلية فى السـنة الرابعة فى القسم العلمى اذ نحن بالسنة الاولى • زاملنـا فى المدارس العليـا هـو والاستاذ أبو القاسـم محمد بدرى والدكتور أحمد الطيب رحمه الله ، كلا هذين لم نحضر زمانهما فى الكليـة ، تخرجا عـام دخلنا •

كان السيد اسمعيل الازهرى رحمه الله يدرس بالكلية القديمة الى ما بعد منتصـف سنة ١٩٤٥م ، وفارقها وتفرغ لعمل السياسـة وأخذ المعـاش لما انتقلت الكلية الى وادى سـيدنا بعد خريف ذلك العـام فى مـا قيل لى • وكنت أنا وأحمد الطيب وسعد الدين فوزى رحمهما الله وجماعة آخـرون ،

كلنا نحـــو من خمســـة وعشرين بعثنا الى انجلترا فى شهر أغسطس من ذلك العام • فاتفقت لى مزاملة السيد اسمعيل الازهرى رحمه الله فى التـــدريس ذلك الزمن اليســـير • وكان من قبل قد درسنى الرياضيات فى السنة الرابعة بالكليـــة وذلك سنة ١٩٣٩م • وتذكر رحمه الله مزاملتى له مدرسا أخريات عام ١٩٦٧م فدعانى اذ دعا جماعـــة من زملائه المدرسين السابقين لحفـــل افطار فى شـــهر رمضان أقامه لتكريم المستر ســـكوت • وكان هذا قد جـــاء يزور السودان فى الشتاء كعادته بعد أن أخذ المعاش من حين الى حين •

وكان قد أســـن وقد جعل ينوبه بعض النسيان ، وقد كان من أسرع الناس بادرة وأحدهم ذهنا وأشـــدهم مراسا • كان الذين لقيتهم ممن زاملتهم فى التدريس ذلك المســـاء كانوا قد درسونى ، الا ما كان من أمر المستر سكوت فانه قد درسنى ولم أزامله • وقد كان له على التعليم فى السودان أثر كبير •

كان زميلنا الاستاذ الدكتور أحمد الطيب أحمد رحمه الله ، من قبـــل ، فى نفس عنبر أولاد مدرســـة بربر الذى صرت اليـــه الان • وكـــانت ذكـــراه عطرة حية اذ كان قبيل آخر العام المنصرم قد نظم قصيدة هزلية ، على النهج الذى كانت تصـــنعه مجلة المصـــور ، جعـــل مطلعها بيت ذى الاصـــبع العدوانى :ـــ

يامن لقلب طويلِ البثّ محزونِ أمسَى تذكّرَ ريّا أمَّ هـــرونِ

ثم عرج بعد ذلك على فكاهات مما كان يدور بين الطلبة ، من ذلك مطالبته زين العابدين أفنـــدى ، وقد كان ضابط الغـــذاءات من بين ضباط الداخليات، بزيادة سكر الصباح بنصـــف قطعـــة ، وكان المقـــرر آنئذ قطعتين ونصفا ، وذلك قولـــه :ـــ

هلا أتيتَ بنصـــف الواحـــدَه يا زينى

ولم يســـتجب زين ، اذ هكذا وجدنا المقرر ، قطعتين ونصـــفا ، وغادرنا الكلية وهو كذلك ـــ قالوا وبلغ من صـــيت القصيدة وشهرتها أن حـــانوت الساعات والنظارات الكبير بالخرطوم أجاز أحمد عليها بســـاعة منبه •

فى العنبر بعد وصـــولى ، فى الطريق من محطة السكة الحديد الى العنبر ،

جعل الطلبة الذين سبقونا فى تجربة الكلية يعرفوننى شيئا اسمه التيرم Term • وقالوا ان هذا الشىء الذى اسمه التيرم Term متخصص فى انتزاع الأولية من أوائل اللاجان وتخفيضهم فيكونون بشرا كسائر البشر • هذا هو الذى حدث لاول لجنة السنة الرابعة الذى هو ليس الآن من التلاميذ البارزين ، ولأول لجنة السنة الثالثة ، وحتى لأول لجنة السنة الثانية • وتحدثوا عن أمزجة الاساتذة المختلفين — وستعرفونهم عندما ترون الجدول يوم السبت • ولوجاءكم فلان فانه نعم مدرس الرياضيات • ولكن لو جاءكم فلان وفلان • وفلان يعجبه منظر الكراسة ويحب التلميذ الكباب • وما التلميذ الكباب ؟ الكبَّابْ هو الذى يذاكر • وهل المذاكرة شىء ردىء ؟ يظهر أن الطلبة يكرهون التلميذ الكباب ، ويعدون الكَب علامة غباء لا ذكاء • لن أكون تلميذا كبابا ••• ولكن ، قال لى ذلك أحد أولاد عنبرنا بتحذير واغاظة ، ولكن اذا لم تكن كبابا تسقط ، وهل كان يمكن أن تكون أول اللجنة بدون كبٍّ ؟ •••• نعم كنت أذاكر وأقرأ وأجد التشجيع من التلامذة ومن المدرسين • ما هذا التثبيط الجديد ؟

وبعد أيام فى ميدان النجيلة سألنى أثنان من السنة الرابعة هل أحب الشعر ؟ وتحمست وتحدثت عن أبى تمام :

رَمَى بك اللهُ برجَيْها فهدّمها ولو رمى بك غيرُ الله لم تُجِب

واستثقلانى جدا • وأنشد أحدهما شعرا مكسرا • وأشعرانى بأنى لاشىء وشعرت أنا بأنهما لاشىء • وعرفا ذلك لانهما كانا أوعى منى وكرهانى واختصرانى الى الابد •

وفلان من المدرسين — ضرورى يكون وضع لكم فى الجدول لانك ستكون فى السنة الاولى ألف

— هل السنة الاولى ألف هذه فى صف البناء الفخم الذى يتلقاك وأنت داخل من الباب الكبير ؟ هذا قبل أن أدخل • كنت أعرف شكل الكلية أزارنى

اياها الوالد رحمه الله سنة ١٩٣١م وخبرنى أننى سأقرأ فيها وسأحلق « كاريه » (١) وسأذهب الى أوربا ــ عرف ذلك من طريق الكشف • بعد القصيدة التى نظمها فى مدح الرسول صلى الله عليه وسلم وأنشدها ليلة المولد تلاميذه وكان هو منسجما روحا مع ذلك الانشاد كل الانسجام حتى لقد كان يترنم معهم ، اتفق الفقراء كلهم على أنه رجل صالح • اجماع الفقراء أمر لا يستهان به ، لا يستهين به الا جاهل أو منكر خبيث •

ــ كل فصول السنة الاولى خارج البناء الرئيسى ياجونير Junior

ــ وما جونيرْ هذه ؟

ــ انت جونير ، جونير السنة الاولى ــ عَفِنْ •

ــ وأنت أيضا جونير ، أولى ثانية كلهم جناير ، وعلى الجناير كنس العنابر ، والطاعة والخشوع •

ــ زمانا مضى ، كان للرؤساء حق جلدِ الجناير •

ــ لماذا زمانا مضى ، الآن يمكن أن يجتمع الرؤساء ويحكمون عليك بالجلد ، فقط يجلدونك بالخيزرانة لا بالتيلة •

ــ على كل حال اذا نزل ترتيبك يا شافع (٢) ينقلونك للفصل «ب»

ــ وماله «ب»

ــ يمكن «جـ»

ــ يمكن ياخدوا منك ال Scholarship « أى المنحة »

ــ هل هو أخذ ال Scholarship الآن ؟ متين أخذها حتى يشيلوها منّه ؟

ــ ضرورى ياخدها ، (٣) ماهو أول اللجنة

ــ ماهى مسئلة أولية ، هى مسئلة احتياج فى المكان الاول •

ــ انا فقير جدا • انا يتيم •

ــ أيوه ، خليك على كده •

---

(١) نوع من حلاق الشعر لم يكن معروفا وهو الشائع الان وكان الشعر يحلق كله
(٢) اى يا صغير (٣) ما زائدة

Term

ـ وأوعك تحتل (أى تصير حثالة) فى التيرم

ـ يا الله يا جونير ، طلع السرير دا انت وهو فى الميدان •

ـ أما استهبال •

ـ يا الله ! ! تُسُّوهُ (هذا من الكلمة الانجليزية Toss وهى فعل معناه أن ترمى شيئا فى الهواء) •

أخذ الطلبة فكرة التس (مصدر مفتعل هكذا : تس يتس تسا أى رمى فى الهواء) من كتاب انجليزى كان مقررا عليهم فى المطالعة اسمه :

Tom Browns' School days حتى لعبة الرَقْبى Rugby

حاولوا أن يأخذوها عنه ، ولكنها لم تجد فى ما بعد نفس الشعبية التى وجدتها كرة القدم ــ كرة القدم لها فضيلة السبق ، لانها أدخلها كرومر نفسه ، وسجل ذلك أحمد شوقى فى بيته المشهور :

أم من نداكَ على المدارسِ أنّها تَذَرُ العلومَ وتأخذُ الفُتْبُولا

وتناولوا بطانية • ولزوا الولد الجديد عليها بفجاءة سرعة خاطفة ، واذا هو فى الهواء • وعبثا حاول الاحتجاج أو الافلات • واذا هم يضحكون بهستريا ، واذا هو تصيبه الهستريا مثلهم • ثم جاء دور آخر •• وثالث • وهكذا •

كان طابور الصباح أمرا جسيما هائلا • كل الطلبة واقفون فى طابور رباعى الشكل فى الميدان الأوسط من الداخليات • وقفوا فى جلاليب الداخلية وبعضهم على رأسه بشكير جاء به من الحمام • ليس الحمام ههنا اجباريا ولكن كل الطلبة يستحمون • وههنا حمام « الدش » ذروة المدنية •

فى حصة الانجليزى جاء ذكر الدُّش Shower • ومن أين جاءت كلمة « دش » ؟ ولم يبد المستر هانكس إزاء « الدش » نفس الاعجاب الذى عندنا وانما ذكره فى معرض الحديث عن الرياضة البدنية وأن الانسان بعدها يأخذ « دش ــ Shower » • هذا قاله بعد أن دار بنا فى ميادين الكلية وعلمنا

أشجار حواجزها وشجيرات أزهارها ـ لأنقانا ـ دودنيه ـ أركويت ـ عملية تمدين لنا ما كان لها حقا عندنا من معنى • بل كانت حماستى أنا لحفظ :

خس ـ لتيوس Letuce

كرنب ـ كابَدج cabbage

فى الزمان السالف أشد وأحر •

وفى الفصل فهمنا المستر هانكس أن « الدش Shower » ليس بحمام Bath الحمام حوض يملؤه الانسان ماء ويستحم فيه • وعندنا فى انجلترا بعد أن تنتهى من الحمام تنظفه جيدا حتى يستطيع استعماله الشخص الآخر الذى يريده بعدك •

أن تملأ حوضا وتجلس فيه وتغسل نفسك بمائه من غير تجديد للماء عند كل عضو تغسله ، والأعالى قبل الأسافل ، والميامن قبل المياسر ، هذا لم نفهمه وقال بعضنا : الجماعة ديل وسخين ، قرف ، كيف تغسل جسمك بالماء الذى اختلط بالصابون وببقية وساخة جسمك ؟!•• ولكن هذا مدرس جديد جاء من الخارج ينتقد قواعد الغسل الاسلامية ويقول أن الصابون والماء الدافىء شىء نظيف جدا ؟ ولماذا أجدد الماء أو أتوضأ ؟ ولماذا لا يكفى هذا فى الغسل ؟ ولم يقع كلامه من نفوسنا موقع استحسان •

وكلام مستر هانكس كان معلومات مفيدة • وحديثه عن تنظيف الحمام بعد الفراغ منه كان شيئا نظريا بالنسبة الينا ، لان الدش ماؤه مستمر متجدد باسراف • ولم تكن الخرطوم آنئذ قد اكتظت بالسكان وأصابتها ما تصيب كبريات المدن فى افريقية السوداء الحديثة من ضائقات الماء والنور عرفنا فائدة كلام المستر هانكس بعد دهر ، لما صرنا طلبة فى أول بعثات ترسل الى انجلترا • وكنا فى بادىء الأمر فى حاجة الى التوجيه فى مثل هذه الامور ، فكنا نتذكر مثل هذا القول ، ويخبرنا بعض من سبقت له تجربة من

مواطنينا وكانوا قليلا • وكان من أجود ما أصبناه كتيب كان يصرفه مكتب البعثات المصرية للمبعوثين المصريين ، غاية فى الوضوح واليسر ، أصبنا نسخة منه فى النادى الملكى فى شارع شسترفيلد غاردنز ، جاء فيه مثلا أنه لا يستحسن منك أن تشعل السجارة لزوجة مضيفك ولكن تناولها الكبريتة أو الولاعة ـ لم تكن الولاعات كثيرة حينئذ ـ لتشعل هى سجارتها بنفسها هل توليع السجارة لزوجة المضيف نوع من التقبيل وسوء الادب ؟ درس مهم

وأصل « دش » فرنسى douche وكذلك عبارة « دش بارد » بمعنى التوبيخ أو الكسفة • والكسفة العربية عبارة جيدة اذ تدل على الاعراض وصرف حماسة المتحمس وتخييب أمله •

وأحسب أن أصل « دش » الفرنسية من قولنا « سحاب أجش » نعنى صوته وشبه الدش بماء المطر لا يخفى ، قال أبو تمام يدعو بالسقيا لبعض ربوع الاحباب •

أَسْقَى ربوعهم أَجَشُّ هَزِيمُ   وغدت عليهم نضرةٌ ونعيمُ

جمع « أجش » جُشٌّ بضم الجيم بعدها شين والجيم كثيرا ما تصير دالا ووقع الجيم العربية عند الفرنسية كأنه دال ـ ولكن هذا يجعل « الدش » كأنه شىء غير متمدن ، ويكون على هذا المستر هانكس قد أصاب ؟ !

حمام البئر الذى كان فى داخلية بربر أحب الى • لاننا فى الدامر وكسلا لم تكن عندنا غير الآبار • ثم ماء البئر حمام فى الشتاء لدفئه ، وبرود فى الصيف ثم يمكن من الطهارة ومن غسيل الصابون معا ، وليس فيه الاسراف الذى فى الدش • وقد أمرنا بالاقتصاد فى الوضوء من الماء الجارى مثل ماء الجدول الجارى من الساقية ، مثل ماء النيل نفسه • هل هو ابن النحاس النحوىّ الذى اختطفه التمساح عندما كان يتوضأ بأحد شواطىء النيل بمصر ؟

ـ لا ، مصر ما فيهاش تماسيح دلوقت •

ـ ولا السودان ، حتى ولا جوبا •

ــ ولا أوغنــدة

ــ مش معقـــول

اكتمل الطابور • كل داخلية يقف تلاميذها صــفين • ولكل منها موضــع معروف، ويكون كل تلاميذ عنبر مع رئيسهم ، ويكون كل رئيس داخلية أمام صفيه يستقبلهم يسويهم ويتأكد من حضورهم وغيابهم ، ثم يستديرهم كما يفعل امام الصلاة ليواجه بقية الرؤساء • كانت الداخليات ستا • ثنتان منها غرب الميدان الاوسط فى البناء الذى كان الى حين قريب هو ادارة جامعــة الخرطوم ، موقعه جنوب شارع الجامعة • كان شارع الجامعة يسمى شارع غردون Gordon Avenue وكان فيه على بعد ميل غربا تمثال غردون باشا على بعيره لابسا طربوشاه • وأربع منها معا شرق الميدان الاوسط فى البناء الذى كان الى حين قريب كلية القانون موقعه جنوب شارع الجامعة بازاء بابها الرئيسى ومبناهــا الرئيسى • الداخليتان الغربيتان همــا مفى وكرى • مفى ، سيرجون مفى ، كان حاكم السودان العام السابق لستيوارت سيمز وهذا كان حاكمه العام أيام دخلنا الكلية • وكرى ــ سيرجيمز كــرى كان أول مدير للمعارف السودانية فى زمان اللورد كتشــنر وتولى ، كما قد تقدم ذكره ، تأسيس الكلية وغيرهــا من معاهــد التعليم الجديــد الاولى • والداخليات الشرقية الاربع هى فى الطابق الاعلى شرقا « استاك » • ، مسماة على السير لى استاك الذى قتل أيام المظاهرات سنة ١٩٢٤م وغربا «كتشنر» وهو مؤسس الحكم الثنائى وأول ولاته • وفى الطابق الاسفل تحت داخلية استاك داخلية آرشر « جوفرى آرشر » وكان الحاكم العام قبل استاك ،قالوا وكان رجلا فيه خير ، وتحت داخلية كتشــنر داخلية « ونقت » « ونجت » الجنرال رجنلد ونقت وهو الذى خلف كتشنر وطالت مدة ولايته ، وعاش بعد تقاعده عمرا أطول من مدة خدمته وتوفى منذزمان قريب •هذا البناء الذى كان كلية القانون وكانت فيه الداخليات الاربع التى ذكرنا ، استخدم فى أغراض مختلفة مثلا كان أول أمره فيه الكلية نفسها اذ كانت مبانيها الرئيسية فى طور

الانشاءوكان هو يراد ليكون مدرسة الخرطوم الابتدائية (الوسطى) ثم كان مدرسة الخرطوم الابتدائية، ثم مركز ادارةمصلحةالمعارف طوال أيام الحرب الثانية • وكانت فيه مدرسة التجارة الثانوية الصغرى حينا من الدهر ، كان ناظرها الاستاذ محمد عثمان أفندى مرغنى شكاك رحمه الله ــ كان يدرسنا الاقتصاد ودرسنا بعض دروس الانجليزية لما كنا طلبة كلية غردون وكان زميلاى معه الاستاذان هاشم افندى ضيف الله ومحمد أفندى عبد الله المغربى ، وكنت ضابط الداخلية وكانت فى الموضع الذى فيه الآن داخلية بحر الغزال من جامعة الخرطوم •

وكان أكثر أولاد الغرب فى داخلية مَفِى • وكانت داخليتا كتشنر وكرى فى اغلبيتهما من العاصمة • وأغلب أولاد استاك من بورتسودان وشرق السودان وكثيرا ما كان من هؤلاء أولاد من بربر والدامر وأتبرا وشندى وسائر الشمال • وكان أولاد كتشنر بالذات يشعرون بروح تعال ومدنية بالنسبة للوافدين من الاقاليم • وكان بين داخليتى ونجت وآرشر نوع من التنافر الخفى • وذلك أن كلتا الداخلتين كان معظم طلبتها من بيئة ريفية ذات بداوة كان أولاد « ونجت » يعترفون بهذا وينظرون الى مستقبل الوظيفة بجد وصرامة وكانوا « كبابين » فى نظر سائر التلاميذ وكان أولاد آرشر لا يعترفون لانفسهم ببداوة ، ولكن يرون أنهم متحضرون مثل أبناء العاصمة وكأنهم كانوا يجنحون الى لون من تحدى حضارة العاصمة باظهار طابع حضارى لانفسهم خاص بهم ، أشبه شىء ــ والقياس مع الفارق ــ بنوع الاصالة الفلكلورية الذى نحاوله ونتبناه نحن الان حينما ندخل فى مجال ابراز شخصيتنا القومية بالنسبة للامم المتحضرة ذات المسرح ، والمبانى الاثرية والموسيقا المكتوبة الكبيرة الالات وهلم جرا وكان بعضهم ربما بالغ فى هذا الباب فجاء بدهن الكركار وتمسح به فى العنبر يؤكد بذلك أصالته

---

(١) اسم Wingate جيمه كالكاف ، كما تنطق القاف فى دارجيتنا ودارجة كثير من العرب وكالقاف فى اليمن ولكن كنا ننطق اسم الداخلية بالجيم خالصة الجيمية متاثرين بطريقة التعريب فى كتابتها شكلا •

القومية الاقليمية • دهن الكَرَكار يصنع من شحم الغنم يجعلونه ودكا بغليه ويلين ثم يعالجونه بأصناف العطور كالمحلب والصندل وظفر الحوت والعطور الزيتية ويصير معجونى الشكل ضاربا للصفرة شبيها بالفزلين شديد الرائحة ، يستعمل عادة فى الختان والاعراس • وهو شىء قديم فى بلادنا • ولاأشك على وجه الترجيح — أن الدهن المذكور فى كتب السير لنساء النجاشى انما كان هذا الكركار • يذكرون أن عمرو بن العاص وعمارة بن الوليد وكان جميلا سفيها ، اصطحبا معا فى الطريق الى الحبشة وركبا البحر وكانت مع عمرو زوجته • وفى البحر أصابا خمرا فانتشى عمارة وقال لزوجة عمرو بن العاص قبلينى ، فامتعضت ، فقال لها عمرو ابن العاص بدهائه المعروف قبلى ابن عمك • ثم ان عمارة عربد ورمى عَمْرًا فى البحر غدرا يظن أنه لا يعرف السباحة ، وسبح عمرو الى السفينة ، وقال له عمارة بكل جهل وغباء ما كنت أظن أنك تسبح • ثم لما صار بأرض النجاشى جعل عمارة يفتخر بأنه وجد حظوة من احدى نساء النجاشى ، فادعى عمرو أنه لا يصدقه ، وانما أراد عمرو أن يتأكد من صدقه ليوقع به عند النجاشى • فما كان من عمارة الاأن أحضر من دهن النجاشى المخصوص (الكركار فى ما نرجح) يجعل ذلك دليلا على صدقة • فاحتال عمرو حتى عرف أمر ذلك من أبلغ النجاشى ، فأمر بعمارة فنفخت السواحر فى إحليله ، واختل عقله ، وهام فى الفلوات حتى مات بأرض الحبشة التى هى بلادنا (فى ما نرجح) من ناحية نهر أتبرة وكسلا — هكذا يبدو لى من نعت المواضع التى كان يرد فيها الوحش فى ما زعموا • عمارة بن الوليد هذا هو الذى أرادت أن تدفعه قريش لابى طالب ليتبناه ويدفع اليهم ابن أخيه محمدا ليقتلوه فتأمل •

فنعود الى حديث الداخليات :

جاء رئيس الرؤساء Head Prefect بعد أن اصطف الطابور الصباحى يلبس جلابية من سكروتة أو بوبلين أو تيل هزاز ، شىء متمدن جدا ، وفوق رأسه طاقية حرير حمراء وفى رجليه شبشب جلد نمر ، كأنما

أنظر اليه الان ، وهل كان فى يديه شىء ؟ ويمشى بخيلاء . كل الرؤساء ـ رؤساء الداخليات ـ يمشون بخيلاء ، مثل مشية نظار القبائل والعمد فى احتفال ١٧ يناير الذى كان يقام فى عواصم المديريات لتخليد أو تجديد ذكرى زيارة جلالة امبراطور الهند وملك بريطانيا الملك جورج لميناء بورسودان سنة ١٩١٢ فى طريقه الى الهند . كان يقام فيه سباق الموانع والجوالات وسباق الجمال والخيل وسباق ركوب الحمير بالمقلوب وجر الحبل ومائة ياردة ، ويشترك بعض التلاميذ فيه بأشياء تناسب أعمارهم . كنا أطفالا نحب احتفال ١٧ يناير وأحسب أن نهايته كانت سنة ١٩٣٦ اذ مات فيها جورج الخامس .

لم يكن طابور الصباح يحضره المشرفون من أولاد البلد والانجليز . وجعل المستر براون يحضر أحيانا فى ما بعد ، أحيانا كثيرة . وجعل غيره ـ انت وهو هناك ، ياولد يا صغير ـ بلش الكلام ـ قرضمه ـ أسكت يا شافع ـ تمام ؟ ... تمام . تمام ؟ ... تمام ... تمام ـ السائل رئيس الرؤساء ويجيبونه رؤساء المداخليات واحدا واحدا .

كانت أكواب الشاى هنا مثلها فى داخلية المدرسة الوسطى . هذه قاعة الطعام . «سفرة الكلية» . شىء كبير . سكرتان ونصف . كل أثنين يشتركان فى خمس قطع . فى الغالب عندما تصل تجد قطعتين والنصف الاصغر . بسرعة البرق تتكسر القطع قبل وصولك . هل كان مع الشاى عيش (خبز) ؟ أذكر أحدهم يأكل قطعة رغيف مع الشاى ويقول آخر : (حتة) أى قطعة من فضلك كانت الضجة كبيرة فى السفرة . وقعد أكثر أولاد داخليتنا ولكن كان يوجد أناس غير قاعدين ، واقفين وأرجلهم على المقعد وفى أيديهم الاكواب . كان الشاى فى براريد من الطلس ـ المعدن المغشى بطلاء ، واللبن فى أباريق (جُكوك) بِيض وعليه قشرة رقيقة وهو محروق نوعا ما . وبعد الشاى الجمباز الا فى يوم الاحد فان الفطور والشاى كانا معا وكانت الدروس فيه تنتهى فى الساعة الحادية بعد الزوال . كان ذلك يراعى فيه المدرسون الانجليز الذين كانوا يذهبون الى الكنيسة يوم الأحد

وأحسب أن ذلك كانوا ملزمين به ، بغض النظر عن مسئلة التديّن أو عـدمه وكان الطلبة المسيحيون يذهبون الى الكنيسة عن تدين أو عن روح محـاولة انتماء الى الإطار الحاكم • الله تعالى أعلم أى ذلك كان • كان يوم الجمعـة هو العطلة الرسمية • من هذه الجهـة كان سـودانا هو المصرى الانجليزى لا الانجليزى المصرى ، كما كان مكتوبا على الخريطة الكبيرة وعلى الخـرط الصـغيرة التى صرفوا لكل منا منها واحدة ودرسونا منها فى الكتاب •

كان الجمباز فى المدرسة الوسطى خفيف الظل أكثر الاحيـان • ربما عـن فيه الكف والسوط وفى الكتاب كذلك • كنت أكرهه على كل حال وفى كل مرحلة غير أنه هنا فى كلية غردون كثيف الظل ، كتوم الانفاس ، غالبـة عليه ارادة التذليل والضغط البحت • وكـان مشرف الداخلية الانجليزى يجىء ومعـه كلبه وهو لابس « شورت » أعنى المشرف — والشورت سراويل من الكاكى مفصلة تفصـيل البنطلون مع اتساع شيئا ما وتصـل الى الركبـة ويلبس معها المفتش الانجليزى شرابات (جوارب) طويلة تخينة تنتهى تحت الركبة باستدارة لفة منتظمة ربما كان عليها زينة • وفى وقت الجمباز يلبسون حذاء الجمباز القماش • وكانوا لا يلبسون الشورت فى التدريس ولكن البنطـلون ثم جعلوا من بعد يلبسون الشورت مع نوع من هندام منتظم وربما لبسوا معه الكرفتة وكثر استعمال الشورت فى لباس المكاتب فترة الحرب وزمانـا بعدها لغلاء الاقمشـة مع استشـعار روح التشمير والجد التى أشـاعها الحكام فى الناس • ثم جعل يختفى شيئا فشيئا لان الجيل الذين لبسوه قـد كبروا وبدّنَت أجسـامهم • وقـال بعض الناس أن مما يدل على انقضـاء الاسـتعمار مرة واحـدة انتهاء « الشـورت » • وغاب عنه المسـكين أن الاستعمار معنا فى صوره المختلفة • نحن أنفسنا نحمل طابـع ازدواجيـة منه • والذى نأمله مخلصـين أن يتغلب عنصر الاصالة منا على العناصر غير الاصـيلة • ولن تكون النتيجة هى حياة آبائنا • ستكون خلطا ما • وبعض الخلط مما يصـلح به المعادن • حتى الذهب العزيز أن لم يخلط بمعدن آخر

كان لينا لا يطيع عمل الصائغ . أفضل بلا ريب ، الذهب الحر الذى منه كساء توت عنخ آمون ، وكانت تصنع منه الصيغة : المُطْرَق والسَّعَفَة والمثَمَّنْ ، ولكن (ولابد مما ليس منه بد) من الخطأ أن نظن أن « موضة » الصيغة الجديدة ، أجود من صيغة مطارق جيل أمهاتنا ، لكنها أقوى ، لم توجد الان البنوك ، ولا حاجة لادخار الذهب ... هكذا يقولون ، وهم اشد الناس له ادخارا فتأمل .

******* ******

كانت مبانى السنة الأولى فصولا خمسة خارج البناء الرئيسى . كان أمامها أشجار وشجيرات مختلفات . وراء ذلك ليمونات ظليلات ، يجلس تحت احداهن شيخ قالوا كان أبوه يملك أرض ذلك الجرف قبل أن تستولى عليه الحكومة . وزعموا أنه كان يبيع السجاير للتلاميذ الذين يدخنون السجاير . ما دخنت السجاير الا فى أخريات السنة الاولى بالمدارس العليا . ثم تركته تركا من بعد بحمد الله . كانت السجاير ممنوعة فى الكلية ، وسمحوا لنا أن ندخل بها فى فصول الامتحان فى المدارس العليا . وكان ذلك خطئا . وقد قلت عادة التدخين الان بعد أن وضح خطره لرجال الطب واجتهدوا فى التحذير من غبه . غير أن كثيرا من شباب العالم الثالث عن ذلك معرضون . انك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء .

كان شرق البناء الرئيسى صهريج أو شىء كالصهريج فى المكان الذى فيه الآن مبانى كلية العلوم من جامعة الخرطوم . وكانت تخرج من حوالى ذلك المستودع غازات كريهة أشبه شىء برائحة ما يقال له كاربون دايسلفايد (مزيج احتراقى من الكبريت وأصل الفحم بنسبة مضاعفة ما) . أحسب أن غاز المعامل كان يعد فى ذلك المكان ، اذ كانت بالطابق الأسفل من جناح البناء الرئيسى الواقع غربه معامل الكلية التى كانت تدرس فيها علوم الطبيعيات والحيوان (١) والكيمياء، وبالطابق الاعلى معامل الابحاث الكبيرة التابعة للحكومة رأسا ــ كان مكتوبا على أحد أبوابها ونحن نستكشف مبانى الكلية **Entomologist** أو Entomolist فنظَرنا

---

(١) الحيوان اى الحياة اصلها الحيان كالغيلان والدوران .

ذلك فى القاموس فاذا هو علم الحشرات كالجراد مثلا ــ وقرأت من بعــد رسالة عن العقرب وعن العنكبــوت لكى أكون ذا نوع من الانتماء الى حيز التخصص العلمى فعرفت أن العقرب ، وأنا أعلم أنها حشرة ، ليست بحشرة صحيحة ولا كذلك العنكبوت ، لخروجهما كليهمــا عما عــرف بــه الحشرة الذين يقال لهم العلماء : «وما أُوتيتم من العلمِ إلا قليلاً» .

هذا وقالوا حــاول بعض الفرنســيين أن يصنع جوارب لطيفة من حرير ناعم جــدا يستخرجه من نســج العنكبوت . فبعد أن هيأه وسر به اذا به من لمســة يرجع بصاق عنكبوت لا جدوى فيه . وان أوهن البيــوت لبيت العنكبــوت ، صــدق اللــه العظيم .

كان مكتوبا بالقرب من الصهريج المعاملى على لافتة Out of Bounds أى غير مسموح المــرور به ، وكــان ما حوله كأنه بريــة مهملــة لتشــابك أغصان شجيراتها واغبرار ألوانها وكثرة السحليات (العظاء) بها ، ولعل بها كانت توجد الثعــابين .

كانت « ورشة » النجارة بالقرب من فصــول السنة الاولى الخمســة ، وباء وجيم ودال وهــاء . فى زماننا كانت ثلاثــة فقط لاننا كنا أصــغر دفعة قبلت ، كذا وســبعين تلميذا وبعدنا أخذت الاعــداد ترتفع الى يومنا هذا . كانت بين دروس الســنة الاولى حصــة للنجارة ، وخوفنى منها تلاميــذ عنبرى . وتدريس العمل اليدوى يحتاج الى صــبر . وأذكر حرص نفسى على صــنع مقلمة وأن أتقن ذلك . لم أكن أكره عمل اليد ، كنت ، ولا أزال ، أحبه وارتاح اليه وأقبل عليه ما وجدت الى ذلك سبيلا . تعلمت نســيج العنقريب البلدى وأنا تلميــذ بالمدرســة الوســطى ، وهــو ذو الخطــوط المستقيمة والثقوب الكبيرة طولا وعرضا . ثم عرفت النسج « الدنقلاوى » وهو الذى يميل فى شق واتجاهه واحد وثقوبه أقل . ثم عرفت « السجادة » وهو النسج ذو الزخارف . وظللت لا ينســج عناقريب البيت أحد غيرى ، وربما فتلت الحبل الدقيق الجيد . ورأيت عمل الحلقة ونجر أرجل العنقريب

المخرطة بالقدوم • وكان « البَصِير » (١) الذى حول أغصان السنط الخشنة الى أشكال هندسية محكمة ملس ، ذا زراية شديدة بنجارى الفارة الذين لا يقدرون على غير الخشب المستورد الناعم ••• خشب النصارى « أى المستعمرين » • كان مدرس النجارة ، يا للاسف ، ضيق الصدر ، وسريعا الى اتهام التلميذ بأنه يحتقر النجارة ولا يظنها مهمة ، فيعطيه صفرا من خمسين ليعرف أهميتها أو أهمية مدرسها • وكرهته ولم أكره النجارة ولم أستطع أن أتعلم منه شيئا مع شدة حرصى • نعم كدت أتعلم شيئا ولكن بعد فوات الاوان وكان اذا اهتم وصبر فربما أفاد • مرة واحدة أظهر نوع اهتمام بارشادي — وكان ذلك فى أخريات العام • وكانت النجارة لا تلاحقنا الى السنة الثانية ، وكنت قد جعلت أراقب يوم أقول لها بعد أن اتضح لى انى قادر على الحفاظ على فصلى وعلى المنحة Scholarship مع أصفارها المتواليات :

عَدَسْ مالعبّادٍ عليكِ إمارةٌ نَجَوْتَ وهذا تحملين طليقُ

كان مدرس الرسم أحصف منه وأصبر وتنبه أن عندى مبادىء ملكة وكان يعطينى درجة كبيرة ، لان مستوى الرسم فى فصلنا كان غير جيد فكان مستواى كأنه حسن • لم أستطع أن أفهم عنه نظرية الظلال والضوء أو أطبقها ، انما كنت أجتهد ذلك اجتهادا بينى وبين نفسى — وفهمت طرفا منه بأخرة من زوجتى • وكانت « القلة » الحمراء التى رأيناها فى المدرسة الوسطى كأنما جيء بها هى نفسها الى فصل التجهيزى • وقد اختفت القُلّات الآن وحل محلها الحديد ذو البأس الشديد يخرج من ثلاجاته الماء البارد العتيد • ومن حسن حظ الاجيال الناشئة الجديدة أنه لا يجاء به الى داخل غرفة الفصل ليرسم •

هذا ، وكان بالقرب من ورشة النجارة فى نواحى المكان الذى به الان أقسام النبات وحجرة اجتماعات مجلس كلية العلوم بجامعة الخرطوم ميدان مستدير أنيق العشب ، يحيط به حاجز من نبات « اللبخ الفايكوس »

---

(١) البصير فى عاميتنا معناها صاحب الخبرة والمهارة من صانع وطبيب وما اشبه •

ومكتوب عليه Out of Bounds أى غير مسموح المرور فيه •
ومن يتعـد الحدود فقد ظلم • قالوا لنا لان المدفونين فيه جماعة من الجيش البريطانى الذين ضربوهم تلاميـذ المدرسـة الحربية وعبد الفضيل المـاظ سـنة ١٩٢٤م • كانت سنة ١٩٢٤ من معالم الوطنية • وقبلها عبد القـادر ود حبوبة سنة ١٩٠٨م • قالوا كان تلاميذ المدرسـة الحربية فى استباليـة النهـر (الان وزارة الصـحة) ومن هنـاك ضربوا الجيش الانجليـزى • وعبد الفضيل الماظ دخل فى ماسـورة (أنبوبة حديد) وضربـوه وقتلوه فى الماسـورة • حرقوه داخل الماسـورة • يالالأسـف •

هذا فصلنا ، السنة الاولى « ألف » فى الشرق والشمال ، بابه متجـه الى الشـمال ، الى النيل ـ لا ـ كان متجها الى المغرب فى شبه دهليز وكـانت الشبابيك فى الشمال • هؤلاء دفعتنا الجديدة • وهذا حسـن عبد الرحيـم ثانى اللجنة • كنا أنا وحسن على خير ما تكـون علاقـة بين الزملاء طوال سنوات الكلية الاربع • وفى المدارس العليا التحق بقسـم القضاة المدنيين • ثم فرق الدهر بيننا بعد أن فارقنا المدارس العليا • ولقيته حفظه الله سـنة ١٩٦٠ بالفاشر ونزلت مع زوجتى فى منزله الرحب ذى السخاء • وتذكرت ، تذكـرنا معا ، عهد الدرس • كان يجيد العلوم الانسانيـة واللغات • وصار رئيس الجمعية الادبية فى السـنة الرابعـة وكنت أنا سـكرتيرها ، وعجب بعضهم لم لم أجعل رئيسها ـ وأذكر أننى كنت سـعيدا جدا بالسكرتارية وكان الوئام بينى وبين حسن كأحسن ما يكـون الوئام • وكـان حسـن ، حفظـه اللـه ، دمث الجانب ، لطيف الخـلال •

وهذا •••• فى الفضاء بين الحصـتين ـ (أو هل كان ذلك عصرا) ـ جاء أحد التلاميذ وأظهر فرحة بلقائى عمت كل أسارير وجهه وعرفته • أنا وهو دخلنا المدرسـة الاولية فى يوم واحد فى سـنة ١٩٢٩م فى كسـلا • كـان لى صـديقا حميما وكان أبوه صديقا لوالدى رحمهما الله ، وكنا جيرانـا وأهله ، وتشاهدنا منذ ذلك الزمان • فقط الآن جاءت بنا تصـيفية الغربـال

التعليمى الكبير تصطخب مرة أخرى فى المضمار ــ يا سلام عليك ، جيت الأول ــ ازيك يا محمد الحسن • قبل أربع سنوات حيانى أخوان أثنان معا بالمعرفة عندما دخلنا ابتدائى بربر • كانا معنا فى كسلا • محمد سعيد ناصر وأحمد سعيد ناصر • وقد آثر محمد ترك التعليم الاوسط للعمل الحر واستمر أحمد معنا من بربر الى الخرطوم ثم التقينا مرة أخرى فى زمالة التعليم فى المدرسة الاهلية بامدرمان • وبين القلوب الوداد القديم •

علمت منذ حين قريب أنه توفى فحزنت لذلك حزنا • لوبقى أمرؤ لذكاء قلب وأريحية نفس وقوة جسد ، لكان أحمد ناصر قمينا بالخلود ••• . . أوتى من كل خير بسطة الا الأجل ، ولكل أجل كتاب • رحمه الله الرحمة الواسعة • وصدق الشاعر اذ قال :

النّاسُ للموتِ كخيلِ الطِّرادْ — والسّابقُ السابق منها الجَوادْ
والموت نقّاد على كفِّهِ — جواهر يختار منها الجيادْ

هذا أستاذنا الشيخ الأمين أحمد ابراهيم رحمه الله • كان يلقى الشعر والنثر بتفخيم ونبر واضح واشباع للحركات فى أواخر الابيات وفى مواضع السجع والازدواج • مع جرس وقف نغم شديد • كان رحمه الله جادا لا يهزل كان قد عاصر الوالد رحمه الله فى كلية غردون فكان يذكر من عهده • أملانا احدى المحفوظات : قال حارثة بن بدر الغدانى يرثى زياد بن أبيه :

صلّى الالهُ على قَبرٍ وطهّره — عندَ الثّويةِ يَسْفِى فوقَهُ المورُ
زَفّت اليه قريشٌ نعشَ سيدها — فثمّ كلُّ التُقَى والبِرِّ مقبورُ
أَبا المغيرة والدنيا مُفَجِّعَةٌ — وإنّ من غرّت الدنيا لَمَغْرورُ
قد كان عِندك للمعروفِ معرفةٌ — وكان عندك للنكراءِ تنكير
وكنت تُغْشَى وتُعطِي المالَ عن سعةٍ — ان كان بيتُك أَضْحَى وهو مهجور
النَّاسُ بَعْدك قد خفَّت حُلُو مهمو — كأنّما نفخَتْ فيها الاعاصير
لو خَلّدَ الخِيرُ والاسلامُ من أحدٍ — إِذَنْ خلّدكَ الاسلامُ والخِيرُ

(الخِير بكسر الخاء واشباعها مرت بنا من قبل فى قصيدة أخذناها فى السنة

الثالثة كتاب) :

تَرى الرجُلَ النّحيفَ فَتزدرِيه — وفى أثوابه أَسدٌ مزِير
ويُعجبُكَ الطَرِيرُ فتبتَليه — فيخلفُ ظَنَّكَ الرجلُ الطرير
ضعافُ الطَيرِ أعظَمُها جُسُوماً — ولم تَطُل البُزاةُ ولا الصُّقور
بُغاثُ الطير أكثرها فِراخاً — وأم الصَّقرِ مِقْلاتٌ نَزُور

المقلات التى لا يعيش ولدها .

لقد عَظُمَ البعيرُ بغَيْرِ لُبٍّ — فلم يَستغْنِ بالعظمِ البعير
يُصَرِّفه الصغير بكل وَجْهٍ — ويَحْبِسُه على الخَسْفِ الجرير

الجرير هو الحبل .

وتَضرِبُهُ الوليدةُ بالهَراوىَ — فلا غَيَرٌ لديه ولا نَكِير

الهراوَى بالفتح جمع هِراوة بكسر الهاء وهى العصا

فما عِظَمُ الرِجَال لهم بفخرٍ — ولكن فخرهم كَرَمٌ وخير

ههنا موضع الاستشهاد كما ترى وأحسب أن هذه الابيات مما اختير فى كتاب (أدبيات اللغة العربية) .

اقرأ ياصغير . وقرأ الصغير . أحسنت . ولماذا قال زَفَّتْ اليه قريش نعش سيدها ؟ — لانه كان واليا على البصرة (وكنا قد درسنا البتراء فى محفوظات النثر) — نعم يا صغير ، ولكنه قال « نَعشَ سيِّدِها » أى سيد قريش ، لأن معاوية بن أبى سفيان ، رضى الله عنه ، ألحقه بنسب أبيه ، فقيل له زياد ابن أبى سفيان . فقال الشاعر ينكرُ ذلك على معاوية :

ألا بلغ معاوية بن حرب — مُغَلْغَلةً من الرجلِ اليمانى
أتكرَهُ أن يقال أبوكَ عَفٌّ — وترضى أن يقال أبوك زانى

اقرأ ياصغير .

وأشهَدُ أن رِحْمَكَ من زيادٍ — كرِحِمِ الفِيل من ولد الأَتان

لم يشرح لنا هذا البيت لظهور معناه اذ لا قرابة بين الفيل وولد الاتان وهو الحمار . وقد كان الفيل من عتاد الحرب الرهيب . والحمار من رموز الذلة

والضعة .

ولايقيمُ على ذلٍّ يرادُ بهِ   إلا الأذلّان عَيْرُ الحيِّ والوتد

وزعم أحد أساتذتنا الفكهين فيما بعد أن الحمار قال للفيل بيني وبينك قرابة ورَحِمٌ ماسّة فعجب الفيل من مقالته وسأله : ما هِيَه ؟

فقال له الحمار : غُرْمُولِي يُشبِهُ خُرطُومَكَ .

ولا يستبعد أن يكون يزيد بن مفرّغ الحميرى ، صاحب هذه الأبيات ، أراد هذا المعنى اذ قد كان هجاءً خبيث الهجاء من شياطين الشعراء .

وقد قال فى عبّاد بن زياد وكان عظيم اللحية :

ألا ليت اللّحى كانت حشيشا   فنعلِفها خيول المسلمينا

ومن خبيث ما قاله فى زياد :

وأشهد أن أمك لم تباشِرْ   أبا سفيانَ واضعةَ القِناع

ولكن كان أمرٌ فيه لبس   على خَوفٍ شديدٍ وارتياع

وكأنما قد صُب سوط عذاب من لسان يزيد بن مفرّغ على آل زياد فى الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أشد والله عزيز ذو انتقام .

ويزيد بن مفرّغ صاحب الأبيات المشهورة فى بيعه غلامه برداً وجاريته الأراكة التى منها قوله :

سبحان من قَسَمَ الحظوظَ   فلا عتابَ ولا ملامة

أعمى وأعشى ثمَّ ذو   بَصرٍ وزرقاء اليمامة

وزعموا أنه وقع فيها الخَرمْ فى عروض الكامل عند قوله :

وشَرَيْت بُرْداً ليتنى   من بَعْدِ بُردٍ صرتُ هامه

هامةً تدعو صَدَى   بين المشقَّر واليَمامه

وليس الكامل مما يدخله الخَرْم ولكن يدخل الطويل فيصير شطره كأنه من الكامل مثل قول أبى الطيب :

لا يَحْزُن اللــه الامــيرَ فاننى سآخذُ من حالاتــه بنصــيب

وزعم بعضـــهم أن يزيد قـــال :

أو بومــة تدعــو صـــدىً بين المشـــقر واليمــامة

ووقع هذا فى بعض نصوص الأغانى وهو ضعيف لا يشبه شدة الأمــر التى هى من طابــع أسـلوب يزيد •

والشعر العربى كله مبنى على الترنم كما ذكر صاحب الكتاب وهــو تلميــذ الخليل • وكان يزيد بن مفرغ قد ترنم فقـــال :

•••• مــن بَعْــدِ بُــرْدٍ صِــرْتُ هــا ••••

ثم استمر مترنما بعد سكتة يسيرة ••• مَهْ •• هامة •• تدعو صدىً الخ ••
وعليه فلا خرم ولا أمت ولا عِوَج فى البيت •

وقد زعم المعرى على لسان امرىء القيس أن العرب كانت تمر فى البيــت حتى تأتى الى آخره قال : « فاذا فنِىَ وقاربَ تبيّن أمره للسامع » فهذا يقوِى ما ذهبنا اليه آنفا ويصححــه إن شــاء الله تعــالى •

هذا ويعجبنى من شعر يزيد أبيات له رائية يذكر فيها بعض أهوال حروب الفتوح أيام بنى أميــة الأولى :

كم بالجُرُوم وأرض الهند من قدم ومن جماجم قَتلى ليتــهم قُبــروا

ومن سرابيلِ أبطــال مضرّجــةٍ صاروا الى الموت لا خاموا ولا ذعروا

بقَنْدَهــار ومــن تُكتب منيتــُــه بقنــدهار يُــرَجّمْ دونه الخبر

وهذا من عميق فطانة الشعر وحَدْسِــه ونفاذه الى نوع من الكشف والنبوءَة

اقرأ ياصــغير ••• كأنما نفخت فيها الأعاصــير

لو خلد الخِيرُ والاســـلام من أحدٍ اذن لخلدك الاســـلام والخير

اقرأ ياصــغير • ما اسمك ؟ طاها عثمان بليه (هذا الدكتور طه بليه قضــى نحبه فى سن أوج الشباب وكان لى صديقا رحمه الله)

ـ يا بابَكْر مصطفى الطاهر (يعنى صديقنا الدكتور محمد الحسن أبو بكــر

حفظه الله) ـ اقرأ ياعجباني (يعني الاخ المفضال والمهندس القدير والوزير سابقا أحمد الامين حميدة ، ينسبه الى اسم الأسرة بأمدرمان) ..
ـ اقرأ ياصفير ، اقرأ يا طيب .

واستمر اسم المدرسة الطيب معي حتى اقتصرت عليه مع الاسم الأول عبد الله هكذا ـ عبد الله الطيب ، وحتى اقتصر عليه كل معارفي . ولما أخرجت كتابي المرشد إلى فهم اشعار العرب وصناعتها ، اقترح على الناشر السيد عبد القوى الحلبي رحمه الله أن أذكر اسم الجد الاكبر (المجذوب) تبركا بالمجموعة المجذوبية التي كانت طبعتها دار مصطفى البابي الحلبي ومنها ـ كما تقدم كان أول تعلمي القراءة ـ فقبلت اقتراحه فصدر الكتاب وعليه تأليف عبد الله الطيب المجذوب ، فأحدث ذلك نوع التباس بالنسبة الى اثبات اسمي فى القوائم والفهارس التي تقع فيها الاشارة الى المرشد وبعض التعليقات كتعليق الاستاذ بلاشير فى مجلة أرابيكا .

وفى اسم المجذوب بركة لا تخفى وهو فى تسجيل أطيان أجدادنا الفقيه الطيب بن محمد بن أحمد بن محمد المجذوب (جد الوالد) والفقيه محمد ابن أحمد هو المعروف بالتسعة فى الجزيرة المحمدابيه والجد الاكبر محمد المجذوب بن على أب دامع ابن حمد ضمين الدامر ود عبد الله راجل دُرُّو ، وهو مرن أب سلم ـ صحراء لا حصر لها لو أمكن سقيها لا غنت بعض عالم الثالث .

ورحم الله ولى الله الصالح القطب المهيوب ، الفتَّح الدروب ، جليس النبى المحبوب،سيدى واستاذى ووسيلتى الى الله تعالى سيدى الشيخ محمد المجذوب ... هكذا يقول حيران الشيخ الجعلى رضى الله عنه فى ختام أذكارهم ، لا يعنون جدنا الاكبر ، ولكن الشيخ المجذوب بن قمر الدين ، صاحب الديوان العجيب الذى هو درة المجموعة المجذوبية ومنه استفدت واستفاد خلق كثيرون حبَّ العربية والشعر وحب رسول الله صلى الله عليه

وسلم ، الذى حبه سر الايمـــان • ولم يكن للشــيخ المجذوب ولد ولكن بنت مباركـــة اسمها عائشـــة ولذلك يقول الناس حين يعتملون ويجرون المركب :

ســيد ســيُّوده ••• ياب عاشـــة قــودا

وأذكر خبر وفاة ابنها الامين ود عاشة رحمه الله ورضى عنه وأبوه أبوبكر الــذى ذكــره الشــيخ فى شــعره :

أبابكرهــم مــع صــالح أم عُبيــدة

هذا ، وقد جعلوا يطالبوننا بأخرةٍ بتثليث الأســماء ، يظن أنه يدفــع الالتباس ، ولا يدفعه لكثرة ما عَبّدَ وحَمّدَ ولكثرة أســماء الطيب والطــاهر والحســن والحسين بين المســلمين ولا سيما العرب منهم • وقــد اتفق لى اكثر من مرة أن وجدت نفسى فى مكان واحد مع من تثليث اسمه مثل تثليث اسمى بلا اختلاف ، هكذا : عبد الله الطيب عبد الله ، فيقال الدكتور عبد الله الطيب والبروفسور عبد الله الطيب من أجل طلب التمييز • وكل ذلك لقــب غير داخل فى حقيقـــة الاســـم الشرعى ، ثم أمثاله قد كثرت الآن فصار قليل الجــدوى فى التعريف إن لا فى التشريف ، فمرت على فترة ربعت فيها إسمى اتحرى بذلك دفع الالتباس مع المحافظة على الاســـم المعروف ، فطال بذلك حتى أوشـــك أن يصير شجرة نسب : عبد الله الطيب عبد الله الطيب وعدنا من حيث بـــدأنا كمـــا ترى •

فى انجلترا كان يقـــالُ لى « مستر طيب » ــ تايب Mr. Tayeb ‘

فاذا أرادوا رفع الكلفـــة نادوا باســـمى الاول عبد الله Abdulla يجعل العين همزة هكذا « ابدالا » ويذهبون بتشـــديد اللام وتفخيمها مـــرة واحدة • وكان يقال ل : ابدالا هذه : Christian name وترجمة ذلك الاســم المسيحى أو أصـــح من ذلك « اسم التعميد » فاعمد • التعميد من قولهم يوحنا المعمدان (أى ســيدنا يحيى بن زكريا عليهما السلام) • والتعميد غمس المسيحيين أطفالهم فى الماء ليكونــوا نصارى •

واسم عبد الله قد يقع عند بعض النصارى ، فلا أدرى أيعنون به الله العظيم سبحانه وتعالى ، أم معنىً من معانى الثالوث عندهم •

ولاشك أن التثليث والثالوث أصله من وثنية يونان ثم فلسفوه • ولا يتصور فى لفظ الله الا معنى التوحيد المحض المنصوص عليه فى سورة الاخلاص ، قُلْ هو اللهُ أحَد الله الصَّمَد ، يدلك على ذلك آية المائدة اذ قال الله تبارك وتعالى فى خبر سيدنا عيسى بن مريم عليه السلام :

« أأنت قلتَ للناسِ اتخذُونى وأمىّ إلٰهينِ من دون اللهِ » ••••• فدلّ على أن الله ــ سبحانه وتعالى تبارك أسماء ــ لا يراد به شىء من معنى الثالوث وأن فى ذلك ما يكون متضمنا اتخاذ إله من دونه جل شأنه •

وكان مكتوبا فى قطار النفق بلندن Underground Train فى بعض العربات الممنوع فيها التدخين ، وكانت الى زمان قريب أقل عددا من العربات التى هو فيها غير ممنوع، No Smoking, not even Abdullahs

وقد كان هذا مع تضمنه معنى المنع اعلانا فى نفس الوقت عن نوع من السجاير تركى النكهة يقال له سجاير عبد الله Abdulla's cigarettes فكان يخيل الىَّ أن المقصود هو أنه حتى من يكون اسمه عبد الله فهو داخل فى نطاق المنع ولا يقدر أن يعتذر بأنه أجنبى أو لا يعرف الحروف الانجليزية ، سواء فى ذلك من يكون اسمه «عبد الله » من الهند ومن يكون اسمه « عبد الله » من السودان الانجليزى المصرى أو المصرى الانجليزى •

ولما كنت فى نيجريا كان زملائى من الهوسا رعى الله عهدهم يقولون بروفسور عبد الله الطيب لا بروفسور طيب التى يقولها غيرهم وربما بدأ بها رسالة رسمية جافة • وكانت قد مرت فترة خلاف شديد حول وصول رأى قاطع فى اختيار الموقع المناسب لتبنى عليه كلية عبد الله بايرو وصير الى الرأى الذى كنت أقول به آخر الأمر والحمد لله

اذ هو أرحب رقعة وأكفل ، كما قد اتضح من بعد ، بما عسى أن يتطلبه المستقبل من التوسع • ولقد صارت كلية عبد الله بايرو جامعة مكتملة منذ أعوام • ولا أدرى ما شجن عن وجه الصواب بادىء الرأى • ولعل الخطأ انما تطرق من أن المسئول البريطانى آنئذ لم تكن له أدنى صلة معرفة حقيقية بموضوع كلية عبد الله بايرو — وهو الدراسات الاسلامية والعربية — من حيث انه هو الخلفية الحضارية الكبرى لبلاد هوسا وبرنو وسائر المسلمين فى افريقية الغربية •

ولا بأس أن نستطرد ههنا ونذكر أن كلية عبد الله بايرو هذه قد كانت جزءا من جامعة أحمد بلّ مقرها مدينة كنو • وقد أتيح لى أن كنت أول من تولى أمر انشائها • وسميت على اسم والد سمو أمير مدينة كنو ، الامير الحاج عبد الله بايرو ، رحمه الله ، تخليدا لذكراه اذ فى زمان امارته أنشئت أول مدرسة حديثة المنهج للدراسات العربية ، أحسب ذلك كان سنة ١٩٢٦م • وسميت الجامعة باسم الحاج أحمد بل « السَّردَونة » (١) • وكان مقرها الرئيسى بمدينة زاريا • وكان السردونة رئيس وزراء نيجريا الشمالية وكبير زعماء نيجريا قاطبة • وخبر مقتله هو ومقتل الحاج المير أبو بكر تفاوة بليوا — رحمهما الله — معروف • وكان ذلك فى يناير سنة ١٩٦٦م ليلة الجمعة فى شهر رمضان بعد رجوع السردونة من العمرة • وكان آخر عهد لى بالحاج أبى بكر رحمه الله تعالى سنة ١٩٥٨م اذ زرته بمدينة لاغوس ، فلم أره بعد ذلك • وكما تزاملنا من قبل بلندن فى بعثات الدراسة سنة ١٩٤٥م — ١٩٤٦م • سكنا فى داخلية أعدت لنا ، أبناء المستعمرات ، فى « نتفورد هاوس » Nutford House بناحية ماربل آرش Marble Arch فلم ينس رحمه الله ذلك وتحدث عنه ، وسألنى عن الدكتور أحمد الطيب ، رحمهما الله • وكان له

(١) السردونة من القاب دولة هوسا القديمة قريب المنزلة من سلطان المسلمين ولعل اصلها سر الدولة والله اعلم •

صديقا • وكان اذ لقيته لا يدخن وكان عهدى به فى لنــدن وهو يدخن سجاير شـديدة التبــغ يقال لها كابستن فل استرنقث ، capistain full Strength
فذكرته فى مجرى الحديث بذلك ، فقال ان الاطباء نهوه عنها فترك التدخين • كان صديقه وصديقى الحاج محمد بل، مقاما كنو ، شديد الحــزن عليه بعــد أن نموه صباح عيد رمضان • وكان يعجب فيــم قتلــوه ؟ ولعمرك ان الســياسة رعناء ليس لما يجرى فيها من تأويــل ،

ومرادُ النفوسِ أصغرُ من أن نتعادى فيــهِ وأن نتفــانى

هذا وانما جر الى هذا الاســتطراد الحديث عن الاســماء وعادة المدرسين عامــة ، لا شــيخنا الأمين وحــده رحمة الله عليــه ، فى اســقاط أسمــاء الآباء • وكأن أصــل ذلك كله من طريقة الافــرنج فى اعتبار اســم الاسرة هو الاسم دون ســواه ، فنزل اسم الاب منزلة اســم الاسرة • من كــان اســمه على ابرهيم مثــلا يقال له عند الافرنج مستر ابــرهيم ومســيو ابرهيم وانما ابرهيم أبوه • واللبس من هذه الجهــة فى أسماء النساء ، لان من اســمها زينب عثمان مثلا ربما يقال لها مســز عثمان وعثمان أبــوها لا زوجها كما لا يخفى ، فتضــطر السيدة الى العــدول عن اسم أبيها أحيانا الى اســم حليلها حتى لا يخطىء من يقول لها « مسز فلان » فى فهم المراد من ذلك ، وحتى لايظن أنها غير متزوجــة حين يختلف الاســمان ــ اذا كان اسم زوجها مثلا رقيب عامر • هذا ثم ان طريقة وصل اسم المرء باسم ابيه (على ابرهيم ــ زينب عثمان ــ رقيب عامر) ــ نفسها ليست عربية • الوجه العربى أن تقول على بن ابرهيم ــ زينب بنت عثمان ــ رقيب بن عامــر • وتســقط ألف ابن فى الامــلاء اذا وقعت بين علمين وكذلك ألف ابنة ــ إلا حــين تبتــدىء من أول الســطر يا ولــد
(ليت المطــابع الآن تعقل مثل هــذا التوجيــه)

وفى الدارجة عندنا نقول وَدْ (عند أهل البحر أى النيل) وَوَلْد عند عــرب البقارة • مثلا عبد الله وَدْ الطيب ــ وفى العرب الآن من يقول وَلْــد ووُلْــد وبِنْ • ونقول للبنت زينب بِن عثمان أو بت عثمــان •

فلا أرى اسقاط ابن ومرادفاتها فى العامية الا قد جاءنا من حكم الافرنج . وتوجيه هذا الاسقاط فى العربية صعب وهو أن تزعم أن الابن هو أبوه على وجه التشبيه :

ومن يُشابِه أَبَهُ فماظَلَمْ

هكذا قال الراجز .

أو كما قال أبو الطيب فى مدحه لسيف الدولة :

وأنتَ أبو الهيْجَا بن حمدانَ يابْنَه ُ تشابَهَ مولودٌ كريمٌ ووالدُ
وحَمدانُ حمدونٌ وحمدونُ حارثٌ وحارثُ لقمانٌ ولقمانُ راشِد

وهذا الوجه من التأويل يعسر فى أسماء النساء . زينب عثمان مثلا لا يمكن أن نقول فيها أن زينب هى عثمان على وجه التشبيه كما تقدم . وأذن فعسى أن نجد مخرجا آخر فنسب اسم الشخص الى أسم ابيه على وجه الاضافة على ابراهيم ، أو على الذى لابراهيم . وهذا الوجه يعسر فى الاسماء المركبة تركيبا اضافيا مثل عبد الله وعبد الحميد ، الا أن تدعى اضافة الاسم المركب كله على الوجه الذى يسميه النحاة « الحكاية » وهذا ياصاح هو التكلف .

على أننى سمعت كثيرا من الناس ربما قالوا عبد الله الطيب بنغم تشعر منه كأن مرادهم هو عبد الله الذى للطيب ولا يعجبنى هذا النغم ، ولو نسبت امرأة الى امها فقلت زينب خديجة . جاز الوجه الاول كما لا يخفى .

وبعد ، فانظر أى مبلغ بلغ بنا أثر التعليم الحديث .

حتى طريقة العربية الواضحة فى حفظ الانساب قد خرجنا منها الآن كل الخروج . تأمل رنة لفظ ابن فى قول القائل :

إِنْ يقتلُوك فقد ثللت عُروشَهم بعتَيبةَ بن الحرثِ بن شِهَابِ

وفى قول القائل :

فقتلنا بعبد الله خَيْرَ لداتِه ذُؤَابَ بن أسماءَ بن زيدِ بن قاربِ

وفى قول زهير :

لعمرى لنِعْمَ الحىُّ جرَّ عليهم بما لايُواتِيهم حُصَيْنُ بن ضَمْضم

تأمل حصين ضمضم ــ واذا ثلثوها صارت حصين ضمضم حصين ..

وكما خالفنا طريقة العرب والعربية فى الاسماء ، خالفناها كذلك فى العدد ، فنكتبه من الشمال الى أليمين ١٩٧٦م مثلا وننطقه من الشمال الى "يمين ألف وتسعمائة ، ثم بعد ذلك من اليمين الى الشمال وستة وسبعين فانظر الى هذا الخلط العجيب . والصواب أن نكتبه من اليمين الى الشمال الستة فالسبعة فالتسعة فالالف كما يكتب سائر الكلام وأن ننطقه كذلك فنقول ستة وسبعون وتسعمائة وألف مثل الكتابة تماما والامور تعود واذا عودنا أنفسنا ذلك ولا سيما فى ساعات الدرس وفى ابان الصغر بوجه خاص كان أمره علينا يسيرا كل اليسر . وقد أخذ الارقام الافرنج منا فى عهد البابا سلفستر (٩٩٩ ــ ١٠٠١م) فنحن أهل هذا الاصل أولى بالمحافظة على أصلنا ، ولا يقدح فى ذلك أخذنا كتابة الأرقام من أهل الهند فكلنا فى الهم شرق كما قال شوقى رحمه الله .

والناسُ بالناسِ من بدوٍوحاضرة بعض لبعضٍ وان لم يشعروا خَدَما

هكذا قال أبو العلاء المعرى فى اللزوميات ، وقد صدق .

****

كان كتاب المطالعة العربية المقرر علينا « نزهة القارىء » سمجا خاليا من الروح ، لعل أجود ما كان فيه قصيدة أبى بكر بن العلاف :

ياهـرُّ فارقتنا ولم تَعُـد وكنت فينا بمنزَل الولد

وما كانت ضرب أشعار مما تستعذ به سننا آنئذ ، انما كنا نستعذب شعر الوطنية والمجد والصبابة المتقدة والحماسة الشديدة . وكان ما يختاره لنا أستاذنا الشيخ الامين رحمه الله من الكلام الجزل الذى له فى القلب والسمع رنة كخطبة زياد البتراء وشعر حارثة بن بدر الغدابى مما يتلافى نقص « نزهة القارىء » أيما تلاف .

وكان زملاء الشيخ الامين رحمه الله ، من مدرسى العربية آنئذ أقوياء فى مادتهم ، تعلموها عن حسن تلق ودرس من خيرة الاساتذة المصريين الذين

كانوا قد جيء بهم أول انشاء كلية غردون • وكان الطلبة فى الفصول المختلفة كلما تلقوا من أحدهم درسا ممتعا أو نافعا قصوا من أمره على رفقائهم فى الداخلية والعنبر وحلقات الانس والنقاش • وكان ذلك من أول ما بدأنا نتذوق به قضايا الفكر • • • أو قل ما يقال له قضايا الفكر • مثلا الفتنة الكبرى كانت دائما موضوع نقاش فى عنبرنا • وكان ميلهم مع أمير المؤمنين كرم الله وجهه ، الا أن روح التعليم السنى المحافظ كانت تحملهم على احترام معاوية وعمرو بن العاص وكبار الصحابة طلحة والزبير وأمنا عائشة رضوان الله عنهم أجمعين • وكان الشيخ البشير الفضل رحمه الله قد أملى على تلاميذه أبيات شوقى التى يقول فيها :

مـا كان ضَرَّ نُصَراءَ البَيْعَـةْ — لو صَبَروا علَى الوَغَى سُوَيْعَة
غادرهم بِسحْره معاوِيَة — كأنهم أعجاز نخلٍ خاوية
ألقى القَنَا وشرع المصاحِفَا — ينشُدُ بالله الخميسَ الزاحفا
لا يرفَعُ المصحفُ كالدفوفِ — والسِّلمُ لا تذكرُ فى الصفوف

رحم الله شوقيّا • ليت العرب تذكروا كلمته هذه :

والسلم لا تذكر فى الصفوف

سنة ١٩٤٨م حين تقدمت صفوفهم فى أرض فلسطين فخدعوا عن الاستمرار بدعوى الهدنة • وما هو الا أن أصاب اعداؤهم فرصة مهلة فاستعدوا ثم أعادوا الكرة • وكانت مذابح دير ياسين وسقوط حيفا والخليل وتوالى الكوارث • وكان أمر الله قدرا مقدورا •

وكان متن الجوهرة المقرر فى التوحيد جيدا يتناول أهم موضوعات العقيدة ويعرضها عرضا فيه روح تَحَدٍّ يستهدف الجدل ولا سيما جدل من يكون فى مثل أسناننا المراهقة آنئذ :

ولم تكن نبوّة مكتسبَةْ — ولو رَقى فى الفَضْلِ أَعلَى عَقَبة
فان يُثِبْناَ فبمحض الفَضْلْ — وإن يعذِّب فبمحضِ العَدْل
وأَثبتنْ للأوليا الكرامَهْ — ومن نفاها فانبذَنْ كلامَه

وأوّلِ التشاجُرَ الذى وَرَدْ إن خضت فيه واجتنِبْ داءَ الحسد

اجتهد عليٌّ فأصاب ، واجتهد أصحاب الجمل وأخطأوا ، واجتهد أصحاب صفين وأخطأوا ، لهم أجرٌ واحد ،

غير مقنع ،

يا ولد ؟

وليس مجبوراً ولا اختيارا وليس كلاًّ يفعلُ اختيارا

انصاف حلول ،

بلاش إلحاد يا شافع ،

ولكن متن العزية فى الفقه كان جافا ، وليته كان المقرر رسالة ابن أبى زيد لأنها كانت معروفة عند علماء السنارية وسائر أهل السودان ، ثم تأليفها قد روعى فيه جانب السن كما قد نص على ذلك مؤلفها ،

وكان ثلاثة من تلاميذ فصلنا يجلسون معا متجاورين ويهمسون وكأنهم كانوا يأتمرون بأمرٍ واحد بينهم ، فاذا ضحك أحدهم ضحك الآخران ، واذا سأل أحدهم سؤالا ، سأل الآخران كذلك ، وكانت فيهم شيطنة ، ومن هابوه من المدرسين سكتوا وتمسكنوا له ، وجسر مرة أحدهم فسأل فى حصة متن العزية عن معنى الحَشَفة ، وذلك بمعرض ما ذكره مَتْنِ العزية من أن من موجبات الغسل ، غسل الجنابة ، « ادخال الحشفة فى فرج » ولا كذلك اذا « أَلْطَفَتِ المرأة أى أدخلت يدها بين شفريها » وأشياء من هذا القبيل ،

وأدرك الاستاذ ما كان يراد من روح الهزل والاستخفاف فقال للسائل بزجرة وانتهار : « الحشفة يعنى التومة (١) ياسخيف » ـ ولم يستطع صاحباه الشيطانان أن يضحكا ...

---

(١) كلمة دارجة تفسر الحشفة ،

تعدو الذئابُ على من لا كلابَ له ... وتتقى صَوْلة المستأسد الحامى

وكان كتاب المطالعة المقرر فى الانجليزية للسنة الاولى هو Reader VI أى الكتـــاب الســـادس من سلسلة الدكتور مايكل وســـت ولم يكن جيدا • وانما كانت كتب الدكتور مايكل وســـت جيدة فى مراحلها الاولى ثم أدركها الضـــعف من بعـــد •

كان فى الكتـــاب السادس هذا تمهيد لم يخل من فائدة ، عن أصـــول كثير من الكلمات الانجليزية فى اللغـــة اللاتينية وعن الحـــروف التى تقـــع فى أوائلها Prefixes وفى أواخرها Suffixes — فتنشـــأ من ذلك أنواع تفريعات الالفـــاظ والمعـــانى ، مثلا predict و pretend و prefer والحـــرف pre وهـــو متقدم أى prefix يفيد معنى القبلية • ومثلا laughable و probable و notable والحـــرف able وهـــو متأخر أى Suffix يفيد معنى القابلية • و كانت فى التمهيد قوائم من الاحرف المتقدمة والمتأخرة وشروح لبعض الاصول التى تتركب معها •

وكـــان المدرس لا يضيف الى مادة الكتاب شيئا ، ويأخذنا بحفظ قوائمه ويمتحننا بالاســـئلة فيها ، لا يعنف كما كانـــوا يصـــنعون بنا فى المدرســـة الوســـطى مع الكف والسلخانة ، ولكن باصرار ، ودرجـــات « التـــيرم » المرتبة على انطباعاته عنا فى الحصـــة كانت تنوب مناب الكف والســـلخانة فى الزمـــان القـــديم •

وكـــان اذا قـــرأ جمـــل القـــوائم وشـــروحها تغنى بـــذلك تَغَنِّيـــا كأنمـــا هـــو به ذو طـــرب :

Tenere means to hold:

retain, to hold again, to keep.

Tenere means to hold:

maintain, to hold in hard, to look after.

Re: means again
main: means hand.
Retain, remain, regain
Remit, resit,
attain, sustain, obtain ....

وكان النطق ذا أهميــة كبيرة ، تلوى له الشــفاه ، والاشداق ، وطريقة مخارج الصــوت على نحو مثل أعلى متوهم لفصــاحة لغة الانجليز . لقد كانت قصة ... Smoke does not go down, it goes up ... التي علمنا اياها ناظر المدرســة الوسطى فى العــام الذى سبق أخف وأيسر من هــذا الذى نؤخــذ به الان بكثــير Extend, pretend, intend

هكذا ، لا اكسى طند — برى طند — ان طند Obtain, retain

لارى طين — اوب طين — بغلظــة وخشــــــونة كع كع كع كع لبع لبــع مثل نطق هذا ... ونطق هذا ... ونطق ذاك ....

وكان عدد من التلاميذ ينطقون نطقا صحيحا يرضــاه المــدرس . وكان الثلاثــة المتشــيطنون يترنمون به ويبالغون . وكلما سخر المدرس ممــن ينطق كع كع لبع لبع التفتوا اليه ثلاثتهم بعنق واحد — مرة يمنة ومــرة يسرة ، ومرة الى الوراء ، ويتهامســـون وِشْ وِشْ وش ويضحكون تشجيعا لسخرية المدرس ... وكنت أحرص على النطق الصــحيح فحين لا أجــد تشجيعا أتعمــد نطقا خشنا غليظا وكان المدرس يفطن لهــذه المعاكسة وفيه روح فكاهــة .... « شوف دا ، كَعْ كَعْ ، لَبَعْ لبع » .. ويضحك الفصــل كله . وينظر الثلاثــة المتشيطنون بعدم استحسان وقد يهمسون : «ثقيل» « ســخيف » .

وكانت الدرجات فى الانجليزية ترتفع وتنخفض تبعا لبراعة محاكاة نطق التنغيــم . ومن العجب أن مدرس الانجليزية « الخواجة » لم يكن يهتــم بشىء من هذا العناء وكانت درجاته أعدل ميزانا .

وقررت ادارة الكلية منع الكـلام بغير الانجليزية أثناء الفسحتين الكبيرة والصغيرة مدة اليوم المدرسى • قيل الغرض من ذلك تدريب التلاميـذ على استعمال اللغـــة •

حاشـية : اللغة أى الانجليزية ، هكذا كان يقال لها فى دواوين الحكومـة • يكتبون مثلا فى المكاتبات الرسمية : « بالاشـارة الى جوابكم باللغـة نمرة كذا بتأريخ كذا » ••• يعنى باللغـة الانجليزية • قال ابن مالك رحمه الله :

وقد يصيرُ علماً بالغَلَبه ... مضافٌ أو مصحوبُ ال كالعقبه

طبعا انما كان يحـدث هذا أكثر ما يحدث فى دواوين الحكومـة الصغـيرة والاقليمية المباشرة للجمهور ، لا التى فى العواصـم وعنـدها ذروة الحـل والعقد ــ هذه كانت مداولاتها باللغة لا غير • وكان التـدريس فى السـنتين الثالثة والرابعـة باللغة (الا حصـص العربيـة) وهؤلاء هم التلاميـذ الكبار Seniors • أما فى الاولى والثانية ، وهـؤلاء هم التلاميـذ الصـغار juniors فكانوا يدرسـون باللغة أربعـة عـلوم فقط ، الحساب والجبر وهندسة اقليدس واللغة نفســها

ــ لسـع يدرسـوكم بالعربى يا جونير يا عفن •

ــ لكن أنا باعـرف انجليـزى أحسـن منك •

ــ روح يا جـونير يا ثقيل •

****** *****

كانت الفسـحة الكبيرة بعد الحصة الثانية تقارب مدتها ساعة والصغيرة بعد الثالثة مدتها ربع ساعة • وفى الفسحة الكبيرة كنا نذهب للفطور • وكان يوما عدسا ويوما فولا • كان هذا تحسينا بالنسبة الى نظام المدرسة الوسطى لان الفـول هنـاك كان له يومان فقط • يـوم الخميس والاثنين وكان أحب الينـا من العـدس ، لتوالى هذا علينا فى جميع الوجبـات •

كان فول الداخلية فى الجملة حسنا ، الا انه ربمـا اتفق عـدم انضاجـه أحيانا مع رداءة بعض الحبات • فكان التلميذ ربما استحسن فى ذلك اليـوم الذهاب الى « مستورة » التى كانت تبيع الفول بالقرب من مقهى الطلبة •

وكان فولها جيدا دائما ، ذهبى الحبات ، كامل الاستواء ، ومعه « سلطة » فلفلية متوقدة وزيت مستجاد. وكانت تبيع الفول مع « رَغيفة » (١) واحدة على الاقل وكان رغيفها بلديا (٢) شمسيا حسنا . غير أن رغيف الداخلية قد كان لا بأس به ، رغفانا ضخمات ، كل واحدة منها تكفى ثلاثة يقتسمها الطلبة قسمة عادلة . وكان ربما اشترك ثلاثة أو أربعة فاشتروا فولا ورغيفة واحدة من « مَستورة » وذهب أحدهم الى الداخلية فجاء بأنصباتهم من الرغفان ، وكان مما يغرى بفول مستورة سوى جودته أن الطلبة كانوا فى أعماقهم من بيئة قروية بدوية تنفر من القعود على الكراسى والاكل على الموائد المرتفعات على الطريقة الافرنجية ، وتؤثر الفرار أحيانا الى حرية الاكل على ميدان النجيلة ، اذ لم تكن فى مقهى الطلبة آنئذ موائد وكراسى .

وكانت ساحة ميدان المقهى وهى التى فيها الآن قاعة الامتحانات والمبانى الجنوبية الغربية من كلية العلوم تمتلىء بالتلاميذ بعد انقضاء الفطور يقعدون معا ، كل مع أصحابه ، ويشربون من شاى عبد الباسط ويتآنسون وكان شايه دائما ساخنا وخدمته سريعة ، ويذهب الطلبة أنفسهم ويحضرونه منه .

وكنا فى الفترة التى بين الفطور وجرس الحصة الثالثة ربما تحدثنا فى الادب والتأريخ وأنشدنا بعضنا بعضا القصائد . ولم تطل مدة منع الكلام بغير الانجليزية اذ سرعان ما ألغى هذا الامر لما تبين عسر تطبيقه . ولكن أوائل أيامه كان أكثر ما يتعرض التلميذ له حين ينصرف من جلسات أنس المقهى أو حين يتمشى فى الفسحة الصغيرة مع بعض أصحابه وقد قربت الحصة الخامسة وظن أن اليوم قد قارب الانتهاء .

وينزل القَدَر .

— Talking in Arabic ?

---

(١) لحوق التاء الاسماء فى العربية كثيرة .
(٢) هكذا كانوا يقولون وكل الرغيف لا يمت الى بلدنا فى اصله بشىء .

ويؤخذ المسكين الى المكتب حيث يقرر عليه العقاب • وكان العقاب نوعين • « التيلة » وهى أشده وأوجعه ، و « الطلبة » بضم الطاء وسكون اللام ، وهى دون « التيلة » وربما جرت اليها ، فيجد المرء العقابين معا وحسبنا الله ونعم الوكيل •

وكان فى الكلية جلوازان يقال لكل منهما « الصول » وهى رتبة فى النظام العسكرى لضباط الصف علامتها أربعة شرائط عند الكم أو شىء من هذا النحو • كبيرهما جسيم رهيب المنظر • وكان اليهما ضرب الأجراس، ونقل الرسائل الهامة بين المدير Warden وكبير المشرفين Senior Tutor وسائر المشرفين ومساعديهم وضروب المدرسين، ثم كانا يتوليان العقاب ، « التيلة » بحضرة المشرف أو مساعده ، « والطلبة » أحدهما كل يوم من أيام الاسبوع ماعدا الجمعة والاحد •

وكانت الطلبة ضربا مرهقا عنيفا من الحركات البدنية (الجمباز) ودقائقها الثلاثون أو الاربعون كل منها عذاب أليم • وكان وقتها ما بين الساعتين الثالثة والرابعة بعد الظهر ، وذلك أوان الراحة ، فكان ذلك من أمرها وحده تنغيصا • وكان يصف التلاميذ المرادون لعقاب الطلبة بأحد الميادين •

كان امام المبنى الرئيسى كله ميادين ، أولها الميدان الشرقى وكانت تقام فيه مباريات الكرة الكبيرة ، ثم تليه الميادين الاخر الى حيث أشجار اللبخ التى شرقى كلية الهندسة •

كانت أكثر ما تصطف الطلبة ، بضم الطاء ، فى الميدان الذى هو الان كلية الآداب ، جناحها الجنوبى • يصطفون وأمامهم « الصول » : « معتادا » مرش (مرش هى كلمة march الانجليزية ، « ومعتادا مرش » من اصطلاحات التمارين الحربية وهو ما يقال له بالانجليزية quick march و سريعا مارش أو مَرْش كما كان يقول الصول هى quick ، والكلمة الانجليزية double march

أدق من قولهم « معتادا » لان عـادات الناس فى المشى لسـن على نظـام واحد ، والكلمة العربية « سريعا » أدق من الانجليزية double الا أن يكون منظورا فى هذه الى الاصـل الفرنسى وهو الزيادة والسـبق أحيانا ، فسبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم .)

معتادا مرش . شـمال يمين ـ شمال ، يمين ، شمال يمين ... وفجـأة يقول « الصـول » : أقعـد . قم . أقعـد . أرقد . قم . سريعا مرش . واحـد ، أثنين ، واحد ، أثنين ، هب ، هب ، هب ، أم ، أم ، أم ـ أقعـد ، قم .. تمرين الارض ... واحِيد ... أثنيـ ... ن ... وهذا كان مرهقـا بطيئا يحاول المرء أن يجعل نفسـه فيه مثل الخشـبة ... واحيـد .... اثنيـ ... ن ... انت هناك . ويكون هذا تهديدا لمن لا يحسن أداء التمرين ، كأن يتقـاعس الصـدر ، ويرتفع العجز ، وتضطرب حال الرأس والساقين، وينبغى أن يكون الجسم مستقيما على حال مستوى واحـد ... إينتباه !! معتـادا مرش ... أرقد ... قم ... تمارين : واحـد ، اثنين ، تلاتـة ، أربعة .. واحد ، اتنين ، تلاتة ، أربعة ... خلف دُور (أى على الخلف در) وبعد ربع ساعة قد يأذن الصول لمن يرى أنه قد اجتهد وأخلص بالانصراف. وأحيانا قد يغتاظ بعض التلاميذ من العنف فتقع بينـه وبين « الصـول » مشادة ويطرده ويقدم اسمه للمشرف فيكون نصيبه « التيلة » بلا ريب...

وقد يحضر بعض اخوانهم يتفرجون ويقولون للصـول ، خلاص يا عمى فلان ، تعبوا . وكان « الصـول » ربما رق وتسامح ، وربما خشن وزجرهم وطلب منهم أن يبتعدوا وأطـال المدة مبالغة فى التشـدد . واحد ، اتنـين، واحد ، اتنين ، أرقد . . .. وكان ألم « الطُلبة (بضـم الطاء) يبقى مع العضلات تتشنج به أياما . فكان بعض التلامـذة ربما زعم أنهـا شر من « التيلة » ، وليس الامر كذلك ، ولا ينبئك مثل خبير .

أصل الطُلْبة بضـم الطـاء من الضريبة الشاقة التى كان يقال لها ذلك لما كان يصحب مطالبة الحكومة للناس أن يؤدوها من ضروب التعـذيب . وقالوا فى الشعارات التى سـبقت قيام الثورة المهدية فى القرن الماضى : « عشرة فى

تربة ولا ريال فى طلبة » تفضيلا للموت على العذاب الذى كان يصحب الطلب بدفع ريال الضريبة كما ترى .

هذا ، أما « التيلة » فكانت حبالا من التيل ثلاثة معا أو لعلها أكثر ، ذوات عقده يفرى حر وقعها الجسد . قالوا كانت تغمس فى ماء الملح ، فلا أدرى أكان ذلك يجعلها أوجع أو أقل أذى أم كان توجيها طبيا ، من نوع الالزام بحضور الاطبة عقوبة الاعدام ليتأكد من وقوع ما دربوا من أجل أن يدفعوه ... لاريب رحمة بالمسكين ألا يؤخذ فيدفن وهو حى .

قالوا — ولم يكن هذا فى مجال عقوبة الاعدام — أن بديع الزمان الهمذانى الاديب الكبير ، أغمى عليه فأخذ ودفن وهو حى ودافنوه لا يعلمون ، فانتبه فى القبر مذعورا ، فقبض على لحيته فمات . لكل أجل كتاب .

كان الجلد « بالتيلة » على العجز فوق السراويل بعد رفع الجلابية . ويترك الضرب ولو جلدة واحدة ، أثرا وخدشا على الجلد . ولابد من تقبض فى العضلات وورم واستمرار ألم ثلاثة أيام على الاقل . وقد تحس فى صباح اليوم الثالث أنفاسا من الحمى . تتشنج العضلات من « الطلبة » دون ذلك بكثير ، بله الاهانة .

كنت أملت فى نفسى ألا أجلد بالتيلة طوال سنوات الكلية الاربع . وقديما قال الشاعر :

يوشك من فرَّ من مَنيتِهِ   فى بَعْضِ غِرَّاتِهِ يوافِقُها

كانت حصة الجغرافية فى السنة الاولى سخيفة جدا . كانت الجغرافية فى ذاتها من أحب العلوم الى ، ولكن الاستاذ كأنه لم يكن يعقل منها شيئا . وما كان يتكبده من عناء هو فى فهمها كان ينعكس عيا وبلها فى تدريسه لها . كان يعيد ويبدىء ويكرر ويلت ويعجن لتا قبيحا . وكنت أنظر اليه أتعجب . وكانت الجغرافية الطبيعية أعسر شىء عليه ، فيعول على الصياح والتكرار ويلح فى ذلك الحاحا .. والضغط الجوى .. والضغط

الجوى •• هنا عالى ••• هنا عالى •• هنا واطى •• هنا واطى وآيسوثيرم وآيسوثيرم •• وآيسوبار وآيسوبار •• وكان يغتاظ لنـوع النظر الشارد المشدوه الذى كنت أنظر به اليه • وكنت لا أفطن • وأحسب كرهنى • ومرة جعلت أنظـر ••• نظرت ونظرت ونظـرت •• فـرأيت عينى ضـفدعة جاحظتين • وسمعت نقيق ضفدعة • ويقال للضفدعة فى دارجتنا «القَعْوَيه» واشـتقاق ذلك من الإقعـاء كما لا يخفى • كأنهم سـموها « إقعاءة » ثم فخموا الالف يذهبون بها نحو الضمة وسهلوا الهمزة الثانية وحذفوا الاولى مكتفين بتحريك القـاف يتوهمون أن أصل المجيء بها لتجنب البدء بالساكن فصارت « قَعُوَيهْ » • والجمع « القعوى » ، تجعل الواو شـيئا بين الألف والضـم الطويل المشـبع • ومنهم من يقول « القعونجة والقعونج » وهى دارجـة رديئة • ولا يخفى أن الجيم تحولت من اليـاء والنون من غنـة مع التفخيم ، والله تعـالى أعلم • كانت لى أخت صـغيرة ، ماتت جعلهـا الله سلفا صالحا ، كنت أتغنى لها وأقول :

الليلـه القعـوى جـانى

وأكلت النملـه بلسـانى

كان ذلك سـنة الفيضـان • وكان صوت « القعوى » (الضفادع) قـد ملأ كل مكان • قالوا : وتمـد الضفدعة لسانا دقيقا رقيقا سريع الحركـة وتبتلع النملة وغيرها من الحشرات الصـغيرة • سريعة الافتـراس كمـا تفعل العنكبوت بالذبابة • وكنت أقول لهـا :

قَعُويـ ينَبْ

ياكـل زينب

كان اسمها زينب • توفيت بالسحائى سـنة أحدى وأربعين فنكأ رزؤها قـروحاً ما بـرأن :

أأختِىَ قد شـطّ المزار فبيننا مسيرٌ على الايام والسنوات

كنا فى الصـغر ، زمانا مضى ، نحاكى الضفادع ، ويقال لنا ان الضفـادع

تقـول فى نشـيدها المسـتمر :

قيق قوق قيق قوق	قيقـوق قيقـوق
بيفـوق بيفـوق	ــ (أى بالمكان الذى فـوق) •
بيفـوق بيفـوق	ود حليمه كتله الشـوق
بيتحت بيتحت	ود حليمه كتله الضـحك

كتله أى قتله والقاف عادة فى دارجتنا لا يبلغ بها الكـاف الا فى أشياء قليلة مثل قتل المبنى للمعلوم وقتل المبنى للمجهول نقول كتل •

بيفـوق بيفـوق
ود حليمه كتله الشـوق
بيتحـتْ بيتحـت
ودَ حَلِيمَه كَتلهُ الضِـحْك

ــ من ولد حليمه هذا الذى قتله الضـحك ؟
وضحكت : قَرْ قَرْ قَرْ قر ••• قَرْ قُرُويا ••• فى وسـط الفصـل السـاكت والتكـرار ••• رار ••• رار ••••••
واحمـر المدرس غضـبا
لا شك أنى أَسأْت أدبا
ــ « أخرج وانتظرنى بالمكتب » ••••• أخـرج
ونظر الفرسـان الثلاثة الى المجرم شامتين ، كأنما حركهم محرِّك واحد ولم يتهامسـوا ولا يضـحكون •

زعم الكسـندر سلهنستين أن عـادة الطاعـة جعلت النـاس مسـاكين يذعنون كالضأن • يلقى القبض على أحدهم وسـط الزحام أو فى أى مكـان فينصـاع • ويذهبون به الى احدى جـزائر رخبيل «قولاق» فيذبحونه • ولو كان احتج ساعة القبض عليه أو قـاوم ربما نجا • الله تعالى أعلـم • الناس مسـاكين • حق مساكين • دائما مساكن • أحسبهم اكتسبوا عـادة تأليف الحيوان من الدجاجة الى البعير من سابنـة تأليفهم بعضهم لبعض• وقد كان الناس ولازالوا يأكل بعضهم بعضا • قوله سبحانه وتعالى :« أيحب

أحدكم أن يَأْكُلَ لحمَ أخيهِ ميتاً فكَرِهْتُموه» فى سورة الحجرات ، مما يستفاد منه ضمنا أن الناس كانوا فى زمان سالف يأكلون الجنائز ثم كرهوا ذلك فتركوه . فشبه سبحانه وتعالى الغيبة بأكل لحم الجنازة . فكما كرهوه فينبغى أن يكرهوها وينفروا منها نفورا بتقزز . ولاتستبعد هذا الوجه من جوانب التأويل ، نعوذ بالله أن نقول فى كتابه بالرأى ، فقد تعلم أنهم رووا لذى الاصبع العدوانى من شعراء الجاهلية :

لو تشربُون دَمِى لَمْ يَرْوَ شارِبُكم ولا دماؤكمو جمعا تُرَوِّينى

فدل على أنهم ربما شربوا من دم القتيل فى معرض الانتقام والتشفى . وخبر هند اذ لاكت كبد حمزة قد تعلمه . وكذلك ما ذكروه من أنهم ربما تداووا من السعر بشرب دم القتيل الشريف ، قال الفرزدق :

ولو تشربُ الكَلْبَى المراضُ دماءَنا شفاها وذو الداءِ الذى هو أَدْنَفُ

وذكر صاحب الغصن الذهبى أن الناس لم يكن أحدهم يرى الآخر الا طعاما .. وذكر مالونسكى فى كتابه عن بعض المتأخرين من البشر أنهم يمتصون اللحم من عظام جنائز آبائهم برّاً بآبائهم على كراهية منهم شديدة لهذا العمل .

وأكل الناس بعضهم بعضا أحياء فى شتى العصور لم ينته الى اليوم. وذكروا أن المعتمد لما قتل ابن عمار ضربه بالفأس على رأسه وتركها فيه ، فهذا أكل له كما ترى وهو حى . وابن عمار هذا هو الذى قال :

مما يزهدنى فى أَرْضِ أندلسٍ ألقابُ معتمدٍ فيها ومعتضِد
ألقابُ مملكةٍ فى غير موضعها كالهرّ يحكى انتفاخاصَوْلة الاسد

فما ضربه هذه الضربة القاسية الا ليعلمه أنه أسد لاهر ، فما كان الا هراء، اذ الهر هو الذى يصنع بفريستهمثل هذا الصنيع . أما الاسد فيجهز عليها ويضغم :

منه تظلُّ سباع الجوِّ خائِنَةً ولا تمشّى بوادِيه الاراجيلُ

كما قال كعب .

والى معنى أكل الناس بعضهم بعضا وهم أحياء أشار زهير أبوه فى المعلقة حيث قال :

ومن لا يَذُدْ عن حَوضِه بسلاحِه ... يُهَدَّمْ ومن لا يظلِم الناسَ يُظْلَمِ

وأبان عنه أبو الطيب كل الابانة حيث قال :

انما أنفُسُ الأنيسِ سباعٌ ... يتفارَسْنَ جَهْرَةً واغتيالا

وقصة السندباد البحرى فى جزيرة الغيلان قوية الرمزية فى هذا المعنى .

وذلك أن الغيلان كانوا يسوقون البشر الذين يقعون فى أسرهم مثل قطيع الغنم . قالوا وكانوا يطعمونهم طعاما يقتل ارادتهم ويميت حرارة قلوبهم ويجعلهم يسمنون . وكل صباح يأخذ الغيلان منهم أثنين أو ثلاثة أو أكثر للذبح والأكل بحسب الحاجة . وهم يغدون ويروحون وقد ألفوا هذه الحياة .

قال أبو الطيب :

إلفُ هذا الهواءِ أوقعَ الأنـ ... ـفُسِ أن الحمامَ مرٌّ المذاق

وقال :

ذَلَّ من يغبطُ الذليلَ بعَيشٍ ... ربَّ عيشٍ أخفُّ منه الحِمَامُ

مَنْ يَهُنْ يَسُهل الهوانُ عليه ... ما لجرحٍ بميتٍ ايلامُ

وحب الدنيا والاخلاد اليها كلَّ الاخلاد من مداخل الهوان ، أكبر مداخل الهوان . وفلسفة الاستعمار كلها كانت مرتبة على حب الدنيا ، دنيا التفرنج الجديدة ، والهوان من أجل هذا الحب لها وفى سبيله . كان العامة يقولون : « الترك جنتهم الدنيا دى » ، يعنون بالترك الانجليز والمستعمرين النصارى أن جنتهم فى هذه الدنيا وليس لهم فى الآخرة الا النار . وأصل استعمال « الترك » بهذه الدلالة منشأه من الثورة المهدية . وكان المهدى عليه السلام يقول : « جيت لخراب الدنيا وعمار الآخرة فاتبعه الناس على ذلك ثم تفرقت بهم السبل من بعد . وقل أبو نواس الحسن بن هانىء :

سُنّةَ العشاقِ واحدةٌ ... فاذا أحبَبْتَ فاستكِن

وان تكون أفنديا كان هو السبيل الى الجـاه والمجـد واللـذات وطيب العيش و الاستمتاع بالدنيا الجديدة التى أتاحها الاسـتعمار ، وخيل للناس أنها باقية لا تفنى لشـدة بريق بهرجها . وحياة المدرسة والداخلية ونظامها كان طور اعداد للأفندية (١) التى هى خدمة الاستعمار ... الافندية التى هى سبيل الجاه المعشوق اللازمة معه ضروب الاستكانة والهوان والطاعة .

كنا ونحن تلامـذة نكره الاسـتعمار ونقسـم النـاس الى «وطنيين» « ومخلصين » . الوطنيون هم الذين كانوا يتجاوبون ، فيما يبدو لنا ، مع نزعات شبابنا الثائرة . ونقول هذا المدرس « وطنى » «وطنى جد » ،ونقول هذا المدرس « مُخْلِص » . ويشـتم بعضـنا بعضا : يا مخلص ، يا مُتَكَبْكِبْ أى يا صـبّاً بالاستعمار يا تابعا له يا كلبا جاريا يبصـبص ذنبه له .

ــ يا مخلص .... (أى يا مخلصـا للاسـتعمار)

ــ سيبك منه ، دا واحـد مخلص .

ــ بلاش اخلاص .. أى يا هذا أترك الملق للاسـتعمار .

قال تعالى جل من قائل فى سورة مريم « واذكر فى الكتاب موسى انه كان مُخْلِصاً وكان رسولا نبيا » وقرىء « مخلصا » بكسر اللام (٢) وفتحـها (الفتح قراءة الكوفيين (٣) وعليه رواية حفص) فوصـف الله سبحانـه وتعالى نبيه بالاخلاص كما ترى . أنظر كيف تحـول معنى الاخـلاص فى موسوعـة تلاميذ جيلنا . يا للأسـف ، كانت ثـورتنا فى ذاتها جـزءا من الاستعمار ، لاننا انما كنا نعد لنكون أفندية (٤) الاسـتعمار ، وحركاتها الوطنية قد نبعت ، يا للأسـف ، فى أساسها من هذه الثورة ، فعنصر الأصالة فيها كان هو الغضـب وحده . هو وحده لا غيره كان الشىء الأصيل النابع

---

(١) و (٤) الافنديـة مصدر صناعى بمبنى كون المرء افنديا وهى ايضـا جمع افندى كما تقول الصوفية جمع صوفى

(٢) قراءة ابى عمرو وعليه قراءتنا فى السودان ونافع وابن كثير وابن عامر .

(٢) الكوفيون هم عاصم وحمزة والكسائى فهم مع الاربعة المتقدمة أسماؤهم المعروفون بالقـراء السـبعة .

من الاعماق ، المندفع به صدق الشباب .. صدق الشباب الحى الجميل لم تكن فى النفوس حقا ثورة على معدن حضارة الاستعمار . حتى جمال عبد الناصر كان يتكلم عن حرية لقمة العيش ، يا للاسف .

هنا كان مكمن نقطة الضعف .

حتى الحماسة الدينية التى كانت تنظر الى زمان عمر والوليد بن عبد الملك وهرون الرشيد وتستمد من ذلك روح استشعار البطولة والمجد والكفاح ، كانت هى ترغب فى تطوير الحياة العربية لتتحدى الحضارة الغربية بزخرف كزخرفها مستعار منها فانظر .

« الله لطيفٌ بعبادِهِ يَرزُقُ من يشاءُ وهو القويُّ العزيز . من كان يريدُ حَرْثَ الآخرةِ نزِدْ له فى حرثِهِ ومن كان يريد حرثَ الدنيا نُؤْتِهِ منها وماله فى الآخرةِ من نصيب » .

وقد وعد الله عباده المستضعفين ميراث الأرض . وعد ذلك عباده المستضعفين الصالحين ، كما ورث خالد وسعد دولتى فارس والروم ، لا بعقلية فارس والروم ولا بمعادن حضارتيهما .

ورثنا نحن الاستعمار بمعادن حضارة الاستعمار ، فنحن وان لم نشعر بذلك جزء منه . كان الاستعمار هو الغيلان .

وكانت حياة الكلية ومعيشة الداخلية والدش والطابور والجمباز والكرة والعدس والفول والأرز والحصص وسمت النظام وارتقاب التخريج والوظيفة والمستقبل ... ذلك كان هو طعام الغيلان ... طعام الغيلان الذى يقتل حرارة القلوب وتنسلب معه حيوية الارادة .

« أخرج وانتظرنى بالمكتب » .

ماذا كان يحدث لو لم انتظره بالمكتب . أغلب الظن «لاشىء» . كان يرسل ... هذه لا تنسى . وانتظرت باذعان الطاعة ، وتأميل الرتبة .... وجاء الى فلا يجدنى . وفى الغد كان ربما نسى غيظه العارض ان لم ينس كراهيته « الصول » بتيلته التى غمسها فى الملح .. وجلدنى ، أحسبه جلدنى تيليتين .

وكان قل أن يبلغ بعقاب التيلـة أكثر من اثنتـين فى الاكثر الاغلب • وثلاث جلدات عقاب أشـد صرامة وأندر • وسـمعنا أنه ربما بلغ بالعقاب سـت جلدات فى الاحيـان النادرة جدا • وكان لا يسمح بأكثر من أثنتى عشـرة على أية حـال من الجهة القانونية النظرية البحتـة فيما زعمـوا • وهـذه كانت كأنها درجة الاعدام ، فلا أدرى لاى الذنوب كانت تدخـر •

كانت التيلتان موجعتين ومكث وجعها أياما وصداه زمانا طويلا • وغضبت على الصـول ومن أمر « الصـول » والظروف التى أتاحت لهذا أن يأمر •• وغضـبت على الدنيـا •• وغضبت على الاسـتعمار ••• وغضـبت على الاستعمار ••

صـدق أحمـد شـوقى :

وللمستعمرين وان ألانـُوا قلوبٌ كالحجارةِ لا تـرقُّ

شاهد ذلك التيلة ـ « وإنّ من الحجـارة لما يتفجر منه الانهار ، وإنّ منها لما يشقّق فيخرج منه الماءُ • » صدق اللـه العظيم •

كانت تلك العقوبة الأولى فى أخـريات النصـف الأول من عام التجهيزى الاول • وتبعتها أخرى ، جلدتان أيضا توجع وأضرنى •جرتهما على «الطلبة» اذ لم يرض «الصول» عن أدائى فيها أو أحس منى خنزوانة غرور • وقالوا لى فى العنبر ان مرتين فى عـام فضلا عن نصـف عام شىء كثـير تخـاف عواقبه ، وأشعرونى أن مستقبلى الان فى خطر ، والفصل ألف ، والمجـانية والمنحـة التى يقـال لها Scholarship •

ـ تيّلـوك ؟ !

ـ مرتين تيلـوك وفى التيرم الأول !

ـوكمـان أول اللجنـة ؟

ـ فتـح عينك يا شـافع •

وفتح الشـافع عينيه • أم لم يفتح عينيه ولكنها عنايـة الله •

لم يعاقب بالتيلة ولا بالطلبة حتى ألغيت .

مرة واحدة ضربه أحد المفتشين أولاد البلد كف !

كان يتدين ويستعين بالله على اليتم والفقر والمصائب والناس . رأى فى وجه جدته اعياء وكانت تشكو ولم تذهب الى سوق السبت . وباعوا شجرة بريال ونصف ليحصل على ثمن ربع الاجرة ليعود به من العطلة الصغيرة . ومر زمان يسير ، أسبوعان أو ثلاثة وأخبروه أن جدته توفيت . وسقطت دموع حرار وهو يتجلد لكيلا يظهر أنه تأثر بالمصيبة . وكانت جدته تقول اذا سمعت بموت شخص أثير : « هلا هلا ، انا لله وانا اليه راجعون » ... وحزن حزنا : « هلا هلا يا حبوبة » - أى يا جدتاه - « انا لله وانا اليه راجعون » .

والموتُ نَقّادٌ على كفّه جواهِرٌ يَخْتار منها الجياد

كان ظاهرا عليها المرض وممتقعا لونها شيئا وأحس فى نفسه خوفا عليها . وهل تقوى أمه الرقيقة قلب الحنان على هذا الدهر الشرس بعدها ... ولقد توالت الرزية بعد الرزية ... وكان فى الحوش الذى فيه بعر المعزى ينظر الى أسمال أشجار السنط ويخشى أن تموت ... ويذكر اذ مات والده وأخوه ... والدهر غير مأمون ... ولو ماتت أمه ووقع العبء عليه هو لكانوا اذن مثل « محمد وأخته ، فى سوق الخلا » (١) حينما حرمتها أمرأة أبيهما من طعام الوليمة وقالت لهما أحرسا هذه القدر حتى تفور ، وغطتها بجلد وما كان فيها الا حصى وماء ، ... وقدها محمد لما اشتد به الجوع وأخذ أخته وهربا وسكنا فى سوق الخلا » ... كل الاحاجى تحمل معنى قويا رمزيا من حياة الناس .

رحمهما الله ...

ونودى بعد أيام قليلة ، أقل من أسبوع وأروه تلغرافا يحمل نعى

(١) سوق الخلا اى وسط وحشة الصحراء المقفرة كان الخلاء القواء اقام سوقه هناك

والدته . لم يصـــدق . والدته ؟ ولقريبا ما تركها كأصــح ما تكــون ....
هذا غير ممكن .. مثلما ترك أخاه من قبل كأصــح ما يكــون ... عليك أن ترضى بقضاء الله يا بنى ... لامفر من تصـديق الخبر المر المشئوم ... وأظهر الجلد على أشد حر لاذع ... هــو الآن فى « ســوق الخــلا » ... يا للمصــيبة الرعنــاء ...

واذا المنيـــةُ أنشـــبَت أظفارَها   ألفيْتَ كلَّ تميمــةٍ لا تنفعُ (1)
والدَّهرُ لايبقى على حَدَثانِه   جَوْنُ السَّراةِ له جدائدُ أربع
والدهر لا يبقى على حدثانه   شَــبَبٌ أفزَّته الكِلابُ مُرَوَّع
والدهر لايبقى على حدثانه   مستشعِرٌ حَلَقَ الحديدِ مُقَنَّع

يا للفاجعة ... والله يحكــم لا معقب لحكمــه ..

حف به زمـــلاء لما سمعـــوا يواسونه (لا يستطيعون الكلام . وطلبوا لــه شايا من عبد الباســط ... وفى الليل (سيسافر غــدا الى البلد لحضــور العزاء مع البقيـــة الباقية من الاسرة) ــ فى الليل ســمع أصواتا من أنس الناس المعتــاد . واغتاظ للوحشـــة والانفراد بأسى المصيبة .... ووقــع صـــدق الخبر الذى كان من قبل ضربة صـــدمة عليه وقتوعا ثقيــلا فر منــه الى الدمـــوع المنهمرة الغزار وهو أحـــر شىء فى حشــاه .

طوى الجزيرةَ حتى جاءنى خبــرٌ   فَزِعتُ منه بآمالى إلى الكذِب
حتى اذا لم يــَدَعْ لى صدقه أملاً   شَرَقْتُ بالدَّمع حتى كاد يشرق بى

كانت والدته أصــبر الناس وأنبلهم وأحبهم ...

---

(1) الشـــعر لابى ذؤيب . المنية ، الموت . التميمة العوذة كما نســميه نحن الورقــة والحجاب الذى يتخذ لدفع الشر والعين . جون السراة : اى اسود الظهر ، ويعنى به الحمــار الوحشى وكان يعد من رموز القوة ، وجدائد اى زوجات جمع جدود بفتح الجيم وهى الحمارة الوحشية التى خف لبنها من أجل حملها ، شبب بفتحتين ، الشبب هو التام القوة من الثيران الوحشية . افزته ، الزاى مشددة ، وى شردته واتبعته . مستشعر حلق الحديد اى لابس على جسده الدرع المصنوعة من حلق الحديد ، مقنع اى مدجج بالسلاح له قناع من الحديد . يقول الشاعر ان الدهــر لا يبقى على حدثاته شىء مما يسبق الى الوهم انه رمز من رموز القوة .

قالوا أصابتها حمى التهاب فما أمهلتها • وقد أصابها ارهاق شــديد بعد وفــاة والدتها • ورامت أن تكتم خبر وفاتها عن ابنها اشــفاقا عليه وذلك ما لايستطاع ••• لقد بهظها ثقل الفادحــة • كانت تكظــم الغيظ وتعفــو وُتحسِــن العشرة وتطيب النفس ولا يستفزها شَرّ الناس الى الغضب ••• كانت كما قال عن ابنته الملك لير، رقيقة الصــوت ، خفيضــته ، زين النساء ،

.... Her Voice was ever soft
Gentle and low, an excellent thing in woman ....

والآن ذهبت الى الأبَــد ولن تعــود •••••
ويحيــا الأوزاغ والخنــافس وأبنــاء اللكيعــة •••
ويتحدثون وأســمع أصــواتهم وأبكى •••
ذهبتا كلتاهما معــا الى الابــد •••••
ذلك الذهــاب السرمــدى •••••
ومضى الى البلــد •••• وبكى وبَكَــيْنَ شَــجْوهنّ ••

ثم شــهد فراش البكاء ذا الخشونة والكِسْرة والسُّلوان الغليظ • ثم عاد والفــؤاد مكلــوم •

قال له أحد أصحابه وكان شاعرا ، أرجــو أن تكون تأســيت

وما المــوتُ الا سارقٌ دقَّ شخصُه ... يصُولُ بلا كفٍّ ويسعى بلا رِجْل
يردّ أبو الشبل الخميسَ عن ابنــه ... ويُسْلِمه عند الولادة للنَّمــل
اذا ما تأملت الزمانَ وصَرْفَــه ... تيقنت أن الموتَ ضربٌ من القتــل
وما الدهرُ أهْلٌ أن تؤمَّل عنده ... حياةٌ وأن يُشتاق فيه الى النسلِ

وأخذ نفسه بحزب القرآن يتسلى بالنظر الى أسطار آياته يجد فيهن راحة نفس وبرد عزاء : « واتل عليهم نبأ ابنَىْ آدمَ اذ قــرَّبا قُــرْبانا فتقبــل من أحدهما ولم يتقبل من الاخر قال لأقتُلَنّكَ ، قال انما يتقبل الله من المتقين » • كان ربما صام يتطوع به • وربما نهض فى الثلث الاخير كسابق عهد أبــاه لولا أنه ليس كمثله نــدى صــوت •• وارتضخ أخطاء فى القراءة ما صححها

إلا بعد زمان ومن أخطاءِ الصبا مالا يستقيم على التصحيح .. كان يستعين بالعبادة ولا سيما التلاوة على اليتم والفقر والمصائب والناس . وكان فرديَّ المزاج فى جميع ذلك . وربما صدت نفسه عن الأوراد المرتبة والسموت المحفوظة والطقوس الموضوعة . كان لا يضع راحة يده فوق جبهته بآية الكرسى بعد صلاة الصبح ، يقرأ آية الكرسى فقط ، سرا فى الغالب . وسمع عمة له تقول وهو صغير :

سورة البقرة للدارسين
وآية الكرسى للتحصين

قولاً مأثوراً من باب ما ينشد . وكان لا يرفع اصبعين اصبعين الى فمه وعينيه يومىء بهما ويقول حبيبى وقرة عينى عند التشهد الثانى من الاذان . ويسمع من الساجدين وسوستهم « سبحان ربى الأعلى ، سبحان ربى الأعلى » فقلما كان يصنع ذلك — ولا أبدا « حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه » يسمعها ممن يتكلف بها التقوى من يمين أو شمال . والمطولات التى قبل تكبيرة الاحرام ، وبعد السلام ، والتمهيد للباقيات الصالحات بجل الباقى سبحانك سبحان الله ، يرفع بها بعضهم أصواتهم ثم يتخلصون الى التسبيحات التسع والتسعين كما يتخلص الشاعر بجهد من النسيب الى المديح :

أُحبُّكِ أو يقولوا جَرَّ نملٌ ثبيراً وابنُ ابرهيمَ ريعا

والسدل كان أحب اليه من القبض كأن فى هذا من بعض الناس مبالغة فى اظهار الخشوع مع ما يتزيدون فيه من احناء وخضوع رأس وتطبب بعضهم بوضع الراحتين فى حيث يظن أنه من صدره مقابل لموضع القلب . وأصناف من جلبة الجماعات كانت لا تعجبه . واعترض بعضهم بجهر الدعاء يقطع به ما يسر به مخلصا الى مولاه يأمل أن يستجاب ... كان صائما يتلو فى زاوية التلاميذ .

وضرب جرس طابور العصر ، طابور الساعة ٤ ـ الجرس الاول • وبعد خمس دقائق سيضرب الجرس الثانى •

كان طابور الساعة ٤ (بعد الظهر) عظيم الخطر ، أعظم خطرا من طابور الصباح • ما كان تلميذ أو رئيس ليحضره يلبس شبشبا أو على رأسه بشكير • كان مكتمل النظام يحضره جميع التلاميذ ، الداخليون والخارجيون بالجلاليب البيض والعمائم ، عمائم التجهيزى ذوات اللفة الظاهرة المعروفة • ويشهده رئيس المشرفين The Senior Tutor وجميع المشرفين ومساعدوهم وضباط الداخليات والرؤساء ورئيس الرؤساء • وكان يهيمن على الطابور جو هيبة ، واستشعار صمت • كان الصمت لزاما •

وكان أحد المشرفين حديث عهد بقدوم ، شابا شديد الحيوية يتحفز كالنمر وهو بملابس الرياضة ، قميص ذى لون باهت الزرقة ، وشورت (سراويل قصير) من الكاكى ، وحذاء ألعاب ، ويغز كوعيه ، ويمشى قلقا عند مكان داخليته الى نصف الميدان •

كان طابور الساعة الرابعة يقفون فى الميدان الغربى من الحيز الذى هو مباشرة أمام مربع مبانى الكلية الرئيسى •

وفجأة يثب النمر باشارة من مخلب يده الى فريسة من تلاميذ الطابور :

ـ •• ؟ •• Talking

ويجثم صدى وقع الصاعقة على الطابور جثوما

ـ Come to my office

وهى التيلة لا ريب فيها •

وكان النمر ربما حضر الصباح ووثب :

ـ See me at one Thirty

ويكون صَبَّارة (١) غداء المسكين أن نتغذى به النبلة من قبل فلا يصل الى السفرة (قاعة الطعام) الا وهو ناشف الريق •

وربما سمع النمر يجوس بعد الساعة التاسعة مساء مباشرة • وتلك كانت ساعة اطفاء النور وأخذ التمام وعلى كل أن ينام ••• وكانت أكثر الليالى انما هى ليالى صيف لا يستطاع فيها نوم الغرف ، فكان معظم التلاميذ ينامون فى الميادين ، يخرجون سرايرهم من العنابر ويفرشونها •

Talking ?

وفى الليل ، ولا سبيل الى تبين الوجوه ، يجدس اتجاه الصوت ، ويرين السكون الساكت كما لو قد انعدم النسيم ••• وحين يستيئس النمر من معرفة الذى تكلم ربما يزأر : ••• ؟

Who is talking there ?

سكوت دامس ••• ويجوس قليلا ثم ينصرف •

ـ أمانه الخواجه دا مو فقسر ••• (أى أما انه للئيم ومشئوم) ـ ثم يتبع ذلك لغط يذمه ربما جعل تعلو أصواته شيئا فشيئا •

ـ خلاص يا جماعة خلونا ننوم •

ـ خلاص انتهوا

Talking ?

هذا أحد التلاميذ يقلد صوت النمر يخيفهم به •

ـ اتلهى يا مخلص

ـ خلاص ، كفاية •

لما ضرب الجرس الثانى كان « الشافع » قد قارب ميدان الطابور • يمشى خطوة خطوة • كان فى السنة الثانية فى نصفها الاول • كان مطمئن النفس التى تريد أن ترجع الى ربها راضية مرضية • وما كان يخطر بباله أن

---

(١) الصبارة الشىء القليل ياكله الجائع الذى ينتظر طعاما كثيرا جيدا ليتصبر به •

أحدا سيؤاخذه على تأخير دقيقة أو دونها وهو صائم • وكان يريد أن يقول للنمر اذا قال له يزأر :ـ

Coming late ?

ـ اللهم انى صائم •

يترجمها طبعا ويتأدب : I am fasting, sir

وستهمد جمرة النمر همودا • كل الخواجات يعملون حساب الدين ، هكذا فكر وقدر • ولله در أبى الطيب اذ يقول :

فلا تَنَلْكَ الليالى إنَّ أيديَها ... اذا ضربْنَ كسَرْنَ النَّبع بالغربِ

وربما احتسبَ الانسانُ غايتَها ... وفاجأتهُ بأمرٍ غيرِ محتسبِ

وكان أمر الله قدرا مقدورا •

كان أحد المشرفين أولاد البلد (وكان المشرف ابن البلد شيئا نادرا وانما استحدث ذلك منذ زمان قريب) وكان قلما يحضر طابور الساعة ٤ تحديا اذ كان « وطنى جدا » ـ هكذا كان يقول الطلاب ـ كان قد جاء • ولفت نظره الحشرة الصغيرة الذى يمشى بغرور كبير من بداية المدخل غير مكترث بأجراس الطابور ، كأنما كل هذا العناء غُثاءٌ • وكأنما قال لنفسه سالقنه درسا لن ينساه ، ولن ينساه هؤلاء الخواجات ، هؤلاء الاولاد المغرورون جميعا •

كان الكف قد انتهى منذ أيام المدرسة الوسطى ، وحتى فى المدرسة الوسطى كان يقال انه فى القوانين ممنوع •• وهنا فى الكلية لا يتصور • ولا يوجد لفظ يدل عليه فى كتب المطالعة الانجليزية وملحقاتها ، مما يدل على أن الخواجات لا يعرفونه • الخواجات يعرفون الخيزرانة The cane والجلدة The rod ومن أقوالهم •• (١)

Spare the rod, spoil the child

ويعرفون التيلة طبعا ويعاقبون بها المجرمين الكبار فى بلادهم ويقال لها السنور The cat ذو الاذيال •

---

١ ـ اى اذا لم تضرب الطالب ابطرته •

وجـاء الولد الصـائم يمشى بثقـة •
تعال هنا •••• ناداه المشرف • ومشى اليه بثقـة وبنفس نوع الخطـوات التي كان قدم بها ••• وهذا مسلم « وطنى جد » وسيعرف أنى صائم ••• ولكن ما هذا ؟ ••• «رن» و اذا «بقلم» يلمع كالبرق ينصب على خده الايمن والايسر ••• كف ! ••• وجمد حزينا اذ سـقط سيف القدر •
ـ «يالله ، روح الصـف»
•• وجمـد لا يتحـرك •••
ـ يالله ـ ولد مغـرور ••• روح الصـف •
ورويدا رويدامشى ••• وانصرف الطابور •• ولم تنزل صاعقة من السماء • ••• وكظـم التلميذ الصغير الصائم غيظا كبيرا ••• لماذا لا يغضـب اللـه الذى أهلك أصـحاب الأيكـة وثمـود ••• ؟ !

خرجت صحيفة طلابية باللغـة الانجليزية أسمت نفسها الرصاصـة The Bullet وانتقدت أن يلجأ شخص عزيز عليها الى استعمال الـ Slap ••• أخـيرا وجدوا الكلمة الانجليزية المرادفة للكف •
وذات صباح وجدت على جدران السلم الغربى الكبير عبارات انجليزية مسجوعـة تهتف بسـقوط النمر ••• !! Down with Brown
كانت السجعـة هتافا رهيبا وصـدمة ذات رنين •

لعلها كانت أول هتاف (وان لم يصـدح به أحـد ، وانما كان خطـا على جدار) منذ أيام الاضراب سنة ١٩٣١ • على أن المستر براون كان من خيرة المدرسـين ومن أجود من شاهدناهم ونحن تلاميذ وأساتذة من رجـالات التعليم أيام الحكم الثنائى • وقد صـار ناظر مدرسـة حنتوب الثانويـة بعـد خبرة وطول تجارب • وهذه كانت احدى المدارس الكبيرات اللاتى تفرعت اليهن كلية غوردن القديمـة ، بعد انشـاء المدارس العليا ثم الكلية الجامعية •والى المستر براون ينسب نظام عرف باسمه The Brown Plan
أحسـبه عـرض على الاسـاتذة فى بخـت الرضـا أخريـات

الاربعين ثم نوقش ليطبق ثم عدل عنه • وهو بعينه الذى أخذت عنه طريقة السلم التعليمى الذى قرر منذ زمن قريب ، فاستبدل نظام المدرسة الاولية فالوسطى فالثانوية (أربع سنوات لكل) بنظام الابتدائية ست سنوات ، فالثانوية العامة فالثانوية العالية ثلاث سنوات ثلاث سنوات • وليس أحد النظامين بمنج من حقيقة المنافسة الشديدة التى تجعل من التعليم عندنا المعاصر كله لا سلما ولكن هرما قاعدته المراحل الاوليات وقمته الجامعة • ولقد جر الرجوع الى نظام براون وتطبيقه فى عجلة الى اضاعة زمن ، قريب من عام ، ينقص أو يزيد ، ونشأ من ذلك هبوط فى المستوى زيادة على ما كان من هبوط بسبب التوسع من قبل السريع •

هذا ، ••• وكان المستر براون ذكى القلب متقد الذهن ذا نشاط وتفان فى العمل واخلاص ــ يتعصب للداخلية التى يكون مشرفها ، قفز مرة من بين مجموعة الاساتذة المتفرجين الى أرض الميدان حيث كان تلاميذ داخليته منهزمين هزيمة ظاهرة فى جر الحبل ، فجعل يشجعهم بحماسة منقطعة النظير وتوقيع منتظم : One- two-three ..Pull

P u u u u ll ....

حتى انتصروا وأخذوا الدرقة •••••

••••• وللفصل الذى يكون قيمه ، والزملاء الذين يكون رئيسهم • وكان يحب الرياضة البدنية ، الكرة بأنواعها والجمباز والسباحة وأعمال الزراعة • وكان يحب الرحلات ويخشوشن ولا يتنطس حين يسافر مع الطلبة فى طعام ••• وكان آخرون يأبون الا أن يضع فراشوهم لهم المناضد عليها الاشواك والسكاكين ، وبعد مغيب الشمس يلبسون البنطلون الابيض والقميص الابيض والحزام الاسود الذى كان ينوب عن بدلة العشاء فى هذه المناطق الحارة عند انجليز المستعمرات • عند عباد المسلمين كان ينوب التيمم عن الوضوء • « لخوف ضر أو لعدم ماء » كما قال ابن عاشر • والقياس مع الفارق • وهذه يا سيدنا جنتهم •

كان ربما أكل الطعام الوطنى واستحسنه (الطعام الوطنى أى native food) • وكان يشارك تلاميذه جميع وجوه نشاطهم فى يسر وبساطة • مشى الاميال الخمسة والعشرين بين أركويت وسنكات معهم لا يبالى • ووقف معهم باحترام يسلم على السيدة الشريفة ذات الجاه • وكان ذا مروءة وشهامة ومتانة خلق • وكان مع هذا حسن الفهم لمادته ، جيد التفهيم لها • كان يدرس العلوم العصرية من كيمياء وطبعيات وحيوان ويشارك فى الرياضيات ويجلس مع التلاميذ يحل معهم المسائل فى جد وصبر • وكان قويا فى الشطرنج من غير فرط اقبال عليه • ومع الذى بدر منه أوائل أيامه من تنمر وشدة حتى استدعى ذلك الهتاف ، كان ذا رآفة وتسامح وفؤاد رحيم • دخل مرة أثناء ساعة المذاكرة التى كانت مفروضة فى المساء وكانت مما يقال فيه talkig ? ومما قد تنشأ عنه تعرضة للتيلة أو للطلبة أولهما كليهما عند سوء الحظ ••• فوجد على السبورة رسما يمثل حوض العوم الجديد حوله أصناف المعزى تلبس التبابين (المايوهات) والجلاليب والبدلات • واضح أن المعزى كان يراد بها الكلية بأسرها تلاميذها ومدرسوها أولاد بلد وخواجات ، الى فراشيها • عتود (١) مشلخ شايقى تيس عليه شلخ عبد لابى T سلم الشيخ الطيب ـ الشيخ العبيد ـ قصة شعر مشقوقة فوق رأس العنز بين قرنيه مثل مستر فلان ومستر فلان ـ وهذا تلميذ يمد ذراعيه يريد أن يقفز للغوص Diving يريد أن يتمدن ، الكلب • وهذه غنماية تلبس جلابية وبيدها كوب شاى ••• ووقف يتأمل حينا بانتباه شديد وفصل المذاكرة واجم ينتظر كارثة ••• وتناول الطباشيرة وجعل يصلح

---

١ ـ العتود ولد المعزى • الشلخ فى اللغة الاصل وفى دارجتنا الجروح التى تخط على الخد لتميز اصل صاحبها وتنسب الى القبائل والى مشايخ الطرق لان بعضها كان فى اصله تعاويذ •

بعض الاشكال ، وينظر الى ما يصلحه بتأمل .. ثم التفت الى الفصل الواجم

وقـال : (هـذا جيـد جـدا) That is very good

من رسم هذا ؟ هل رسـمت هـذا ؟ .

كان صـادقا فى الذى أبداه من استحسـان

ـ هذا جيد جدا ... حقا That is very good... very good indeed

لعل الذى بدر منه من قسـوة من قبل انمـا كان مـع طيش الشـباب نحـوا مما ذكره أبو تمام حيث يقـول :

فقسا ليزد جروا ومن يك حازما فليقس أحيانا على من يرحم

ولعلهم كانوا تلقوا أوامر وتوجيهات من عل فى ما يتعلق بالاسـلوب الذى ينبغى أن يتبعوه مع أبنـاء الاهالى الذين هم فى طـور اعداد لمستقبل أرشد وأقل وحشـية ، فكان بحكم طبيعة ميله الى الولاء والاخلاص ، أشـد لها طاعة ، وأكثر بهـا التزامـا .

كانت صـدمة الهتاف المسجوع مما نبهه بلا ريب

ولكنه أيضا قد كان من معدن طيب . وقديما قال أخو ذبيـان :

ولَسْتَ بمستبقٍ أخاً لا تَلمُّه على شَـعَثٍ أَيُّ الرجالِ المهـذَّبُ

ومكث زماناً وأفاد منه طـلّاب كثيرون . وأحسن الحطيئة اذ يقول :

من يفعل الخَـيْرَ لا يعدم جوازِيَهُ لا يذهب العرف بين الله والناس

**** **** **** ****

ألغيت التيلة والطلبة سنة ١٩٣٧م وذهب المستر وليامز وجاء المستر سكوت .

كان المسـتر وليمز فارع الطـول ، قوى البنية ، يمشى صلت القوام مع جنأ يسير جدا فى العنق ، وكان منظرانيا ، جنديا فى هيئة المشـية وتعبـير الوجه . وكان له كلب جسيم . وكان كأنه مضروب عليه حجاب كثيف فلايراه أحد الا بمقدار .

أحيانا يمر بالكرة والجمباز . قل أن يزور الفصـول . ربما رئى يتمشى عند شاطى البحر (١) أو يجتاز الى مكتبه من طريق الميادين . وكان أكثـر

(١) البحر اى النيل ، قال الشاعر بالدارجة : بحر النيل ال ما بينقاس .

ما يرى عندما يكون فى كامل أبهته وهو يشرف على حفل التخريج ، ويشهد نهاية مباريات موسم الالعاب ويوزع جوائزه الكبريات •

وكان ربما استدعاك للتحذير فى مكتبه • أما التيلة فكان يقال من أمر له بها فى مكتبه فلا ينقص من أثنتى عشرة جلدة ، الرقم الخيالى ، وما عرف أنه أمر بذلك لاحد ، ولكن شبح هذا التنين القانونى كان يتقدم المدير الجسيم حيث سار ، ويطوف حول مكتبه ذى الأستار ، ويبث الرعب فى قلوب أبناء الاهالى الاشرار •

وهذه سنة ١٩٣٦م ، ثانى مرة يرى « الشافع » اسمه مطبوعا مع كلام له مطبوع • وأقبل على ديوان المتنبى بشرح البرقوقى يقرأ منه قصيدته الميمية :

لهوى النفوس سريرة لا تعلم عرضا نظرت وخلت أنى أسلم

يتعلم منها الهجاء • وأنشد كلمة جاراها بها لصاحبين له ، فقالا له أن هذا كلام خطر •• وأحس بوحشة شديدة وانكسار ••• وأحس أيضا بنجاح وشعور تحد وعناد ••• ونقل الكلمة بخط جميل فى أول كراسه زرقاء الغلاف ، بيضاء ناصعة الورق ، منسابة الاسطار •••

وجاء امتحان آخر السنة فطاح باطل « التيرم » (التقدير الشهرى) • هو وزميله الذى وقف معه أمام المدير استمرا كما كانا •• مجانا والمنحة وثانية ألف • وتدهور من الفرسان الثلاثة أثنان فلم يعد لهم وجود • وانضاف الى الفصل ألف فى السنة الثانية من الذين كانوا فى السنة الاولى « باء » عدد كانوا حقا من المبرزين ، منهم أبو بكر على رضا وصغيرون الزين وناهيك بهما • أخذ أبو بكر على رضا جائزة الانشاء الانجليزى للصغار ونحن فى السنة الثانية ، وأخذ صغيرون الزين جائزة المعلومات العمومية المفتوحة لكل طلبة الكلية كبارهم وصغارهم ونحن فى السنة الاولى وكنا صديقين منذ أول عام صداقة حقة استمرت بحمد الله الاعوام

الطوال ، وبقينا معا فى فصل واحد الى آخر أيامنا بالكلية • وانضاف الينا بعض من كانوا معنا فى السنة الاولى وتأخروا فى السنة الثانية شيئا ، واحد واثنان • وظل الفصل فى جملته على حاله لا يتغير •

فى السنة الثانية حولنا من الحجرات الخمس التى خارج البناء الرئيسى الى المربع الرئيسى نفسه ، فى طابقه الأعلى ، فى آخر جناحه الشمالى عند ركنه الشرقى حيث يلتقى بالمعامل • وظللنا فى تلك الحجرة يتغير اسمها من ثانية ألف الى ثالثة ألف الى رابعة ألف حتى تخرجنا • هى الآن بعض المكتبة العمومية الكبيرة • ويا طالما قد صعدنا وهبطنا ثم صعدنا عند سلمها الكبير •

لن يلبث القُرناءُ أن يتفرقوا   ليلٌ يكرُّ عليهم ونَهار

تعجبنى كلمة الكاتب الانجليزى شارلس لام Charles Lamb التى فى أولها يقول : I have had playmates, I have had companions

in my days of childhood, in my joyful School.

All, all are gone, the old familiar faces.

مات من فصلنا أحمد السيد ، وطه عثمان بلية وعثمان البدوى المبارك على هذا الترتيب وكلهم بين الشباب والأشدِّ واستواءِ السن من الرجال• رحمهم الله رحمة واسعة انه سميع مجيب •

لما كنا فى السنة الثانية جاء المستر سكوت فخلف المستر وليمز •••• وألغى التيلة والطلبة والتيرم جميعا •

كان المستر سكوت من أهم رجالات من ما رسوا التعليم فى السودان الحديث • ولعله أن يكون أهمهم جميعا بعد المستر جيمز كرى الذى كان على يديه أول تدوين مصلحة المعارف وانشاء كلية غوردن • كان مجددا وذا ثورة وصاحب أفكار •

قدم السودان ليلتحق بالسلك السياسى فاقلته ذكاؤه عنه الى التعليم • كان صغير الجسم ، الى القصر ، منحنى أكتاف الظهر ، حسن طلعة الوجه ،

قصير سبائب شعر الرأس ، يمشطها على طبيعة استدارتها فى الرأس فينحدر منها جانب قليلا على أعلى جبهته وليس بأغم .. أفلت من ان يكون أغم ... وليس بأنزع .. تخالط لونه صفرة تعرض للحركة والهواء والشمس ، يتكلم بنبر واضح وتمثل للمعنى فى الاداء وتعبير الوجه مع مبالغة ما . وفى عينيه بريق ذكاء وعلى خديه أسارير ابتسام ، ويلوى فمه العريض يتأمل ، ويضحك ضحكة يحتسبها مفتعلة ، تخالطها من أنفه غنة وجرس زفير خفى قصير ساخر متهكم .

فتح المستر سكوت صدره للتلاميذ يسمع منهم ويناقشهم . بدأ أول الامر بالرؤساء يدعوهم فى منزله الى الشاى ، بأزفلات من التلاميذ الكبار ثم جعل يرى . يمر فى ساعات الفسحة ـ وفى الظهر والعصر فى الميادين . ويقف عند الجالسين يتحدثون فيتحدث . يسلم بالعربية وكلمة وكلمتان بها ، فصيح اللسان ، ويتحدث بالانجليزية . لا يطيل فى الحديث أثناء نحو هذا من المرور ويقف عند الالعاب يشاهد .

ـ الخواجه ده نمس .

استكتب المستر سكوت جميع التلاميذ فى جميع الفصول من طريق أساتذتهم مقالات يتحدثون فيها عن حياتهم فى الكلية ينتقدونها لا يتملقونها أو شيئا من هذا الريف ، بصراحة وحرية . وأوجس بعضهم خيفة .

ـ دا عاوز يكشفكم اعملوا حسابكم .

ـ دا قسيس كبير .

ـ يا ود اكتبوا . ما هو قال ليكم انتقدوا ـ اكتبوا الجد .

ـ ما تخافوا .

ومن لم يصانِعْ فى أمورٍ كثيرة   يضرَّس بأنيابٍ ويوطأ بمنسم

ويقول آخر من أولاد العنبر أو الداخلية ـ ولا تخشى الآن زئير talking?

talking?   بعد الساعة التاسعة : اعملوا حسابكم .. انت ياشافع :

وللمستعمرين وإن ألانوا   قلوبٌ كالحجارة لا ترق

وينشدون أبياتا حسانا من قصيدة شوقى هذه القافية الرائعة التى كانت من مكونات الوطنية فى هذا القطر ، ان لا فى الشرق العربى كله ، على اقل تقدير :

وللحرية الحمراءِ بابٌ   بكل يدٍ مضرجَةٍ يدقُ
وللمستعمرين وان ألانو   قلوب كالحجارة لا ترقّ
ومن خُدَع السياسة أن تُغَروا   بألقابِ الإمارةِ وهى رِقّ
غمَرْتُ إباءَهم حتى تلظت   أنوف الاسد واصطرم المدق
وضجّ من الشكيمةِ كل حُرّ   أبىّ من أميةَ فيه عِتقُ

كتب التلاميذ المقالات وأفصحوا عن أنفسهم يتهيبون ولا يتهيبون •
مثل and then he will be (tealed) •• ••• عند الصول
وكتب كراسة كاملة أطلق فيها لنفسه العنان ••• واخترع فيها الفاظا
الجلواز الجلاد صاحب المقصلة La Guilloutine
حتى اسمها الفرنساوى عرفوه بعد أن قرأوا قصة المدينتين المبسطة
وشهدوا الفلم يمثل فيه رونلد كولان دور سيدنى كارتون ويقول :
It is far far better life than I have ever known
ودور بازيل راثبون يمثل الماركيز ••• الاستعمار •• Bah وتطأ حوافر خيله على رؤوس الناس •

واندفعنا نقرأ عن الثورة الفرنسية فى ما كتب هيكل ومحمد عبد الله عنان — كتابه المحاكمات الكبرى — وفى كتاب
The Historian's history of the World
وكتاب the Kingsway History وغيرها التى بالمكتبة • لم يتخرج المستر سكوت من أكسفورد أو كمبردج • وكان فى تعليمه مزاج لاهوت ، أكبر ظنى ذلك • وأخذ الناس به ، جيل الافندية جميعا ، الذين فى سلالم الصعود الى عتبات الجاه ، والمناضلون ، والمعاكسون والذين فى الاعداد — أخذوا جميعا على غرة •

كان عميق الايمـان بتفوق حضارة قومه على حضارة العـرب والاسلام، مع اعجابه العميق بما انضوت عليه حضارة هؤلاء من روح المقاومـة ــ هل هى أصالة أو تعصب ؟ كان المستر سكوت أميل الى انها تعصب Bigotry كانت كلمة Bigot من « البعابع » التى جعل هو بها يخيف الناس الصغار الناشئين الواعدين الذين كان هو شديد الكلف بمناقشتهم ومجادلتهم وتحـديهم و « قـه قـه قـه قـه ••••• »
ــ الخـواجه ده نِمْس •

كنا نعرف الشـك ونتحدث عن القدر وحرية الارادة وعن الالحـاد والمعرى ومساجلات طـه حسـين والرافعى وعن كفـر بشار ومجون أبى نـواس ومقالة الحلاج « مافى الجبـةِ الا الله » • وقرأنا فى التأريخ أن الحياة نشأت أول شىء فى البحر وجاءت ذوات الفقار والحيتان والطيور الكبيرة والزواحف والثدييـات • وكانت دراسـة غير محكمة ، دراسـة جوفاء لم يخلص منها الى قلوبنا معنى • وكان المدرس يمضى فيها كمن يمشى حافيـا على أطراف شـوك يريد أن يكون مؤثرا ولا يستطيع ، من أجل نـوع فى نفسه من عدم الاطمئنان ، قـالوا انه كـان ملحدا •

وكرهت قصـة « بلد العميان » وكانت من ضمـن بغاضات كتاب المطالعة السـادس ، وصورة هـ• ج • ويلز التى كانت معها ، وقصـته (أى ويلز) الرجل غير المرئى • كانت لا تعجبنى ومسروقة من طاقية الخفاء التى فى الف ليلة وليلة فى حكاية الحسـن البصرى الجميلة • فقط لمـا كبرت تفطنت الى بعض أعماق معانيها • وقرئت علينا حكايته عن آلة الزمان

The Time Machine

(من بعد فصـل متقدم تحت تأثير مسـتر سكوت وتوجيهه) وانتبهنا ولم يصـل الى قلبى منها شىء • تأريخه الكبير عمل عظيم وتعرض فيه لأخبـار المسـلمين ونال ، الكلب ، من شخصية سيدتنا عائشة يريد بذلك الطعن على رسولنا عليه الصلاة والسـلام ، وقرأنا ذلك نحن بكل غفلة، واعجب بعضنا

لروح ما كانت فينا من التشـيع ، فقـد عرض الخبيث الملعون لمـا كان من تصدى أم المؤمنين فى خبر وقعة الجمل لقتال أمـير المؤمنين .

قرأت كلام كنقزلى مارتن Kingsley Martin من بعد فى كتاب ذكريات حياته وتجاربه عن هـ . ج ويلز H.G. Wells فكان الانطباعة التى خلصت الى نفسى عنـه فى ذلك الزمـان الغض السـاذج البعيد قد كانت صـحيحة كل الصـحة ... والله تعـالى أعـلم .

كنا نعـرف عن نظرية التطور . وما كان غائبا عنا خبـر داروين ولا قول أبـى العـلاء فى الزمـان القـديم :

جـائز أن يكون آدمُ هـذا ... قَبْلَهُ آدمٌ على إثر آدمْ

وقالوا أن أصـل الناس قـرود . وتقبل هذه القضـية العقاد بـلا أدنى تشـكك اذ قـد قـال :

أيُّهذا الجيبون أَنعِمْ سلاما ... يا أبا العبقرىّ والبهلوانِ

وفى كثير من الناس من القرود مشـابه ولذلك قال النابغة :

أقارعُ عوفٍ لا أحاولُ غيرها ... وجوهُ قرودٍ تبتغى من تجادِع

وقـال أبـو الطـيب :

لسرىّ لباسُه خشِنُ القطنِ ... ومروىُّ مَرْوَ لُبْسُ القرودِ

كتبت احدى نشرات التقدميين ، أحسـبهم جماعة وفدوا من الاشتراكيين الذين كان يقال لهم The Fabian Society عن مثقفى السودان الافندية المتطلعين الى الآفـاق أنهم يحاكون الحضـارة الغربية محاكاة القرود بـلا رونقـها أو أسـلوب أدبهـا .

aping western civilisation without its manner and grace

عول المسـتر سكوت على مهاجمة حصـون المقاومة الفكرية التى كـان يمثلها الدين واللغة وجوها وميراثها القديم ، فى الصـميم ... واتبع فى ذلك أسـلوبا دقيقـا غـاية فى الدهـاء :

مناقشـــة الطلبة ، اطلاعهم على ما كأنـــه يتحداهم به من جوانب الفكـــر الأوربى ، الادب والفن ، التفكير الفلسفى ، التفكير الدينى ، التشـــكيك فى كل أمر مســـلم به قديم ، وازالة العقبات التى تحول دون المضى قدما فى هذه السياســـة ، أولها السياســـة الاســـتعمارية القديمة وكل ما نقمه التلاميذ وانتقدوه فى المقالات التى لخصـــت له وقرأها جميعـــا .

ـ كشـــفكم الخواجـــة النـــمس .

اختيارات من الكتاب المقدس (١) لا بالانجليزية المبسطة المفتعلة محاكاة الأسلوب القديم كما فى قصة شمشون فى الكتاب الســـادس ولكن من النص الذى ترجم على عهد الملك جيمز الاول The authorised version مثلا رثاء داود ليوحنان ولم يجىء به بائخا كما فى قطعة الكتاب الرابع Reader IV التى جاء فيها The daughters of the Philistines هكذا بســـطها الدكتـــور مايكل وســـت الذى كان جاهلا بطبيعة عقـــول العرب وقلوبهم ، وشـــديد الخضـــوع للترمت الذى ورثه جيل مواطنيه عن عقلية عصر الملكة فكتوريا .
جـــاء بـــه المســـتر ســـكوت كمـــا هـــو .

وســـئل عن معنى The daughters of the uncircumcised فقال يعنى بنات «الغلفا» بعربية واضحة وضحكته المحبوسة الساخرة ، (أى لا أنتم وحدكم تعرفون هذه الكلمة يابســـطاء كتب المطالعة المبسطة) . واختير لنا قطعات من جون بنيان وعرفنا عن Beelzibub (أى ابليس) وعن mephostopholis وقـــرأ لنـــا قطعـــة الأمـــير الســـعيد لاوســـكار وايلد The Happy Prince والقطعـــة التـــى أولهـــا : Vanity of vanities, said the preacher..
vanity of vanities all is vanity

ومن الشـــعر قطعات . وأسطوانات مملوءة بأغانى من شكســـبير تكتب

---

(١) الكتاب المقدس هو مجموعات الاختيارات التى وقع اتفاق المسيحيين عليها بالقبول انها من عند الرب وهى توراة موسى وكتب النبيين والقضاة والملوك وما أشبه وهذا يســـمونه العهد القديم وما روى عن سيدنا عيسى عليه السلام واصـــحابه وهذا يســـمونه العهد الجديد .

على السبورة وتشرح ثم نسمعها وندرك أن الاسطوانات التى نسمعها من نونوغرافاتنا :

أ فكر فيه واتأمَلْ   أراه أجلى واجمل

وحتى « يحيا الحب » واجتهادات عبد الوهاب

كلما وجهت طَرْفى   نحو وضّاح المحيا

لم أَجِدْ فى الأُفق نجما   واحدا يرنو اليّا

آه آه آه ...

كلها لا شىء .

come away, come away death and in a sad eypress let me be laid

Fly away, Fly away breath, I am slain by a fair cruel maid..

لا أشك أن هذا البيت سرق من أصل على ...

وعقد المستر سكوت حصصا لتدريس نظرية التطور واختار أمثلة مباشرة من كتاب The origin of species يحضرها ويلخصها.

وينتظر منا أن نجادله ونطعن فى هذا التشويش على أعماق عقائدنا ...

ويضحك ضحكته الساخرة .. انه هو بيلزبب (ابليس) Beelzebub .. انه هو مفستو فليس ، وهو شيطان أوسكار وايلد الذى يعوعى كديك الروم بحوصلة تنتفخ ... واذا بدا منا تمسك وتصلب أخرج مدية ارهابه الفكرية

أى لا تجادل كالمتعصب ... Bigotry

رمز المعارضة التى تلبس العمامة والطربوش وتتزمت ويتمسك بارشادها الجهلة الفنطيقيون . Fanatics يعنى المتعصبين التعصب الشديد .. قه قه قه » .. التعصب .. هذا يتناقض مع مفهوم حرية الفكر .. حرية الفكر الجديد الذى ألغى « التيلة والطلبة » وأعطاكم فرص المناقشة ومالم تكونوا من قبل به تحلمون .

Talking, come to my office at one thirty

ـ خــواجه خبيث

وكان يستشـــهد المستر ســكوت فى معــرض النهى عن التعصــب بخبــر أولفر كروميل حين قــال لمعارضــيه : I beseech you, gentlemen, think it possible you may be mistaken..

« بحقكم يا ســادة ، ظنوا أنه من الممكن أن تكونوا مخطئين » •• وبالطبع ما كان أحد ليجسر أن يقول لكروميل « ظن يا ســيدنا حامى حمى الدولــة أنــه من الممكن أن تكــون أنت مخطئــا » •

وعسى كان المستر ســكوت يكثر من استعمال هذه العبارة يستشهــد بها لزملائــه الذين ينتقدون عليه سياسته ومن يكون على رأيهم من خواجــات رجــال السلك السياسى ذوى التفكير المحافظ القــديم •

كان المستر ســكوت شديد العارضــة شديد المراس •• كان اذا مر أحس التلاميذ به الجالســون يتآنسون فى الميــدان كأن أفعــوانا قد انســاب • حدثنا فى حصــص التطور عن الفيل المسمى « الماموث » The mamoth والنمر ذى الناب الاعصل The sabre—toothed tiger والمتحجرات fossils ومسافات الســنين الضوئية وملايين الســنين • ليت

مدرسنا الذى كان غير حق جاد بنا ، اذ هذا كان مقــررنا فى التأريخ ، قــد كان أعدنا ولو باســم الوطنية ، ان لا باســم الفكر ، لهذا الذى قد تصدينا له الآن من الهجــــوم •

لم يكن المستر وليمز مخيفا • كان المخيف المستر ســكوت ، ينبســط الى التلاميذ وهم عن انبساطته يحجمون •

وافتتن به جماعــة • وتفرقت الاهــواء • وكانت تلك بداية دخــول وباء « الايدلوجيات » التى باســم التفكير تقتل التفكير ، وباســم الحرية تنعدم معهــا الحــرية •

كان نظـــام الحكم الذى شرعه كرومر ، وخطــه كتشـــنر ، وروجع على نهج خطا واضحة الغرض بعد ســـنة المظاهرات ، يمر بفترة حرجة تتطلب اعـــادة نظـــر وابتكـــار تغيير •

كان غبـــار سحابات عارض الحرب العالميـــة الثانية المبير يتصاعد شيئـــا فشيئا فى الآفـــاق • الحبشة الطويلة عهد الاستقلال داستها أقدام موسلينى ولم تعصـــمها سابقتها فى اتباع رســـالة المسيح عليه السلام من أن تقذف فيها الغازات الســـامة من عاصـــمة دولة أمـــة خلفـــاء قيصر والمســـيح • واجتاز هتلر وعســـاكره المنطقـــة المجردة من شاطىء نهـــر الـــرين ســـنة ١٩٣٦م • وأعيد فى مصر دســـتور سنة ١٩٢٣م بعد المعـــاهدة البريطانية المصرية سنة ١٩٣٦م • وجاءت فرق الجيش المصرى الى السودان ليكتسب الاشتراك فيه صورة معنوية محسوسة بعد أن كان مجرد اسم على مسمى :

ما مكرَمُ الا أخو مَكرٍ وما النـــ ـــحّاس الا خِدن نَحْس أنـــزقِ
إن المعاهدةَ التى أمضيتمو حِبرٌ على ورقٍ وسوف يمزّقِ

هكـــذا كانت نتيجة تعلم الهجاء الخطر • ولقد كان مصطفى النحاس باشا رحمـــه الله من أفضـــل من تصـــدوا للقيادة الشعبية فى بلاد الشرق العربى فى العصر الحـــديث • وكان مكرم عبيد من أهل البراعة والبلاغة والمقـــدرة الصحيحة والذكاء النادر ـــ شهد المنفى بجـــزيرة « ماهى » فى « ســـيشل » مع ســـعد باشا زغلول فى أوائل العشرين وعكف هناك فيما يذكر على درس القرآن مع بعض زملائه فى المنفى بعد رجـــوع سعد ، فلقن من ذلك ما أعانه على خطابته المسجوعـــة المرتجلة القليلـــة النظير •

كان المستر سكوت معروفا بانطوائه على روح ثـــورة فى داخل اطار السلك السياسى المستعمر فى ذلك الزمان • فكان يظن أن بعض ذلك بسبب عقـــدة أنه لم يتخرج من اكســـفورد أو كمبردج اللتين كان تخرج منهما معظم ـــ (لا بل ـــ) كل كبار أيـــام الحكم الثنائى • وكانت قد بدرت منه مخالفات متعمدة للتوجيهات التى صرفت اليه بوصفه مساعد مفتش جديد أول أعوام

عملـــه بكــر دفان ••• لعله الآن فى هذا الظــرف أن يكون أنسب من يعهد اليه بتهيئـــة جو من التغيير فيه أنفاس من حريـــة التفكير والتقدم والمرونة الامبراطورية القمينـــة بطول البقـــاء •

كان المستر ســكوت يعرف من العربية ، لا عربية المطبخ التى كانت لاتكاد النخبة الحاكمـــة تعرف غــيرها ، أو كان اختها عربية الغيط ــ « انت يمسك ندافه للهواشة نهار دا » التى كان يعرفها مفتشو الشركة الزراعية بالجزيرة كـــان يعرف الدارجـــة البلدية كما نبه عليها المستر هيللسون والفصيحـــة كما كان يدرســها المستشــرقون • وهو الذى ألف كتاب الاطفال للمدارس الاولية وحمل عليه ســائر القائمين بأمــر التعليم من طريق المستر غريفث الذى كان يتولى الاشراف التربوى واعداد المدرســين ببخت الرضا • ولقد اتفق أن كان ببخت الرضا الدكتور عبد العزيــز عبد المجيد بعد أن أقر هذا الكتاب بزمـــان ، فافتتن به وصنع أشــياء على غراره فنقلها الى معهـــد التربية الذى عمل فيه فى ما بعد ، ومن ثم أخذ عنـــه تلاميذه فانتشـــر داء كتاب الاطفال الذى صنعه المستر ســكوت فى بلاد العربية أجمع • على أن أوائل الــداء حقا قد بدأت منذ أن ألفت أمثال كتيبـــات ألف أرنب با بط ومن يضلل الله فماله من ســبيل • والجــدل حول كتاب الاطفـــال ونظيراتهـــا الناظرات اليه وطريقته وفوائدها واضرارها مما يطول • وما شككت يوما أن ذلك واثمه أكبر من نفعـــه ، وأن أفضـــل أساليب تعليم العربية هو منهـــج البدء بالقــرآن على نحـــو الـــذى كانت تصـــنعه عندنا خلـــوات القـــرآن وما ذكره ابن خلدون فى مقدمـــة تأريخه فى الفصل الذى تكلم فيه عن تعليم الولدان اختـــلاف مذاهب أمصار الاســـلام وبـــلادهم فى ذلك • والحق أن أوجـــه الشـــبه أكثـــر من أوجـــه الخـــلاف •

هذا وقد أدخل المستر ســكوت على طريقة التدريس والعمل فى كليـــة غوردن تغييرات جوهرية هى التى اتخـــذت بعدها كل الخطوات المؤدية الى قيام المدارس العليا ثم الجامعة • وفى أولى ســنوات ادارته زارت بعثـــة اللورد دى لوار التعليمية الســودان الانجليزى المصرى وأوصت أن يعـــد

تلاميذ الكليـــة اعدادا يمكنهم من أن يجلســـوا لامتحان شهادة كمبـــردج ويحصلوا على اجازة « المتريكيو ليشــــن » التى تمكن صاحبها من القبـــول فى الجامعــــــات ٠

لقد كانت ادارة المستر ج ٠ سى ٠ ســـكوت G.C. Scott نهاية العهد الاستعمارى العسكرى القديم وبداية الطبق الثانى من طعام الغيلان :

Great nature's second course

« الطبق الثانى العظيم فى وليمــــة الحيــــاة »

قالوا حين نظم شكســـبير هذا الكلام كان الطبق الاول فى الولائم والمآدب من الاشياء الحلوة التى تكسر الشهية (أو تزيدها) شيئا والطبق الثانى هو الشـــواء وهو أهم ما يقدم ٠ وهكذا كان الامر عندنا الى زمان قـــريب — يبدأون بلقيمات القمح (الزلابية) الحلوة مع التمر الجيـــد بعد ذلك الكسرة والملاح واللحم المحمـــر ٠ واستعارة الطعام للنـــوم ليست مما انفـــرد به شكسبير أو سبق اليه ففى العربية يقولون لم أطعم غمضـــا وقال الحماسى :

فقـــام يجاذِبُ البُرديْنِ لـــدْنٌ يَقُوتُ العينَ من نوم شـــهىّ

وشعر الحماســـة قد ترجم كله أو جله فى زمـــان القرون الوسطى القـــديم الى اللغـــة اللاتينيـــة من شواهد ذلك الاصـــل اللاتينى الذى ترجـــم عنه جوتة قصـــيدة الحماســـة المنســـوبة الى تابط شرا :

إنّ بالشـــعْبِ الذى دون سَـــلْعٍ لقتيـــلا دمـــه ما يُطَلّ

كانت الالعـــاب فى كلية غـــوردن بعد طابـــور الســـاعة الرابعـــة ٠ وأول أمرها انما كانت كرة القدم وكرة السلة الزاما كل يـــوم الا الجمعة والاحد ٠ ثم انضـــافت السباحة فى العصر بعد انشـــاء حوض العوم — وحرصـــت عليه حتى عبرت النيل واجتزت امتحان انقاذ الغريق وكل ذلك فى أقـــل من نصف عـــام ٠ وكان المجيدون فى كرة القدم يعرف أمـــرهم بعيـــد دخولهم الكليـــة ، ومنهم ولاسيما العاصميون ، من يكون قد عرفت اجادته لها وهو بالمدرســـة الوسطى ، ومن لم يكن قد عرف أمره سرعان ما تتاح لـــه فرص التبريز فى الشـــهر الاول من أول عـــام ، يوضـــع فى « التيـــم » العاشـــر

(أى الفرقة العاشرة) أو الســابع أو الحادى عشر مثلا فيقفز منه فى ظرف أســبوع الى الرابع والثالث فاذا وصــل الاول كان من الابطــال المنتخبين للتيم ، (أى الفرقــة ، التيم كلمــة أصلها انجليزى Team) ذى الشرابات (الجوارب) ذات الخطــوط العرضــية البيض والسود والاحذية الســميكة ، ذلك تيم الكمبايند The combined Team

أى المخلوط من سائر الداخليات ، تباهى به كليــة غردون وتبارى كبيرات أتيــام العاصــمة وربما قيل له الكمباوند بالبــاء المعطشــــة مبالغــة فى النجلــزة من قولهم بالانجليزيــة Compound وهى و

Combined فى لغتهم بمعنى واحد ، وتنفرد ذات البــاء المعطشة بدلالة خاصــة فى علم الكيمياء فعل الذين كانوا يؤثرونها رمــزوا بذلك الى هذا المعنى ... أن هذا التيم المختلط أكسبه ذلك معــدن قوة خاصــة بــه ليس له فيها نظير ، واللــه تعــالى أعلــم .

كنا اذ نحن فى المدرســة الوسطى نســمع عن طلعت فريد ، وكان « تيــم الكمبايند » يقدم من الخرطوم ليتبارى مع تيم الســكة الحديد بأتبــرة . وكان هؤلاء يلعبون حفــاة ، وكان لهم لاعب متخصص فى كسر أرجل أولاد الكلية ذوى النعمــة فى ظنه وظن صــحبه ، واليسار . كانت قد وفدت الينا مع نظــام التعليم الافــرنجى جنادع من روح طبقيته . قالوا وكان لمكسر الارجل فقير (أى رجل صلاح أو سحر) يجلسه هو كلما قــدم « تيــم » المباراة ليمســك له اســما يكسر به رجلا ويصيب المرمى ، ويحجب مرمى أتبــرة فلا يصاب . وكان « لتيم » الكليــة فى تلك الايــام فى ما كان يخبرنا أولاد كانوا يذهبون الى أتبــرة ويشهدون المباريات حارس للمرمى ماهــر لا تستطيع كرة أن تتجاوزه يقال له كرار . قالوا وكان «كابتن تيم الكمبايند» أى رئيســه ، فكنا نعجب من حارس للمرمى يكون رئيس تيم ، وكنا فى ذلك الزمــان نحسب حراســة المرمى أضعف مناصب لاعبى الكرات . قالــوا وكان الذى يســتعين بالاسماء والعــروق عند الفقير يلعب ببراعته حتى اذا

دنا من المرمى قذف بطاقية كان يلبسها على رأسه ، فلا أدرى أكان مسموحا بذلك أم كان لا يراها أحد ، فيقفز الحارس العجيب اليها فيرمى الكـرة من الجانب الذى أخـلاه • قالوا وفى مرة من المرات كسر اللاعب ذو العـروق أحد « أقوان » الكلية (قون ، حارس المرمى وجمعه أقـوان من الكلمـة الانجليزية goal بعد قلب لامها نونا) فصـاح الناس بنوع من روح الطبقية العمالية المعـادية لطبقـة الافنديـة التى هى ارسـتقراطية أولاد البلد : « غلبـه بغلبه وقون مكسور » •

وقفز اسـم أحمد أمين حميدة من أول عـام الى « تيم الكمبايـنـد » • وكنت طوال السـنة الاولى فى التيم الثالث عشر وكذلك فى السنة الثانيـة ، وضنوا بأحد الكبـار أن يستمر فى هذا « التيم » المتأخر لما صرت الى السنة الثالثة فنقلونى الى التاسـع • ولا أذكر اننى كنت أحضر الكـرة • كنـت أحضر التمام ثم أذهب مع بعض الرفـاق نشرب الشـاى وننظم الاشعار • وبعد حوض العـوم كنت أستبدل الكرة بالسباحة فقد يـؤذن لى • ومـرة للشـقاوة لعبت عصر يوم عطلة فى ظل اللبخة التى شمال الداخلية مع أحـد الزملاء فانكسرت يدى • كان ذلك فى السـنة الثالثة وكان ذلك آخر عهـدى بكـرة القـدم والحمـد للـه •

أول قدومى التيم الثالث عشر اخشوشن على رئيسـه فى المقالة ، ونظرت اليه فاغتظت جدا من نـوع روح منافسة شرسـة رأيته على وجهه • كان أول اللاجنة فى عام مضى • فكأن أوليته عنده كانت منصبة على كل من جاءوا بعد زمانه وغير خاليه من الامتداد الى بعض ما قبله • وتراشـقنا بألفـاظ الضرات • وكأن سحابة من ذلك الكدر لازمتنا الزمان الطويل •

وكان يوم الجنائن والزراعة ، بـدل الجمباز ، أحب الى من سائر الالعاب غير العـوم • ولما كنا فى السـنة الاولى وكان المشرف عليه من الطلبة الكبار له وجه مثال وجوه الفقـراء عليه مسـحة التدين وانشراحة روح أولاد البلد وظلل انقباضات غضبهم حين لا تعجبه الامـور • فكنت أحـدث نفسى أن أصير الى هذه الانعزالة الجنائنية الممتازة يوما ما ، حين يمكننى التمـاس

استبدالها بالجمباز اللعين • وما هو الا أن صرت من الكبار حتى تمردت على كلا الجمباز والكرة • وبلغ الامر المشرف المسئول فاقترح علينا أن نلتمس بديلا • وكانت الجنائن قد حيز اليها انعز اليون أمهر بالتسلق منا انتهزوا الى ذلك الفرص • فاقترحت أنا وأصحابى أن نزرع ميادين الداخلية الجنوبية لوبياء ثم نربى فيها قطيعا من المعزى • (كأن الفكرة أخذت من كريكاتور المعزى ذوات التبابين والجلاليب والبنطلونات، فى سبورة المذاكرة عند حوض العوم) • ثم هى غذاء الصغير ومال الفقير •

وكسلنا فى الحفر ثم تركناه مرة واحدة بعد الذى كنا أبديناه من حماسة ونشاط • وجعلنا من بعد نختلف بين المقهى وكرة السلة وحوض العوم ولم يضايقنا المشرف بسؤال •

كانت السباحة أجود رياضات الكلية جميعا ــ ومع السباحة القارب ، قارب الكلية الوحيد ذو المجذافين ، وكنا ننظر الى صور مباريات التجذيف بين أكسفورد وكمبردج باعجاب ونظن أن قارب الكلية الوحيد الافطح انعكاسة منها • وتعلمنا التجذيف من المؤخرة بمجذاف واحد ، فيسرع القارب كأنه متحرك بريشة « لنش » ــ مثل القارب الموصوف فى احدى ليالى كليوبترة ، يعمل مجذافه فتى مصرى قسور على كتفه فروة أسد كان اصطاده ، يريد اللحاق بمركبة كليوبترة ، وكان بها متيما • ثم احتال حتى صار الى داخل واستمتع • ثم لما طلع الفجر أعطته احدى الجوارى قدحا فيه سم مثمل ، فسقط صريع الفاتنة بغى الدهر الطويل •

وكان يجاء بالقارب من فرقة المهندسين بأم درمان كل عام ويرد اليه • فلم نضع فرصة أن نتولى رده لنجذف به من أمام الكلية الى تحت كبرى ام درمان ثم الى شاطىء ثكنات الجيش التى جنوبيه ــ والتيار تحت كبرى أم درمان فى أخريات موسم التحاريق شديد جارف خطر ، وذلك أنهم يفتحون خزان جبل أولياء ويندفع الماء من جانبى جزيرة المقرن التى تحت الكبرى بمد عظيم • فاحتجنا الى أن نجر القارب عكس التيار مسافة طويلة • كذلك يفعل أهلنا بمراكبهم ذوات مجاذيف السنط الثقال ، ويسيل

الماء من بين شقوق الالواح ، فينحنى النوتى على ذلك بخرقة بالية ومقلام • وتعبنا • وعدنا ماشين واشتد حر آخر الضحا واقترب وقت الزوال • واسترحنا قليلا عند لبخات المقرن الكبيرات •

حاول أحد الحذاق تحسين منظر شارع المقرن الجميل الظليل ، فقطعت تلك اللبخات الكبيرات ، واستبدل مكانها « ببواكى » أزهار مستطيلات ومربعات ومثلثات وضروب زخارف ، لتكون مثل الشجيرات الحسان التى بين مجارى الدرب الفخم الواسع ذى الاتجاهين ، المؤدى من مطار القاهرة الدولى الى أوائل مدينتها مجتازا بأطراف مصر الجديدة ـ نسى الحاذق المعجب بعاصمة العروبة ، المعادى للاستعمار لأن اللبخ غرس بأمر كتشنر ومعاونيه « الخواجات » ، أن مدينة القاهرة فى المنطقة المعتدلة ، غير جد بعيدة من البحر الابيض المتوسط الذى يقال ان جوه أجمل الاجواء ، وأن الخرطوم على خط ١٥ عرضا شمال خط الاستواء فى سهل أفيح غير ذى ارتفاع عال جدا عن سطح البحر ، انما هو ، لو لا نهر النيل امتداد لاخريات زحف الصحراء ، وأنها بعد فى بحبوحة المنطقة الحارة ذات الرمضاء والهجير • وصوحت الازهار فى « البواكى » المزخرفات ، وخلفتها أعشاب ذوات حسك ومثلثات من الموز الكاذب شىء له أعشاب سيفية عراض مثل الموز ، تحمر وتصفر ، وقيل سريع امتصاص الماء وتبخره ولذلك كان يستعمل للتخلص من مياه المطابخ والحمام قبل استحداث دورات المياه ، فيكون فيه منظر ووقاية صحة • وليس له بعد ارتفاع الموز ولا زهاؤه ولا ثمره • فهو كما قال الآخر :

أبو فضالة لا رسمٌ ولا طلل   مثل النعامةِ لا طيرٌ ولا جمل

وكان ينبغى ن يسمى موز الحمير • وقد سمى بعض الجهلاء زهر شقائق النعمان ورد الحمير ظلما ، وهو ليس دون الورد حسن منظر وتنوع ألوان واتاحة زينة ـ شد ما غاظنى عندما قال لنا المدرس وهو يطوف بنا هذا اسمه Oleanedr وهو لفظ رنته جميلة ، فقال له أحد أولاد فصلنا لما كنا فى السنة الاولى وضحك (والضحك بلا عجب قلة أدب) يعنى ورد الحمير ، الحمار •

هذا وذهبت لبخات المقرن الكبيرات وظلهن الوارف الظليل الذى حين تخرج من وقدة أم درمان ينسجم اليك مع نسمات النيل • والاشجار يا صاح تموت كما يموت الناس ، وتمتد اليها أظفار المنايا خبط عشواء فى كثير من الاحيان •

وأحسب أن عدى بن زيد توهم فى الاشجار روح خلود وطول بقاء فى أبياته المشهورة :

من رآنا فليحدث نفسه ... أنه موف على قرن زوال

ربّ ركْبٍ قد أناخُوا حولنا ... يَمزجون الخَمر بالماء الزلال

والأباريقُ عليها فُدُمُ ... وجياد الخَيلِ تَردِى فى الجلال (١)

ثم أَمسوا عَصَف الدهر بهم ... وكذاك الدهر حالا بعد حالْ

وقد كان فى العرب فى الجاهلية قوم كثير يعبدون الاشجار ، فعل روحا من ذلك خلصت الى أعماق تأملات عديٍّ ذات النفس الدينى العميق ، والله تعالى أعلم •

وكان معنا شلن لا أكثر • وسرنا لما اقتربنا من محطة الوابورات منظر السدرة الوارفة ، وتحتها بائعة فول ــ لا زلنا فى اطار وقت الفطور • وكان المكان آنئذ ريفا بحتا ــ وهو الان ميادين المتحف القومى وعمارات أخر حديثات • فأصبنا من فولها فما شككنا أنه أجود من فول مستورة ، اذ قد طبخه لنا الجوع ، وشربنا شايا وحمدنا الله ، وعرفنا أن الوقت لا زال فى حيز الساعة العاشرة ، فاستأنفنا المشى ــ بعد يسير ، بعد أن نجاوز مسافة ما أمام مبنى الجمارك نصل الى بداية الجناين وعند جنينة النزهة يشملنا الظل الوارف مرة أخرى ــ ثم نسير على شارع البحر ، ونقف نرتاح قليلا عند الساقية التى أمام بيت السيد على المرغنى ، ثم نستمر الى القصر ، فنسير أمامه وننظر اليه •

---

(١) الفدم بضمتين جمع فدام بكسر الفاء وهو غطاء من كتان او نحوه تصفى به الخمر • والجلال بكسر الجيم جمع جل بفتحها وضمها وهو كساء يكون للفرس •

أزرناه مرة أوائل السنة الثانية أو أواخر الاولى ونظرنا الى الاسلحة البيض ذوات النصول العراض • وهنا قتل غوردون ، جاء ينزل متغطرسا من السلم بطربوش وقال « انت يازول ينتظر هناك » وقال له الدرويش « الله أكبر » وأجره الرمح السنين • وزعموا أن المهدى كان يريد استبقاءه ليفادى به عرابى باشا ، وعندى أن ذلك بعيد ، اذ لا يترتب على محاربة عرابى للانجليز أنه كان سيبايع المهدى ويتبعه • ثم ان الذين بايعوا المهدى بالخرطوم عاهدوه على قص رقبات أنفسهم ، فكيف تسلم رقبة غردون الكافر •

وصعدوا بنا الى الطابق الاول وأرونا الغرف والقاعات وجناح الحاكم العام الذى كان يسكنه ، قالوا كان فى عطلة واستأذنوه فى زيارتنا • ورأينا قاعة الرقص ذات بلاط الخشب الصقيل فوقفنا ننظر ونتعجب • كنا نرى الرقص فى السينما ويقال أنه فى آداب الافرنج شىء محترم • وعندنا انما ترقص النساء • وتقفاز الشبان الذى يصنعونه فى حفلات دفوف الاعراس نسميه العرضة والصقرية ولا نسميه الرقص •ونعتقد أنه لا يرقص الا المخنثون من الرجال • وعندما قال لنا أحد الخواجات انه ذهب الى ساحة المولد ورأى الناس يرقصون dancing غضبنا وقلنا بعضنا لبعض : « شوف الخواجه المزدرى » •
هذا ، وكان فى ما داروا بنا عليه مكان المرتفق • ما أنظفه كما لو قد كان دهليز استقبال • وأرونا كيف يندفع الماء من دورة المياه • وظننا بالمسكنتنا ان هذه طريقة استنجاء بارعة وأن الماء المندفع يصل الى قريب من الجسم فيمكن من ازالة النجاسة • لم يخطر ببالنا أن هذا مجرد تنظيف لوعاء المرحاض ليذهب بالنجو بعيدا ، أما تنظيف الجسم نفسه والاستنجاء عندهم فبالورق وهو يزيل أثر النجاسة لا عيبها ، وقد يعيه أثرها ، وقد يتأذى به الجلد •• طريقتنا فى الطهارة أجود • شد ما غاظنى أحد أشخاص قصة يقال لها بوانى جنكشن ، نبز المسلمين والهندوس معا بأنهم يأكلون بالايدى التى يمشون بها أعجازهم • وقد نسى الجاهل أن الماء يزيل كل عيب • وأن

اليد قد خلقت للعلاج • والمسلم يجلس نظيف الثوب نظيف الجلد • وغيره ربما جلسوا بمظهر نظيف ومن تحته عنك القذر والعياذ بالله •

هذا وبعد العصر مشية بائخة لو مشيناها ـ كانت المسافة بين حيث كنا وبين الكلية نحوا من ميلين • وهذا الوقت من النهار أحر من الذى تقدم • واذا بسيارة صغيرة تقف • ويدعونا الاستاذ لان نركب • وفرحنا لهذا الخلاص من المشوار الطويل الذى كان أمامنا •• لم يكن بالكلية من كان له سيارة من الاساتذة أيام دراستنا الا عدد قليل ، من السودانيين منهم ثلاثة أو أربعة أو نحو ذلك • وقيل ان الاستاذ عبد الفتاح المغربى كان أول سودانى اقتنى سيارة خاصة ، فالله أعلم ما صحة ذلك •

فى سيارة أستاذنا اسمعيل الازهرى ركبنا ذلك اليوم • كان يدرسنا منهج الرياضيات الاضافية فى سنتنا النهائية لاعدادنا لامتحان شهادة كمبردج • كان رحمه الله محبوبا عند الطلبة ، وكان آنئذ رئيس مؤتمر الخريجين فى سنواته الأوليات • وكان معروفا عند الطلبة ، وعرفه الوطن كذلك من بعده ، بالأناة والصبر والاصرار مع روح من أريحية النفس والفكاهة • رئى مرة يركب دراجة فتعجب التلاميذ وقالوا : « وانت تعرف تركب العجلة يا أستاذ ؟ » وضحك وقهقه ورفع رجليه ووضعهما على الميزان ورفع يديه وقال : « وكمان أعمل حركات » •

وكان رحمه الله أكثر ما يلبس بذلة بيضاء وقميصا أبيض • رأيته بهذا الزى اذ هو مدرس ، ثم من بعد اذ هو رئيس البلاد والزعيم • كأنى بصورته الآن ماثلة أمامى وهو يخطب بالقاهرة بنادى القوات المسلحة مساء يوم ١٩ من شهر مايو سنة ١٩٥٥م •

كانت الاتفاقية التى أبرمت سنة ١٩٥٢ بين دولتى الحكم الثنائى وألغت اتفاقية سنة ١٨٩٨م تنص على ضرورة تهيئة الجو الحر المحايد فى فترة الحكم الذاتى ، ثم يتبع ذلك استفتاء عام يستقل بعده السودان أو ينضاف الى مصر باسم وحدة وادى النيل • وكان السيد اسمعيل الازهرى قد حضر مؤتمر باندونج وحضره أيضا السيد جمال عبد الناصر •

وأقيم حفل لاستقبال جمال عبد الناصر بنادى القوات المسلحة بالقاهرة، وكان يتوقع فيه أن يلقى بعد تناول الافطار (كانت الدنيا رمضان) خطابا ذا أهمية بالغة • ولم يذكر أن الازهرى سيلقى أيضا خطابا • غير أنه كأنه قد توقع من قبل أن يلتمس ذلك منه فى أية لحظة بعد خطاب عبد الناصر فأعد له •

كنت بالقاهرة فى بعض العمل •

وصلتنى من طريق وكالة حكومة السودان آنئذ احدى بطاقات الدعوة لذلك الحفل التأريخى العظيم •

وجدتنى فى مكان جد قريب من المسطبة التى كان فوقها عبد الناصر ورجال الثورة والازهرى وصحبه • وتقدم بعد الافطار جمال بقامته الفارعة وتحدث طويلا عن تخطيطه لمجلس الامة ومستقبل الاوضاع السياسية بمصر • ثم بعد خطابه تقدم صلاح سالم فذكر أنه سيدعو الازهرى ليتحدث عن مستقبل السودان ، فأوشك رحمه الله أن يتبرع فيخطط له مذهب ما سيقوله • وانتابنا ، جماعة السودانيين الذين كنا بالحفل آنئذ ، قلق قلوب شديد • ثم أحسسنا نوع اطمئنان ما لما رأينا الازهرى يتقدم ببذلته البيضاء ويستخرج من جيبه ورقة ونظارة ويتلو فى أناة • واشتد انتظار ما سيقوله اذ قد تكلم يتلو ويبدىء ويعيد ولم يتضح بعد من شىء • ثم اذا هو يتحدث عما صنعته حكومته من اجراءات السودنة وتهيئة الجو المحايد • واذا به يقول ان السودنة قد رسمت للسودانيين وبينت لهم طريقا ليست عنه رجعة ولا محيد • واذا بتصفيق من جماعتنا وانشراح • لم يذكر الازهرى وحدة وادى النيل • لقد كان حديثه عن السودان فقط ••• وبعد أشهر وقع التمرد فى جنوب السودان بتوريت والاستوائية • ثم ما انصرم العام حتى وقع الاجماع على الاستقلال من داخل « البرلمان » ••• وفى أول يناير سنة ١٩٥٦م أنزل علما الحكم الثنائى وارتفع علم الوطن الجديد • ذلك ما جرى به الفتيان (أى الليل والنهار أى الدهر) اللذان ذكرهما حافظ ابراهيم حيث قال ، وكان قد شهد

عهد اوائل فتح السـودان أى استعمار السودان على يدى اللورد كتشـنر ورفـع علـمى الحـكم الثنـائى :

رويدك حتى يرفع العلمان   وننظر ما يجرى به الفتيان

كان الازهرى رحمه الله (رحمهم الله جميعا) رئيسـا للوزارة لما صنع لحن النشـيد القومى • وكلفنى أن أشارك فى اختياره وكان قد عهد بذلـك الى رجـال الجيش • وكان المرحوم السـيد أحمد مرجان رئيس الفرقـة الموسـيقية ، وكان يدرب جمعية الموسـيقا لما كنا بكلية غوردن وكنت قـد انتميت اليها حينا يسيرا • وعرض على نشيدان لا يخلوان من طول أحدهما لاسـتاذنا أحمد محمد صالح رحمه الله ، والاخر لاديب كان آنئذ بسـنار نسـيت اسمه • واخترت منهما معا كلمات لم أضـف اليها من صـياغتى شـيئا يعبأ به وتصـدى أحد عسـاكر فرقة المرحـوم أحمد مرجان فلحن تلك الكلمات • ورضى هو عن لحنه • ولما سـمعه اللواء أحمد عبـد الوهاب واللواء التيجانى رضياه • وكان رضا أحمد مرجان رحمه الله عنه من شواهد صلاحيته بلاريب • واذا هو نشـيدنا المعـروف :

نحن جنـد اللـه جنـد الـوطن

ليسـت كل كلماته لشـاعر سنار المجهول أو لاستاذنا أحمد محمـد صالح رحمه الله •• ولكنها لهما معـا ، ولم يكن نصـيبى من ذلك الا الاختصـار والحـذف والاكتفاء بما قد وقع عليه من بعد التلحين •

ورضى الازهرى رحمه الله عن النشـيد وأقره كما لا يخفى • وكـان قبل أن تشـغله رئاسة المؤتمـر يتولى الاشراف على جمعيـة الموسـيقا التى قدمت ذكـرها •

والحـديث بعـد ذو شـجون •

لم تكن الكليـة على أيامنا قد جىء اليها بالزوارق الشراعيات • تلك المرحلة لم يكن وصلها بعد تثقيف أبنـاء الاهالى • فقط مرحلـة حـوض العـوم ومبارياته ولعبة الكـرة المائية W ater polo • وانما ادخـلت الزوارق الشراعية فى أول الخمسـين فى وادى سيدنا وحنتوب ، ولو كانت أدخلت فى

زماننا لكنت وأصحابا لى ممن افتتنوا بها أشد افتتان ، ولا أعرف رياضة منها أرشق ، مع ما يرافقها من احساس شعور بالخطر وامكان التغلب عليه .

أذكر اذ كنت مدرسا ببخت الرضا أوائل الخمسين أننى أخذت قاربا ومعى زميل وكنت استعرت بندقية رش وقلت اصطاد بها بعض الاوز والبط الذى كان ذلك الوقت كثيرا كثرة زرازير الخريف ، وأخذت معى هلب الحديد الذى يربط اليه الزورق ، وقلت أضعه فى مكان مناسب واصطاد . ومضيت بالشراع مسرعا بعد أن عينت مكانا ألقى عنده الهلب وأقف (١) الزورق ، وانطلق الزورق فى خليج النيل الابيض العريض العميق ، وكان النسيم شماليا طيبا مملوء الشراعين الكبير والصغير — وحين دنوت من المكان الذى اخترته ناولت صاحبى الدفة ليضع يده عليها ريثما أقذف الهلب الحديد ، ورميته ببراعة كما يفعل الملاح القدير وعدت الى دفتى أديرها ليواجه الشراع الهواء ويقف ، ولكن الزورق مضى كالسهم — — الله — ! — لقد نسيت أن أربط حبل الهلب الى شىء من خشب الزورق. وطارت فكرة الصيد وطار الاوز والبط . واستدرت بالزورق فى عجلة مجازفة . وتناثر الماء على البندقية والرش . وحاولت أن أهتدى الى مكان الهلب . وغصت مرات فلم أجد شيئا . وبرمت بالأمر برما . وأعدت القارب وربطته الى شىء — وتد أو أغصان شجرة أو كوم أحجار وراءهن ماسورة — احتلت كما يفعل أصحاب المراكب من الحواتة المساكين الذين ليس عندهم هلب حديد . وعدت من عصر اليوم التالى بتصميم . واهتديت الى مكان الهلب وسط رقعة الماء الواسعة بتذكر جزيرة أعشاب صغيرة كنت جعلتها من قبل هدفا . وغصت حتى وصلت الى القاع ذى الطين وسبحت لاصقا به ولمست الهلب وأمسكت به وعلوت منتصرا — مثل غواص المسيب بن علس صاحب اللؤلؤة النادرة الذى قال فيه :

---

(١) وقف لازم ومتعد ، وقف ووقفته فهو موقوف .

فانصبَّ أسْقفُ رأسه لِبِدُ ... كُسِرَت رباعيتاه للصَّبر (١)
صُلْبُ الفؤادِ رئيسُ أربعةٍ ... مُتَخالفى الألوان والنَّجْرِ
نَصفَ النهارُ الماءُ غامِرُه ... ورفيقه بالغيب لا يدرى
فأصاب مُنيتهُ فجاءَ بها ... صدفيّة كمضيئة الجمر

وكأنما قد علوت بلؤلؤة مثل لؤلؤته ، وما كان ما علوت به حينئذ الا هلب حديد قديم أخذ منه الصدأ كل مأخذ ـ لازلت يا فتى فيك بقية من روح قوة شباب أيام كلية غوردن .. هيهات هيهات ، ذلك زمان مضى ولن يعود

مُشِبُّ الذى يَبْكى الشبابَ مُشِيبه ... فكيف توقِّيه وبانيه هادمه
وتكملةُ العيش الصِبا وعقيبُه ... وغائب لون العارضَين وقادِمه
وما خَضَبَ الناسُ البياضَ لأنه ... قبيحٌ ولكن أحسن الشَعْرِ فاحمه

كانت السباحة أحب الرياضة الى والى أصحاب معى كان من بينهم سباحون ماهرون . كنا نختلف الى الحوض نسبح الاطوال العشرين والثلاثين . ونعبر المرة والمرتين والثلاث من أمام شاطىء الكلية الى الخرطوم بحرى . وربما جسرنا أوان الفيضان فعمنا تحت العلب (١) نفسها وحاولنا مقاومة التيار كانت داخلية ونجت تفوز كل عام بدرقة السباحة . وكانوا حين يأخذها رئيسهم لا يجدون من سائر الطلبة كبير تصفيق . وكأن تبريزهم فى السباحة وانقطاع المنافسة قد أحدث ازاء فوزهم المستمر فيها نوعا من برود اعجاب ، وزراية حسد . كان أكثر أبنائها يستطيعون العبور ، وكان كل من يعبر النيل له درجة ، فكان يقع فى النيل ليعبره يوم السباق من أبنائها عدد كبير كأنهم جيش عرمرم حشد الى يوم قتال ، فكان هذا مما يغيظ الآخرين . وكانت مجموعة درجات هؤلاء وحدها تعادل أكبر ما تحوزه أية داخلية أخرى فى مجموع المسابقات أو يزيد . وأضف

---

(١) الاسقف الذى فيه بعض انحناء . النَجْر بفتح فسكون اى الاصل . يقول انصب ملاح فيه طول وانحناءة عنق ورباعيتاه كانتا قد كسرتا لتعليم الصبر والشجاعة كما يفعل الان بعض قبائل افريقية وكان رئيس ملاحين أربعة غاص ومكث طويلا فى الماء وانتصف النهار وهو فى الماء . ثم حين خافوا أن يكون قد هلك اذا به يجد اللؤلؤة النادرة ويصعد بها .

(١) الاعمدة التى عليها القنطرة وكانت من الحديد الصلب مصبوبا فيه الاسمنت .

الى ذلك درجـــات أكثر أوائل المسابقات ، لابل كلها الا سباحة الظهـــر • كان صالح محمود ، أحسـبه كان فى قســم المهندسين فى الدفعات التى قبلنا ، « ألمبى » السرعـــة فى المسافات القصار • كان أبناء حلفا خاصـــة أعـــوم طلبة داخلية ونجت وأسرعهم فى المسافات الطـوال والقصار • قبل انشـــاء حوض السباحة كانت توضـــع عوامات طافيـــة لتبيين مسافات السـباق فى النيل الأزرق شرقى القنطرة التى عليه ، فكان صالح محمـــود ينطلق كأنـــه اعصار من هذه الاعاصير التى تعبر اليم زمـــان الصيف •• لاشىء أســـرع منه • وكان طاهر عبد الرحمن وصالح عتيق وأحمد محمد نـــور ــ ثلاثتهم من دفعتنا ــ من السريعين جدا ، وطاهر يجىء أول عبور النيل فى الاكثـــر الغالب ، وكان مبدأ العبور من عند شـــاطىء الخرطوم بحـــرى ، وطاهـــر يبتدىء من الركن الشرقى عند بداية السباق ، ويتجه فى انحـــراف ينتهى به عند الركن الغربى المقابل له من شاطىء الخرطوم ، ويندفع بسرعـــة شديدة واحدة كأنه سمكة • غير أبناء ونجت كان عبد الله محمد سليمان وحده من الدفعـــة التى بعدنا من أبناء بورســـودان فى داخلية ستاك ، يزاحم الاوائل فى جميع المسابقات وينفرد بأولية سباق الظهر ، وكان أسلوب سباحته هـــو والمستر هانكس ، مجمعا على ذلك ، أجود ما شاهدناه من أساليب السباحة • كلاهـــما يطفو على وجـــه الماء ممتد القامة عليه بارز أكثر الظهـــر ــ هذا ينســـاب انسياب الزورق ذى الشراع فى يسر عجيب مذهل ، وهذا ينـــزرق « كالّلنشِ » من جانبيه بياض انشقاق الماء ــ لا أدرى أيهما كان حقا أسرع ــ ولعل طريقة عبد الله كانت أجملهما محض جمـــال • وقد كان لى صـــديقا وتزاملنا فى التدريس • واجتهدت أن أحاكى طرفا من أســـلوب سباحته فلم أقدر من ذلك على شىء • والاسلوب الجيد فى العوم يعين على النفس الطويل •

هذا وكانت داخليتنا تفـــوز أيضا بمباراة الســـلة ولا يخطىء محمـــود طـــه العميرى ، وقد صـــار رئيســـا لها ونحن فى السنـــة الثانية ، ســـلة المرمى • فكنا اذا بارينا داخلية آرشـــر تعمـــدوه بالحصـــار فلا يجديهـــم ذلك الا قليلا • وكذلك كنا نفوز بجـــر الحبل ، فكان يقال ان أولاد «ونجت» نفعهم أكل التمـــر والقمح وأن منهم مســـنين ضخام الاجســـام • ثم كانت

اندفاعة المستربراون يشجع تلاميذه بروح قتال مستبسل ، فصارت بعد ذلك « آرشر » تفوز بجر الحبل . هذا وكانت داخليتنا كثيرا ما تفوز بمباراة كرة الصغار . ولاسيما حينما كنا نحن فى الاولى والثانية ، اذ كان فينا محمد أبو بكر وجميزة ــ وكان جميزة « فرودا » لا يستطاع ، وكان محمد ظهيرا قويا ، وكانت داخليتا كتشنر واستاك وأحيانا تنازعانهما داخلية «كرى» أقوى الداخليات جميعا فى ضروب المباريات عدا ما ذكرنا ، وكانت كتشنر أقوى ثلاثتهن وتفوز فى الاكثر الاغلب بكأس الالعاب الكبرى ودرقتها ــ هل كانت لها درقة ؟ ــ وكان بين الطلبة مبرزون معروفو مكان التبريز . كان عبد الحى محمود يقذف القرص مثل الصورة التى وصلتنا من عهد تماثيل يونان ، وكان بين الموضع الذى يبلغه ومواضع سائر المتبارين بون بعيد . وكان يوسف آدم الصومالى يرمى الحربة رميا بعيد المدى ، يقذف الحربة فتجتاز طول الميدان ثم تنغرس بنصلها عمودية من فوق الارض ، لو صادفت حية أو حيا لنفذته بلا أدنى ريب . هذا هو قذف الحربة المذكور فى السير الاصيل .

جيء قبل استحكام بداية المباريات بجماعة من الجنوبيين بحرابهم ليمرنوا الطلبة على قذفها لمن يرغب منهم فى مباراة قذف الحربة Throwing the javeline وما أن رمى يوسف آدم حربته حتى علموا أن لا مكان لهم معه ، اذ قد كانت حرابهم النموذجية التى قذفوا بها مسافة طويلة وراء حربته هو فجمعوا حرابهم وانصرفوا ، ورب غيرهم ممن بلونا من بعد ومن قبل فى شتى ضروب تجارب الحياة لو قد وجد نفسه فى موقف كموقفهم لعاند واستكبر ولاصاب من يبرز عليه منه شر عظيم . ولقد تصرفوا بنزاهة وصدق تسليم والعاقل من عرف قدر نفسه:

ومن البليّةِ عَذْل من لا يرعوِى عن جهلِه وخطاب من لا يَفّهَم

وما أكثر هؤلاء ، وتلك الامثال تضرب لمن يتفكر ويتدبر ، وهؤلاء يا للاسف قليل .

هذا ، وبعد موسم الالعاب كان يقام حفل يوم الخريجين (١) • وكانت كل تلامذة الكلية ومدرسيها يحضرونه ، وتوجه دعوات من ادارة الكلية يخص بها بعض كبار الحكام من رجال السلك السياسى « الانقليز » (٢) وبعض وجهاء الوطنيين وغيرهم وبعض كبار الخريجين ثم تكون الدعوة عامة لسائر الخريجين • وكان من يكون بالعاصمة من خريجى العام الذى تولى دائما من أحرص الناس على الحضور • وكان يعد للحفل شاى العصر (والكيك) والتوابع التى تكون معه ، ويقف الفراشون والخدم المنوط بهم ذلك بملابس مصقولة وشعور أهمية ، ويكون عمى زائد كبير فراشى الكلية قد قضى أكثر اليوم يعد الطربيزات وكراسيها لحين الوقت المشهود •

وكان يسبق الشاى « مَطْش » كبير • كنا نقول « مطش » لما كنا فى الكتاب • ثم تعلمنا اللغة الانجليزية فصرنا نقول « ماتش match ثم غلب الله التعريب فصار الناس يقولون مباراة ويتبارى ، فبأى آلاء ربك تتمارى » •

وكانت المطشات ، أو قل مباريات كرة القدم الكبريات تقام فى الميدان الأول ، أو كما كان يقال له بالانجليزية رقم واحد ground number 1 وهو الذى يقال له الان الشرقى • كان يحف به اللبخ الكبار من جميع الجوانب ، وقد قطع اللبخ الغربى لتقوم مكانه مبانى توسيع كلية العلوم من جامعة الخرطوم • أذكر من تلك المطشات ، وعسى كنا فى السنة الثانية أو بعد ذلك أو قبله ــ ند عنى التأريخ ــ مباراة الدفاع والرى • هل كانت سنة ١٩٣٧ أو ١٩٣٨م ؟ كانت مباراة العام • غنت بها جوارى العاصمة فقلن : « والدفاع ال غلب الرى » يمددن الالف من « الدفاع » طويلة رقيقة يشربنها كسرا ثم يملأنها ضمة وواوا مشبعا ويمددن فتحة الغين من « غلب » واللام كذلك :

---

(١) انظر كتابنا التماسة عزاء بين الشعراء ١٠٤ / ١٠٥

(٢) قافها قريبة من الكاف كما ننطقها •

والدف ٠٠٠٠ وع ال غا ل و ب الرى

فلا أذكر أكانت هذه القطعة أضـيفت الى أغنيـة «التمتم» الكبيرة :

حَلّق بِى

حلق بى ٠٠٠٠ اللورى ٠٠٠٠ حلق بى ٠٠٠٠٠

حلق بى ٠٠٠٠ والدفـاع الغلب الـرى

الليلـة حلق بـى ٠٠٠

أم كانت جـزءا منها فى الاصل ٠ وكان اللورى «موضة» فى تلك الايام اذ لم يكن الناس قدعـرفوا سـفر الطائرات ، وكان من حج يكتب وصيته ، وحين يركب قطار بورسـودان متجها الى سواكن فالبحر المالح فميقات الاحـرام الى بيت الله الحرام ، تختلط زغاريد الوداع وبهجـة دعواته بدموع الخوف من ألا يعـود ٠٠٠٠٠

ـ أنا عايز أحجز بالفايكاونت ، ما عاوز الداكوته ٠٠٠٠

وهكذا يدب الفساد ٠٠٠٠

دخل فريق الرى الميـدان يتقدمهم قلب هجومهم ومسـاعدوه ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ كان فى تيم الرى لاعبـون من أتيام العاصـمة الكبيرة معروفو المكان ٠٠٠ هذا شرفى ٠٠ هذا لعله كشيبب ٠٠٠ وهلم جرا ٠٠٠٠ شرفى يدحرج الكـرة أمامه فى ثقة شاسعة ٠ كرة كأنما تلمع جديدة ٠٠٠٠ مما أعده عمك «جاليه» الدقيق الحاذق بكرات الكلية النظيف أناقة الهندام كأنما هو من فرقة موسيقا عسكر الجيش ٠٠ ودخل فريق قوة الدفاع ٠ وقالوا ذلك فيهم طلعت فريد ٠

وسرعـان ما برز تفـوق الرى ٠ اصابتان أو ثلاث فى النصـف الاول ، وكانت الريح ضدهم وشمس العصر منحدرة بشـعاع ضوئها ضدهم ، عما قليل تحجبها الاشجار ولا يستفيدون هم من مثل هـذه الحالـة ، عنـدما يصيرون الى المكان الاخـر من الميدان فى النصـف الثانى ــ ولا حاجة بهم الى ذلك ــ لن تكون الشـمس ضدهم وقد انتصروا مع معاكسـتها ، فكيف حين تزول ٠ حتى اقتراب نهايـة النصف الاول كانت المباراة وسطا ــ حركة بارعـة هنا وهناك ٠ ضربة بالرأس ٠ انقاذة من حارس المرمى لا بأس بها٠ وهذا من ناس الرى حدث منه خطأ ــ هاندز hands « لمسة يد » ٠

ـ كنا فى الكتاب نقول « هندز » على صيغة فعل الامر من هندز ـ وأضاعوا الفرصـة ناس الدفاع • فريق الرى قـوى • لا • فريق الدفاع ضـعيف • وهذا طلعت يشـير فى حركات تدل على انفعال وعـدم رضـا • وجـاءت خمس دقائق نصف الوقت • واستؤنفت المباراة ، وتبادل الفريقان الاماكن• والريح الان ليست مع الدفـاع ولا الشمس فى صالحهم • انتهوا ••• لو لا أنا ننتظر حفل الشـاى لانصرفنا • • • أقصى ما يطمعون فيه أن يحافظوا على مستوى الهـزيمة ••• غيروا مواضـعهم •• ليس الآن عنـدهم قلب للدفـاع ولا قلب للهجوم ••• وقالوا سيلعبون الآن بثلاثة ظهراء أحـدهم طلعت نفسه ••• وهذا شرفى يدحرج الكـرة ••• وهذا من ؟ كشـيب ؟ •• دنت من الساحة الخطـرة ••• أمرها الى الهجوم ••• واستعدل ليصـيب الهدف •• ولكن هذا طلعت يلتقطها برأسه من فويق الارض ••• عجيب •• وجـاوزت نصف الميدان الى قريب من حارس مرمى الرى ••• وجـاءوا مرة أخرى •• وأصابته شجـة من طرف حذاء أحدهم على جبهته ••• غير مقصـودة ••• عصب شيئا على رأسه ـ « هو هسع كبر ما شـفتوه لما كان بيلعب زمان » • هجم « فراود » الرى من يمين وشمال ••• يسيزيدون اصاباتهم ويعمقون انتصـارهم الذى لم يكن فيـه شـك الآن ••• وثبت « طلعت » يقذف بقـدم ، ويزاحم بكتف ، ويتلقى برأسه المعصـوب ••• واشـتد هجـوم الرى حتى كاد ظهراؤهم والجناحان وقلب الدفاع جميع أولئك يشاركون فيه •• وهم من مدافعى فريق الدفـاع أن ينضـموا الى ظهرائه ليصـدوا الهجوم ، فكأن « طلعت » زجرهم فرجعـوا الى أماكـن هجومهم الوهمى ينظرون ••• كان الهجوم مركزا على مرماهم هم •• وهذا « طلعت » يصـد كل هجـوم والظهيران اللذان معه كأنما قد صـارا جزءا منه ، هو عنترة وأبو دجانة معا وهما اسفنديار ورستم •

وجعلنا نشاهد منظرا من الأسـاطير ••• عمرو بن معد يكرب الزبيدى ، ربيعـة بن مكدم ، بسطام بن قيس ، ومعهم أيضـا روبين هـود ومعهـم صاحبه جون الصـغير ، وفرسان مائدة الملك آرثر المسـتديرة ، وأبو زيد

الهلالى ، والزير سـالم كل هؤلاء قد ملأوا منطقة القتال المحتدم الذى أمام حارس مرمى فريق الدفـاع •• وكلهم « طلعت فريد » الذى على رأسـه عصابة المـوت تتصرف عنها كل كرة فيقذف بها الظهيران بعيـدا بعيـدا ، كما تتصرف مسامير القوارب عند حجر المغناطيس الذى أمام جزيرة الهلاك ومضت دقائق عشر من النصـف الثانى أو نحوهن والاعين تنظر الى حيث حمـى الوطيس •

ثم اذا بأحد لاعبى هجـوم فريق الدفاع الذين لم يبارحوا المواضع التى كان زجرهم اليها طلعت يصـيب غـرة من فريق الرى فيصيب •••

تصفيق بدهشـة • لا زال الرى منتصرا باصابتين ، هيهـات المعادلة مع هذا الصراع • لن يمكن الزمن من ذلك • وجدد فريق الـرى الهجـوم على طلعت فريد •• هـو الان رمـز فريق الدفـاع ، كل فريق الدفـاع ، هـو اسبسلو بوقاس ، هو أطلس ، هو هير كيوليز •• كلما هجموا عليـه مـزج لهم مهارة التنس بحيويـة الملاكـم وثبـات الجندى الشـجاع •• لاعب آخر من فريق الدفاع يصيب غرة أخـرى • وارتفعت حماسة روح فـريق الدفـاع ••• وتعادل الفريقـان •• تصـفيق منهمر •

وداخل فريق الرى شـعور خفى من روح انكسـار •
وهـذه أول اصـابة انتصـار •

وحمى فريق الرى •• لن يغلبوا ، لن يغلبوا ، لا ينبغى أن يغلبـوا بعـد بدايتهم العظيمـة التى هم بها حق جديرين • واشتد الهجـوم على مرمى الدفـاع •• اصابة واحـدة فقط ، وسيتعادل الفريقـان •• واذا أعيـدت المباراة يوما آخر فلن يفرطوا ، لن يفرطوا •• اصابة واحدة فقط ••

وتجلى عنترة الفوارس فكأن شـخصه كان يملأ جميع أركان الميـدان • والدقائق تمر تباعا سراعا • خمس دقائق •• ثلاث •• اثنتان •• واحـدة هذا الحكم يرفـع صفارته والرى لم يعادل حتى الان •• لابـد من عمـل المستحيل •• مجهود باسـل أخير •• واذا باصابة أخرى من الدفاع تجتاز

مرمى فريق الرى ، وتبعتها صفارة نهاية المباراة ...
كانت مباراة مذهلة .. مطشا لا ينسى ..

مرة ونحن فى المدارس العليا ، وجهنا المستر هارت الى قراءة مقالة اسمها المعركة the Fight للكاتب البارع William Hazlitt يصف فيها مباراة ملاكمة .

ماكنت أرى الملاكمة الا توحش مدنية بغيضا . كنا ونحن فى السنة الاولى والثانية من الكلية جىء الينا بممرن وأعطانا القفازات وأحسسنا من أنفسنا شراسة مزاج وسنورية ولؤم هراش . ثم كأن قلوبنا أبت ذلك فلم يستمر عليه العمل وانتهت محاولة تعليم الملاكمة ، وقرأنا كتاب Rodney Stone السخيف ولم نتعلم من مدرسة حرفا ، وكان موضوعه الملاكمة ، وكان الملاكمون يعدون من الطبقات الدون ، وكأن هذه النظرة لاتزال موجودة ومن جرائها حيزت أكثر بطولات الملاكمة الان الى السود ألوان البشرة يربون لها تربية الثيران الغلاظ .. وانما هى ضرب من مصارعة العجول التى فى اسبانيا .. ولولا دعاوى انسانيات هذا العصر لجىء بثيران من البشر يصارعهم جزارون من البشر .. نحو من هذا كان يفعله سادة الروم القدماء لتسلية الناس . ومن يدرى لعل ربك خبأ لاهل سواد البشرة مستقبلا عظيما قبل أن تقوم الساعة . وقد يذكر فى تفسير آية الواقعة « ثلة من الاولين وثلة من الاخرين » أن المراد بهذه مؤمنو أهل السودان . وفى الحديث أن أهل الغرب لن يزالوا ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة واختلفوا فى من المراد بهؤلاء ، فهل يجوز أن يكونوا هم سودان أمريكا المسلمون ؟ الله تعالى أعلم .

هذا ،

وكان المستر هارت اذا نبهنا الى شىء من روائع الادب أقبلنا عليه لانشك أنه جيد . ولئن كانت الملاكمة فى ذاتها أمرا وحشيا فان هذا الذى وصفه

هازليت فى معركته قد كان منظرا من ضروبها النادرات ، ارتفعت به المهارة الساحرة الى سماء الفن ، أم ارتفع به بيان هازليت الساحر العجيب •

ولازلت أنفر من مباريات كرة القدم • وأعد لعبها ضلالا ولونا من التسليات الرومانية السنخ لغوغاء العصر الحديث • مع هذا أذكر أن تلك المباراة بين الدفاع والرى كانت من الاداء النادر الذى ارتفعت به بطولة طلعت فريد واتقانه معا الى قمة من علياء الفن •

حتى كرة القدم يمكن لها أن تكون فنا وتصعد الى تلك العلياء • وشوقى بعد لم يخطىء حينما ذم الاستعمار فقال :

أم من نداك على المدارس تذر العلوم وتأخذ الفتبولا

ــ والملكات البشرية بعد خفيات الاسرار • ومما أن ترقى مراقى لا تستطاع كانت الخطب بيدأها مدير الكلية ، يخطب بالعربية حرصا على أن يفهمه العدد الكبير من الحاضرين من الآباء والوجهاء أولاد البلد الذين لم يكونوا يعرفون « اللغة » • وكانت عربية المستر وليمز ضعيفة ، كان حقا لا يعرف العربية ، فكانوا يكتبون له خطبته بألفاظ مبسطة وحروف انجليزية ويتهجى النطق بها تهجيا فى كلفة ومشقة •

ــ يا هدرات السادة ــ اسالتن ان نافسى ونبيتن آن زم •• الا •• لائى •• ثم يكلف كبير المشرفين فيخطب بالانجليزية بزهو واطناب ومحاكاة لاداء متوهم من المستر لويد جورج فى خطبته المشهورة التى كانوا يدرسونها فى مختارات محفوظات اللغة الانجليزية A scrap of Paper

« قصاصة الورق »

ثم خطيب باللغة العربية ــ ربما أحد المشايخ ــ واحد الخريجين ثم رئيس الرؤساء يخطب باللغة الانجليزية •

قالوا كانت الخطب فى العام الذى سبقنا أجود وساهم فيها عدد من الخريجين ألهبوا القلوب بالحماسة الوطنية وأن يحيى الفضلى رحمه الله خطب وتمثل ببيت شوقى :

أحرام على بلابله الدوح حلال للطير من كل جنس

والطير من كل جنس هم الاجانب ، وأشباه الاجانب الذين يتملقون الاستعمار •• والطير من كل جنس هم الاستعمار •• أليس هو الذى جلب الينا ، ففشا شرهم فينا ، أصنافا من كل جنس ؟

ما خلا زماننا من الخطب الطنانات ـ لا بالعربية وحدها ولكن بالانجليزية أيضا • هذا أحد الخريجين الكبار فى احتفال الكلية بلجنة اللورد دى لوار Lord de La war • قالوا كانت لجنته ـ وهى من هذه اللجان التى كانت تنشئها الحكومة البريطانية لتنظر فى بعض شئون مستعمراتها وغير ذلك مما يهمها أمره من حين الى حين ـ كانت تزور شرق افريقية • ودعيت ـ دعاها الحاكم العام أو من ينوب عنه ـ (ولم يكن فى برنامجها ذلك) أن تعرج على السودان أيضا فتزوره • أليست معاهدة سنة ١٩٣٦ م قد اتفق فيها طرفا الحكم الثنائى على ضرورة العمل لاسعاد أهل السودان ورفاهيتهم ؟ (رفاهية ترجمة Welfare) • وكيف السبيل الى رفاهية أهل السودان بدون توسع فى التعليم ؟ الرفاهية لا تكون الا بالتقدم فى هذا القرن العشرين : التقدم الزراعى والصناعى ، التقدم الاقتصادى والتقدم الاجتماعى ، التعليم هو مفتاح التقدم المادى والادبى • نحن لانقتنع بنصف التعليم ، قليل المعرفة ضار • نحن نحتاج مع زيادة الكم الى تحسين الكيف ، لا نقول الكم أهم من الكيف ولا الكيف أهم من الكم ، فهذا يعود بنا الى قصة أيهما جاء أولا ، الدجاجة أم البيضة • ضحك مثقف •

الخطيب ضخم الجسم ، ضخم الصوت ، جهير النحنحة ، جهير السعال، جذاب الشخصية مبين •

وتساءلنا : من هذا المفوه النحرير ؟

وقالوا : محمد صالح أفندى الشنقيطى •أول مرة سمعنا بالشنقيطى ورأيناه والذى خبرنا به كأنما أفادنا بأمر لا ينبغى أن نجهله ووضع تحت ذلك

خطين • كانت الحركة الوطنية فى مستهل طورها الايجابى • وكان الناس قد بدأوا يهتمون اهتماما ذا طابع عملى بأمر التعليم • هذه ثغرة يمكنهم أن يهاجموا منها الاستعمار • من مأمنه يؤتى الحذر • أليس الاستعمار هو نفسه الذى أدخل فى هذه البلاد هذا النوع من التعليم الحديث •

أحسب أن انشاء ملجأ القرش كان أول هجوم من هذا الاسلوب • ثم المدرسة الاهلية • ثم جاء يوم التعليم وجمعت التبرعات • وقيل للمستعمر أن المدارس الوسطى الموجودة الآن لا تكفى ••• هذا من جهة الكم • • كان عددها آنئذ نحوا من أربع عشرة مدرسة وسطى •

وهذا الشنقيطى رحمه الله الرحمة الواسعة يقول الآن ان الكلية نفسها ، التجهيزى العظيم نفسه ـ لايكفى ••• هذا من جهة الكيف • نريد تعليما أكثر •• أعلى •• نريد كلية جامعية •• نريد جامعة •

تصفيق منهمر •

وكل بالاعجاب يكاد ينبهر •

ووقف اللورد دى لوار فأثنى على الخطيب ، وأثنى على السودان ، واثنى على الميدان رقم واحد ، وعلى الشاى والاهالى اللطيفين •

وارتفع اللورد دى لوار بخطبته الى أوج بليغ ، وعلا صوته بنبرات حسان ، وكان مؤثرا ••• ثم قال انه هو ولجنته مقتنعون أن الوقت قد حان لادخال التعليم الجامعى فى السودان على مراحل تدريجية متلاحقة • •• مستوى كلية غردون فى نظره هو ولجنته عال الى القدر المطلوب ، وسيمكن بلا عسر من بلوغ مرحلة التأهيل لدخول الجامعة ••• تحسينات يسيرة سيقترحونها فى تقريرهم •••

تصفيق حاد • • • حاد • • •

حقا ان اللورد دى لوار ولجنته رجال متحررون •

••• ثم ذكر اللورد دى لوار أن تفصيلات التطبيق العملى أمر سيبت فيه المسئولون عن التعليم فى حكومة السودان •

على كل حال انصرفنا معجبين باللورد دى لوار وبالشنقيطى رحمه اللــه يأبى المســتعمرون الا أن يكونوا مستعمرين مهما يتحرروا ٠٠٠
ونبراته الفخمـــة الجهـــيرة ٠٠٠

انصرفنا وفى قلوبنا شـــعور ببصيص أمل غامض ٠٠٠

هل ســنحظي بالتأهيل لدخول الجامعة ؟ ٠٠٠ هل ســنحضر زمان شهادة كمبردج ؟ ٠٠٠ كما شــاهدنا الفانوس السحرى الذى جاء به مستر سكوت ســنة ١٩٣٢ والفيلم المتحرك الذى جاء به المســتر غريفث معه ، والسينما فى الخرطوم والراديو ٠٠٠ وســمعنا خطبة الملك ادوارد الثامن حين استقال ولاحت على وجوه المشرفين الخواجات سحابات من الاحساس بحزن جلال المــوقف ٠

انصرفنا وقد اســتمتعنا بعض متاع الفكر ، وأحسسنا له بنشوة سرور ٠٠ كالســرور الذى نحسه اذ نرتاح الى القــاء الشــعر الجيد ٠٠٠

والى بعض ألوان الاداء المتقن فى التمثيليات ٠٠٠ مثلا أداء على عبد اللــه عقارب والطاهر شــبيكة ووديــع حبشى فى رواية يولــيوس قيصر ، وعلى الحويرث فى دور اياغو Iago من رواية عطيل Othello هذا المستوى الــذى شــهدناه اليــوم أعلى من ذلك بكثــير ٠

لقد كان يوما من أيام احتفالات العــام الدراسى عظيما حقا ٠٠٠
مــاذا قــال أبــو الطيب ؟

يقول بشــعب بوان حصانى أعن هذا يســار الى الطعان ؟
أعن هــذا يســار الى المذاكــرة ؟
فما المذاكــرة ؟

كان وقت المذاكرة الرســمى مساء فى ما بين السادسة والسابعة ومكانها مبنى الكليــة الرئيسى حيث الآن المكتبــة ، ويحضرها التلاميــذ بحســب داخلياتهم ، لكل داخلية حجرتان مخصصتان لها من الحجرات التى تكــون أثناء النهار فصــول الدراسة ، فيكون الصغار فى احداها والكبار فى الاخرى ولما صرنا الى فصــول الشــهادة فى السنة الرابعة ــ ولعلها فى الثالثة أيضا

عوملنا معاملة ذات نوع من امتياز اذ أذن لنا أن نذاكر فى حجرة فصلنا كلنا معا ولم نقيد بداخلياتنا ٠

كان أمر المذاكرة فى جملته نوعا من الترويض والضغط ، وجانب الجد التربوى فى مراجعة الدروس ومتابعتها فيه ضعيف جدا بل معدوم ، وذلك أن مدرسى المواد كانت جداولهم مزحومة بعمل التدريس الا بقدر محدود ولذلك كان أكثر ما يكلف بمراقبة المذاكرة ضباط الداخليات ممن لم يكن لهم جداول فى دروس الصباح ، اذ أنهم انما كان منوطا بهم تنظيم اعاشة الطلبة فى الداخلية وتدبير أصناف موظفى هذه وعمالها ، ثم حضور الجمباز فى الصباح ، وألعاب العصر لمن يكون مساعدا فى الاشراف ٠ وقد كانت مراقبة المذاكرة عليهم عبئا فيه استكراه وثقل ويبدو ذلك فى منظر وجوههم حين يمرون كأنما يساقون اليها سوقا ٠ وقصارى ما كان يهمهم من أمر مراقبتها أن يسألوا هل من غائب ولماذا وأن يبدو بعض المراعاة للنظام — كأن يسود الحجرة السكوت وألا يكون بعض التلاميذ يتحركون فيشوشون على زملائهم — وكانوا قلما يزيدون فى المرور على بضع دقائق ، ويتكفل الرؤساء بسائر أمر النظام ٠

كان يغمر حجرة المذاكرة ضوء النور الكهربائى الابيض المقانيته صفرة شيئا ما ، غشاوة ضباب من سأم ، ربما خالطته بعض حشرات مساء نيل الخرطوم الازرق ، الصغار ذوات اللوين الاصيهب الشفاف ، ونضح من العرق على كل عنق وجبين فى زمان ومد سبتمبر وأكتوبر الذى يعقب موسم المطر وتكون فيه نهاية ارتفاع فيضان النيل وبداية هبوطه وتبخره من طين شواطئه الجديد الاسود ، وفى زمان حر مايو ويونيو اللذين تمتد فيهما أنفاس جهنم الى كل مكان منذ بعيد الشروق الى زمان بعد الغروب ربما جاوز التاسعة الى العاشرة والى نصف الليل وأحيانا الى الصباح التالى ٠

كان المشرفون الخواجات يمرون أحيانا على وجوههم قطرات العرق وهم بملابس عشاء الاستعمار — البنطلون والقميص الابيضان مع الحزام الاسود والكرفتة السوداء — يخطو أحدهم بخطا وئيدة رتيبة أمام الصف

الاول ، ثم يعود أدراجه الى قريب من الباب ، ثم يقف ينظر بموضوعية ثم قد يتخلل بين صـــفين ، ثم يخرج بعد أن يكون أشـــاع فى جو المذاكرة الراكد جوا من رهبة الهيبة التى هى هو ••• وكان من أولاد البلد من المدرسين من يكون كلف ســاعة من المرور فيجيء ببذلة كاملة ويمشي كمشية الخواجات ، ويحيط به كجو هيبتهم ، تقليـــد لجو هيبتهم ثم ينصرف • ومنهم من كـــان يأنس اليه التلاميذ ، وتكون بلديته بارزة ، فيسألونه فيتقرب بابتســـام أو جـــواب ثـــم ينصرف •

وكان المشرفون من أولاد البلد القلة أول أمرهم قلمـــا يمـــرون • على أن مشرف داخليتنا الاستاذ محجوب الضـــوى رحمه الله ، كان قلما ينقطـــع فى الاسبوع عن المامة أو المامتين أو ثلاث • وكان التلاميذ يسألونه يقـــدرون اهتمامه هذا بهم ويســـألونه عن معانى الكلمات الانجليزية وكان معـــروفا بجودة ملكته فى اللغـــة الانجليزية واتســـاع ذخيرته من عـــويص كلماتها • وكانت آنئذ أمثال diagnosis (تشخيص المرض) imperturpable (رزين) excruciating (أليم) مما نعده جد عـــويص ، وربما وقع عفويا فى بعض ما يتحـــدث بـــه مشرفنا أحيانـــا كثيرة • رأى أحد التلاميذ كئيبا فسأله ماذا يشكو فقال له toothache (وجـــع الضـــرس) ويده على فمه ، فقـــال له ؟ excruciatin يعنى ألم الضرس أهو بالغ ••• وضحك تلاميـــذ المذاكـــرة من بينهم صـــاحب الضرس يضحك بجانب من فمـــه المتألـــم • كنا لجهلنا نظن هذا منه اغرابا ونكن له مع ذلك اعجابا • وكان سهل الجانب عطـــوف الفؤاد • ولم نخل من شـــعور اعتزاز وطنى نحو اشرافه علينا • رحمه الله الرحمة الوَاســـعة •

وكان يساعده فى الاشراف على داخليتنا الاستاذ أبو بكر عثمان ، وكان ذا عناية بتدريب التمارين البدنية وذا حزم وجد • وكان بعد أديبا شـــاعرا ومن أوائل رواد المسرح فى الكليـــة ، خبرنا عن اجادتـــه فى ذلك ولـــم نحظ

بمشاهدتها . غير أنا عرفنا له قصيدة رائية حسنة موضوعها الزهرة كيف تقطف ، ثم تشم ثم تذبل ويلقى بها الى التراب :

فمن صَدرٍ الى قَبرٍ ومن قصرٍ الى حفرَه

أحسب هكذا كان آخر بيت منها .

وكان القاؤه قويا صحيحا واضحا .

فاتنى نيل جائزة الشعر فى السنتين الاولى والثانية . ونلتها فى السنة الثالثة مع جائزة الانشاء الانجليزى — كتبت مقالا قصصيا بيدى اليسرى اذ اليمنى مكسورة ذكرت فيه أن السودان سيستقل فى الخمسين ، فكان ذلك حدسا صائبا ان شاء الله . واشتريت بالجائزتين كتبا عربية ليس بينها كتاب انجليزى واحد ، الاغانى طبعة الساسى بفهارسها والوساطة ويتيمة الدهر واحياء علوم الدين . وكان لى صديق ظريف يعجبه تقليب أوراق اليتيمة ثم ينتهى بعد كل تقليب الى قراءة شعر ابن حجاج وابن سكرة — ذلك يعجبه ولا سيما الرائية التى بيتا القصيد عنده منها :

يا فسوةً بعد العشا بالبيضِ واللبنِ الكثير
يا ضَرطةَ الشيخ الموقّر بين حسّاد حضور

ويكبر صوته ويترنم برنين .

هذا وما نلت جائزة الشعر ذلك العام الا لأن الرشيد نايل كان غائبا فقد كان لا يدعها لاحد ، أخذها فى كلتا سنتينا الاولى والثانية . نسيت موضوع السنة الثانية والسنة التى فزتها . أما موضوع السنة الاولى (١٩٣٦ م) فقد كان رثاء أحد الملكين جورج الخامس وفؤاد الاول — ماتا كلاهما ذلك العام ورثينا كلنا فؤادا رحمه الله . وحاكيت أنا بمرثيتى قافية أبى الطيب : أرق على أرقٍ ومثلى يأرق

وجعلت قافيتها دالية ، نحو : « وأسىً يزيد وعَبرَةٌ تتجدّد » . وقال أستاذنا الشيخ جلال لى ولابنه محمد المهدى وكان حينئذ فى السنة الثالثة، واشترك فى المباراة ، اننا لم نحسن أن نقول كما قال الرشيد فى مرثيته :

أوما أحسَّ الدافنوه قَدره أوما دَرَوْا أىّ المصاب به دُهُوا

وبراعـــة القافية « بهى دهـــوا » لا تخفى .
ولا أدرى هل بيتـــه :

من لى بشِرْذمةٍ متى ناديتها لتطيح أعناقَ الأعادى تسرع

من قصيدته التى فازت فى مباراة سنة ١٩٣٧م أم لا ؟
وأذكر له من أول قصيدة قالها يذكـــر رحلـــة الطلبة بكردفـــان ونحن جميعا فى الســـنة الرابعـــة :

مطيتنا تسِــير بلا عِنَان وتقتحمُ الفـــلاةَ بلا تـَــوانِ
أخفُ من الظنون على الفيافى وأنفَذُ فى حشاها من سنانِ

وأخـــرى يذكـــر فيها الهجـــرة :

قمر بصحبـــة كوكبِ قد أمعَنَا فى الســَّــبسب

ولما كنا فى السنة الرابعـــة كان موضوع المسابقة النيل ، فما كنت أشـــك فى الفـــوز الا أن يفـــوز الرشـــيد ، اذ كنا نحسب أنـــه لم يبق مـــن مفلقى الشعراء بالكلية غيرنا كلينا . واذا بنا معا يضغمنا مع الآخرين بابكر أحمـــد موسى ببائيـــة جيدة طويلة النفس قويـــة الاسلوب :

عِـــدْوة النيل أســـعدى بعض مابى

هكذا شطر بيت المطلع وهو مصرع ونسيت كلمـــة من الشطر الثـــانى ، ويبدأ بقوله « أفلا كل » والقافية لذهاب فلا أدرى أهو أفلا كل وافد لذهاب أو قـــادم لذهاب أو مهجـــة لذهاب . وكان بابكـــر فى السنة الاولى . وكنت لقيته قبل مقدمـــه الكليـــة مرة أو مرتين عند صـــديقى محمـــد الحســـن بامدرمان . وكان محمـــد الحسن ، جـــزاه الله خيرا ، يدعـــونى بين حـــين وحين الى دارهم بامدرمان . وكان ذلك يسرنى . وكنت عـــادة غير كبـــير العناية بمظهر ثيابى فكنت أربأ ألا يكون مظهـــرى غير جيد حـــين اجتـــاز البحر الى أمدرمان ، فأحرص على أن ألبس الجلابيـــة النظيفـــة والحـــذاء الجديد أشتريه ببعض منحـــة الاسبوع . وكانت أحذيـــة باتا آنئذ جـــد رخيصـــة . وكنت أنا جـــد فقـــير .

كان محمد الحسن يعجبه شعرى ويلذه سماعه وسماع كل شعـــر جيـــد

ولاسيما ما كان وزنه الكامل مثل معلقة لبيد ومعلقة عنترة • وكانت لى طريقتى الخاصة فى انشاد الشعر وترنمه ، لا أعدوها مع نفسى ومن الاخوان من أرتاح اليهم ويرتاحون اليها • وكنا أنا ومحمد الحسن نلتقى فى كثير من الآراء والمسائل الادبية الفكرية • وربما تجادلنا فى أمر معاوية وأمير المؤمنين على بن أبى طالب • وكانت قضايا الفتنة الكبرى من مسائل الجدل الشديد بين أدباء الطلبة على ذلك الزمان •

كذلك كان التعصب على طه وله وعلى العقاد وله وعلى الرافعى وله بين رجالات الأدب المعاصرين • كان حسن محمد بابكر يميل الى الرافعى ومنه استعرت أوراق الورد فقرأته وأعجبنى على إيثارى طه حسين • وهو أيضا عرفنى بكتاب العمدة فاستعرته منه وكلفت به من بعد أيما كلف • كان حسن من دفعتنا فى قسم القضاء الذى فيه الرشيد وكنا ثلاثتنا بحب الادب متصادقين • وقويت صلة المودة بينى وبين حسن جدا، ومما وثقها طول جوار بالدامر ، وكنت فى التجهيزى وزمن المدرسة العليا كليهما أزوره ويستضيفنى فى داره كثيرا ، ثم ألقى نخبة من شباب الوطن الواعد فنتحدث ما شاء الله فى الكتب والادب والسينما وسائر قضايا الفكر والوطنية والدنيا والدين • وأيام التجهيزى ، زمان عطلة الصيف بالدامر كنا نتبارى ونتعاون أنا وهو وزميل الصبا أحمد عبد الله المغربى فى قراءة روايات الجيب ، وكان يعجبه أرسين لوبين وكنت وأحمد ربما آثرنا شرلوك هولمز •

كان هذا من طعام العقول أحب الى من مذاكرة المساء ومن درس الصباح بلاريب •

هذا ،

كان اذا مر فى ساعة المذاكرة المسائية أحد الاساتذة المعروفين بجودة التدريس وسأله التلاميذ فربما داخل ركود حجرة المذاكرة روح حيوية وحركة • من أولئك مثلا الاستاذ عوض ساتى رحمه الله :

ـ الله يجازيك يا عبد الله ، آنقل توينتي ثرى angle 123? ؟ عجبا .

.... عجبا .. wonderful

ويشع من عينيه بريق الحيويـة والانسانية والذكـاء .

كان يدرسنا الرياضيات فى سنتنا الثالثة . توفى رحمـه الله سنة ١٩٧٢م فى عشر السـبعين . صار من بعد مديـرا للكلية لما انتقلت الى وادى سيدنا وصـارت مدرسـة ثانوية عليا . وتولى ادارة مكتب النشر وأنشأ المجلـة الخفيفة الروح اللطيفة الاسـلوب « الصـبيان » وكان يكتب فيها باسـم العم سرور وكان جيد الاسـلوب مبينا وفى مكتب النشر عمل معه جماعـة من الفضلاء منهم من برز بعد فى الصحافة والادب ومختلف الميادين . وكان رحمـه الله أول من سـودنت به وظيفة مدير المعـارف وكانت من قبـل لا يتولاها الا البريطانيـون . كـان ذلك عام ١٩٥٣م أو ١٩٥٤م ، اتخـذ القرار السيد عبد الرحمن على طه وكان وزير المعـارف فى أخريات الفتـرة التى سبقت الحكـم الذاتى . وأحمـد للاستاذ عوض ساتى رحمـه اللـه وهو مدير للمعارف أنه سحب استقالة كنت تقدمت بها الى المسـتر ولشر عميد الكليـة الجامعية بنفسـه وعلى مسئوليته بحجـة أننى كنت منتدبا من المعـارف وأنه لا يرى صوابا أن أترك الكلية ، فكان ذلك من صنيعـه كالتـزكية لى بـلا أدنى ريب .

وقد ظلت صلـة الود القلبى بينى وبينـه واشجـة الى أن توفـاه اللـه (رحمه الله .) وأذكـر أن تذاكرنا قبيل وفاته ببضعـة أسابيع فى مسألة من كتاب الملل والنحل كان قد عرضـها على الفاضل الطبيب الذكر العلامـة الحاج نوح محمد وكان رعـاه الله وحفظه وتولاه آنئذ سفير بلاده نيجريا فى السـودان . وكانت مذاكرتى الاستاذ عوض ساتى مما أعان على حلها . والمسألة فلسفية فى المقدمـة الخامسة من كتاب الشهر سـتانى المذكـور فحواها أن الواحد ليس حقا بعدد ولكنـه مقياس يقـاس به العـدد ، وأن حقيقـة العـدد زوج وفرد ، فأقل زوج ما كان من أثنين وأقل فرد ما كان

من ثلاثـــة . ورحم الله عوضا فكم قد حزنت لفقده القلوب :

أســيتُ على عوضٍ اذ مضى	أخـــا الفكـــر والنابـــه المطلـــع
وقد كان أوتى حســـن البيان	وذوقـــاً رفيعـــاً به قـــد طبـــع
ورقـــة حِسٍّ وشخصيـــة	تـــرى حيويتهـــا تندفـــــع
وكان يدرسٍ علم الحســـابِ	بمقـــدرةٍ تـــدهش المســـتمع
وكان يشـــارِكُ فى غيرِه	مشـــاركة العـــارف المتســـع
أســيت عليه وقد قلّ من	بمثل فضـــــائله يضطلـــع
وكان يُسَـــرّ اذا جئتـــه	وبالنصـــــح عنـــى لا يمتنـــع
وشجعنى حينمـــا غـــيره	لتثبيطهم عصـــــبٌ تجتمـــع

رحمـــه اللـــه ونضـــر ثـــراه .

كان من خيـــار المدرســـين المستر براون وقد تقـــدم ذكره . والمســـتر هانكس وكان صبورا ذا أنـــاة وتوضيح . وعمل بعد كلية غوردن ببخـــت الرضا . فبلغنى ان المنهج الذى صنعه وأعـــد مذكراته هو الذى اعتمد عليه خلفاؤه من بعـــد . والمستر جانسون سميث وكان يدرس الانجليزية وتأريخ أوربا الحديث ويهتم بالمسرح وله القاء مؤثر . وقـــد صـــار فى ما بعـــد الى جنوب السودان فى أواخر الاربعين وأوائل الخمســـين . والشيخ البنا وكان وحده من المشايخ يحضر مذاكـــرة المســـاء أحيـــانا ، وكانـــوا لا يكلفـــون ذلك أو ينتظـــر منهم على زماننـــا .

هذا والغالب على ساعـــة المذاكرة بعد أنها كانت كما ذكرنا قليلة الجدوى . ربما اتفقت فيها الفائدة من ســـؤال المدرس اتفاقا . وربما أصاب التلميـــذ الجاد فى فرصتها هدوءا ما يمكنه من حل مسئلة أو رســـم خريطة أو شكل هندسى أو قراءة صفحـــة أو صفحتين من كتاب مقـــرر .

كان تعـــويل التلامـــذة فى مذاكرة دروسهم حقا لا على ساعة المذاكـــرة الرسميـــة ، ولكن على شيء آخـــر اسمه الكب وهـــو الاكبـــاب على حفظ الدروس فى جـــوف الليل على ضـــوء الشمـــع .

كانت الانــوار تطفأ الساعة التاســعة مســاء • انذار خمس دقــائق ثم يسحب النــور كله ولا يعــود الى ما بعد الفجــر صباحا • فى المصــلى الصــغير بالقرب من قاعة الاكل (الصــفرة) كان النور يعاد مع الفجــر ، فمن ذهب اليه قــرأ من كتاب الله وانتظــر الصلاة ، صلاة الجماعة • ولم يكن عدد المصــلين كبيرا ، كان صغيرا جدا بالنسبة الى عــدد الطلاب الذين سيصيرون أفندية • • • الافندية الغالب عليهم لا يصلون • • • والتجهيزى كأنما كان فيه عنصر اعداد لترك الصــلاة ••• ألم يكن قد قال الناس عندما فتح النصارى (أى الانجليز) مدارسهم الجديدة أنها ستفســد الاولاد •• والبنــات أيضـــا •••

أجيال من تلاميذ المدارس جاءوا من بعد جعلوا من الصــلاة شــعارا سياسيا ومتنفسا مثاليا واجتماعيا ••• ذلك لم يكن على زماننا ••• الذى كان على زماننا بقيــة باقيــة من محافظة أهل التــدين •

الصــلاة المتواضعــة المنكســرة التى شهدنا زملاءنا فى داخلية المدرسة الوســطى يتحمســـون لهــا •••

التحمس كان منبعثــا من روح الصــبا •

عندما مر الســيد على رحمــه اللــه بمحطة بربر ، أحســبه كان قادمــا باكسبريس حلفا من مصر متجها الى الخرطوم ، ذهبوا الى المحطة وزاحموا مع الزحــام عند شــباك القمرة التى كــان هــو فيها •

وكانت الدلوكة (ضرب من الدفوف) تضرب والنســاء يغنين :

يا جيــدْ لينا بى ســيدى

ان شــا الله يطــول عُمُرْ سيــدى

وهى كلمة نشيدية تضيف اليها الشواعر أصنافا من الهزج :

ســيدى مرَّ بالزيــداب وَقفنْ لــه الخُلُوق تيتــابْ

ســيدى مر بالبــابورْ زغردن بنــات كنــُّور

ســيدى قالوا شــال حلفا

قطــره فى القضــيب يلفى

سواقه مكمل العرفه

كِنُّور قرية بين أتبرا وبربر ، أقرب الى أتبرا • وَيلْفَى أى يمس القضبان بسرعة كأنما يتناول بذلك اللَّفاءَ أى الشيء القليل • مكمّل العرفة ، أى بالغ مرتبة الكمال فى معرفة عمله •

كانوا كلهم يتصايحون ، أعنى التلاميذ ، وغيرهم ، رافعى أيديهم نحو نافذة قمرة السيد يطلبون البركة •

ـ يا با هاشم
ـ يا ود مِسَّاوِى

كان يقول ذلك بعض التلاميذ الكبار والصغار •

كان الناس على الجملة فى ذلك الزمان ، أوائل الثلاثين ، بسطاء فيهم سذاجة بداوة قرانا الفقيرة وانسانيتها •

◆◆◆◆◆◆◆◆ ◆◆◆◆◆◆◆

كان « الكبُّ » فى سمعته مذموما

ـ دا واحِدْ كبّاب

يقال ذلك لمن يراد الطعن فيه والدعوة الى الاعراض عنه وعدم الثقة به •

ـ شوف الكبّاب دا •

يقال ذلك لمن يبدى اجتهادا فيقصد الى التهكم به بغرض تثبيطه والفت فى عضده •

ومع أن روح الجماعة كانت هكذا معادية له ـ أى الكب ـ كان أمرا ضروريا لا بد منه لمن يريد النجاح • • •

وكان كل أفراد الجماعة التى روحها معادية له ، يريدون النجاح • • • فنشأ من هذا التناقض عنصر سرية والتواء واضطراب مقاييس ازاء الكبّ • كان الشمع رخيصا ، وحفظه فى « الدولاب » ممكن فى يسر وخفية ••• فاذا نام الآخرون والقى الليل بصدره على الارجاء ، دب الكباب من حيث هو نائم مع رفاقه خارج العنابر على الميادين ، الى داخل العنبر الحار ببقية أنفاس نهار الصيف ، وفتح مصراعى « دولابه » وأوقد الشمعة ، ووضعها

فوق حافة رف الدولاب ، وافترش بطانيته فى ما بين مسافة المصراعين فكانا له ساترين ، واذا كان « دولابه » فى ركن فذلك ستر كامل ، لأن الجدار يستره من خلفه والدولاب نفسه من أمامه .

فاذا اطمأن لهذه الخلوة استخرج أدوات « الكب » : الكراسة وكتاب المقرر وانكب على ذلك انكبابا وأكب أكبابا اذ هو يكب كبا والعرق يسيل من جبينه وفى جلابيته .

ويدخل فى العنبر الذى خالطت ظلمات ركن منه أضواء الشمعة المستورة من كل جانب الا من فوق ، آخر كباب يدب دبيبا . وقد يرفع الذى دخل أولا بصره بدافع من حب الاستطلاع فيعرف من الداخل . ان دخل أحد الروساء أو شخص لا يأمنه فانما هى نفخة واحدة وتختفى الشمعة فى الدولاب ، وشرح مكانه على البطانية غير عسير : شكا ألما صداعا أو نحوه .

وان لم يكن الداخل رئيسا أو شخصا يخشاه فالاشتراك فى سرية جريمة « الكب » يوقع بينهما نوعا من معاهدة عدم اعتداء ـ كأن كلا منهما يدعى عدم احساس بوجود الآخر .

ويوقد الداخل الجديد شمعته ويفتح مصراعى دولابه .

وفى الشتاء ، عندما يكون النوم فى داخل العنابر ، ربما استطاع واحد أو اثنان فتح دولابيهما واستيقاد شمعهما واضفاء ستر من البطانية كالخيمة ليحد من انتشار الضوء .

والكباب الحاذق أكثر ما يصنع فى الشتاء أن يعين لنفسه موضعا خارج العنبر عند ركن يقيه من ريح البرد يأخذ كراسته وشمعته اليه . وربما ذهب بعض التلاميذ فذاكروا عند مصباح الشارع . وكان للطائرات المائية « كشك » وخفير بالقرب من شاطىء النيل شمالى الكلية غربى القنطرة شيئا فكان بعض الطلبة ربما ذهبوا فذاكروا هناك لا يعلم بسرهم أحد .

على أن الكب كان يعلن سر أمره وتنخفض مذمة الاقبال عليه عند اقتراب الامتحانات النهائية . فحينئذ كان يذاكر الطلبة مجموعات مجموعات تستعين

بمن يكون أحذقها فى مادة المـذاكرة ••• فينكفئـون على الكـراريس معا ويتداولون المراجعة لأصـناف العلوم ويحل أبرعهم فى الرياضـيات لهـم مسـائل الجبر والهندسـة ويفسر مغامض علم الحسـاب •

كـان موضـع المذمة فى الكب أنانية طلب الانفراد بالتبريز ـ فمشـاركة الجمـاعة تـذهب بـذلك •

كان طلب العلم فى الزمـان القديم عندنا نوعا من التـدين وروم الزهـد والانقطاع عن الدنيا • وكان العالم يسـمى الفقير • وكان هذا الفقير ربمـا نظر اليـه بمزيج من احترام واسـتضعاف : يحترمـونه لصـلته بالدين والغيبيات ، ويستضعفونه لعدم مشـاركته فى الكسب واعتماده على الصدقة والهـدية ، وأنه لا يشـارك فى القتـال •

لا يناقض هذا معنى الاحترام الذى كانت تجده بعض البيوت الدينية اذ أصـل شرفها من ولاية جـد أنقطع من الدنيا كل الانقـطاع • على أن هذا الاحترام قد أصـابه تضخم بتأثير التركية السـابقة (١٨٢١ ـ ١٨٨٥م) والحكم الثنائى (١٨٩٨ م ـ ١٩٥٦ م) لا أحسبه كان من طبيعة أصـله هذا • ثم ان عدد الفقراء كان قليلا فكان المجتمع يقوى على احتمال اعاشتهم مقابل ما يؤدونه هم من عمل الارشاد الدينى وتعليم القرآن واقامة الشعائر والمواسم والانكحة واصلاح ذات البين والوساطة والتطبيب والعزائم وهلم جرا • ثم بعد هذا كان منهم من يشارك فى نشاط كسـب العيش وفى القتال اذ لزم • وكان يقال : الفقير فلان ماهو فقيرا هِوَيِّن (تصغير هينّ) ، هو عصا وكرباج (الكرباج السوط) يعنون أنه مشارك فى اكثر من نشاط واحد يغنى لصـاحب الفرس والبعير والعصا كناية عن الخدمة والكدح لانها للفـلاح والراعى • هذا ، وكان كلما ازداد انقطاع الفقير الى الذكر والخلوة والعبادة وأمر الدين كان ذلك مما يدنيـه الى الولاية وشرفها الباقى ومما يعتز بـه مجتمعه ويفاخر لما يعـود عليهم من بركته ونفعه وسمعة أحدوثته •

الصـنف الجديد من « فقراء كلية غوردن » كان أمره مختلفا جدا • كان

من البدء معلوما عند الناس أن المدرسة سبيل الوظيفة ومن يوم دخولك المدرسة فهم فى انتظار يوم أن يرتيوك . وفائدة الرتبة كما كان يبدو حينئذ لم تكن تتعدى الفرد وأسرته ، لم تكن شيئا ذا نفع شامل كالصلاح والانقطاع الى الدين الذى كان عند فقراء الخلاوى .

فى المجتمع القروى يفشو الحسد القروى . وأكثر مجتمع السودان ريفى قروى رعاوى لا يشذ عنه فى ذلك الا بعض الاقليات المستوطنة بالمدن وهذه قد جعلت بأخرة تتطبع بطبعه تقية وطلبا للبقاء ، سنة الله فى خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلا .

والحسد القروى أظهر ما يبدو فى معارضة أى ميل يعمد به صاحبه الى بلوغ مستوى من المعيشة والجاه أرفع من مستوى سائر أفراد القرية ولا يستطيعون المشاركة فيه مباشرة .

حتى من يفتح الله عليه بزيادة فى الزرع والضرع يتظاهر بسوى ذلك خوف الحسد والعين .

مع أن الفقر كان غالبا . « والشبع » وهى الكلمة التى كانت تستعمل للدلالة على الغنى انما كان مرتبة من مراتب حال فقرهم المحتملة أكثر منه درجة من درجات ارتفاع المعيشة والثروة وغنى المال الكبير . كان طعام الناس وفراشهم ومساكنهم وزينتهم أمرا متشابها .

أدخلت تلمذة المدارس فى حياة الناس نوعا جديدا من التنافس . بعد مرحلة معارضتها الاولى خشية ما ستجر من فساد كانت معارضة من نوع آخر ... انها ستتيح لبعض الناس فرصة تبريز وجاه يرتفع بهم عن مستوى القرية . ما كان يخطر بالبال أن مثل هذا التبريز وهذا الجاه عسى أن يكون مفيدا للقرية يرتفع به تدريجيا مستواها كلها ... وعسى أن يكون مفيدا للوطن يقوى به على مكافحة صراع هذا العصر الحديث .

فى التجهيزى نفسه كان روح الحسد القروى موجودا ، من جرائه كان انصراف أحد التلاميذ بجد واضح ينظر اليه شزرا لانه محاولة للتبريز .

من فوائد هذا الذى سميناه « الحسد القروى » بالنسبة الى المجتمع

القروى على طبيعته القديمة وفطرته أنه كان بمنزلة الوازع يدفع الى المشاركة والمساواة والتعاون ويحول دون الطبقية ٠

ولكنه تعقد بالنسبة الى المجتمع الجديد فغلب جانب الضرر فيه على جانب كل فائدة ٠

كانت خلفية أفراد تلاميذ التجهيزى ذوى الجلابيب المكوية والعمائم الانيقة والمظهر المتحضر مع الحظ الذى نالوه من علوم اوروبا فى أسرارها وأغوارها قروية رعاوية ريفية بدوية يرين عليها قشر القشف والشظف القديم ٠

كان « الشبع » فى المجتمع القديم لا ينبغى أن يتجاوز أن يكون مرتبة محتملة من مراتب ما فوق الكفاف ٠

والنجاح المدرسى الآن لا ينبغى أن يتجاوز مرحلة محتملة فوق المتوسط الذى عليه سائر الأفراد ٠

والنجاح بعد المدرسى — عندما يتخرج التلاميذ — ينبغى أن يكون بهذا القدر وعلى هذا المستوى ٠

والترقيات تكون بالدفعة ٠ تترقى الدفعة كلها معا ٠

هذا ٠٠٠٠

وكان الاستعمار لا يريد من تلميذ التجهيزى أن يكون نابغة مبرزا ٠ بل هذا كان لا يتصور لاعتقاد الرجل الابيض آنئذ وجود تأخر أصيل (عنصرى قل أو فيزيولوجى) فى أصناف أفراد المجتمعات الافريقية تمنعهم من التبريز ولن يساووا الرجل الابيض أبدا مهما يجتهدوا أو يجتهد لهم ٠ مع هذا ، عملا بسد الذرائع ، كان من يبدو منه من أبناء الاهالى تفوق يشعر بخطر يقال له كنسيتد conceited (أى مغرور) ٠ وهذا يفلل من أنياب تطلعه وحيويته ويجعله ينسجم مع الذى يراد من المجموعة من حيث هى كل واحد ٠

طبيعى أن يسر المدرس الابيض حسن استجابة تلميذ من تلاميذه وذكاؤه ٠ وقد يهم بتشجيعه ٠ ولكن هذا هو الاغراء temptation

الذى تجب مقاومته . التجربة التى تدعو المسيحى ربه ألا يوقعه فيها .
كان الاستعمار يريد من تلميذ التجهيزى أن يكون مواظبا مثابرا نظيفا منتظما مطيعا سعيدا .

قال ابن خلدون رحمه الله فى المقدمة : « ان الخضوع والتملّقَ من أسباب حصول هذا الجاه المحصّل للسعادة والكسب » ...

وهكذا اجتمع الحسد القروى الوطنى السِّنْخ ، مع الحسد الاستعمارى الغازى الأجنبىّ الدخيل على مقاومة التفوق وقتل المواهب وروح الاصالة والتبريز . وكانت تقية الاقليات المستوطنة وحرصها على البقاء الذى قدمنا ذِكرَه ــ وكانت هى موضع ثقة مامن الاستعمار ــ مما يعمق هذا الداء :

وكأَنّا لم يرْضَ فينا بريْب الدّ هرِ حتى أعانَهُ من أعانا

مع هذا كان البرنامج يتطلب من تلميذ التجهيزى أن يكون فى دروسه جيدا حتى يصلح لان يكون أستاذا ومهندسا وطبيبا فى الاطار الوطنى (وطنى ههنا بمعنى native) ومعنى الجودة فى هذه الحالة التوسط الذى يمكن أن يشترك فيه الكثيرون ويعاملون من حيث هم مجموعة وكل .

والكب كان مما يوصل الى هذا المستوى فى حدود المشاركة والسرية التى حددها له مجتمع الكلية .

كما كان فى القرية كل عمل وأمر يشترك فيه الجماعة مقبولا محمودا ــ الموت وسط الجماعة عرس ــ (هكذا يقول المثل) ــ كذلك كان التشارك فى « الكب » مقبولا .

واذ الم يكن التشارك ، كانت السرية فيه ضرورية .

وهما معا (أى التشارك والسرية) من أهم ما كانت تلتمس به أسباب السلامة والبقاء فى مجتمع التجهيزى . وشىء من معدن روحها يبقى بعد التجهيزى ليعين فى حياة الافندية التى انما التجهيزى لها توطئة وتمهيد .

حياة التسابق فى مضمار جاه الترقى وطلب مرضاة الرؤساء • كان الكب لايعدو ما فى الكراسات والكتب المقررة فهذا كان يضمن له توسط الجودة وقطيعيتها •• ذلك هو المطلوب ••ذلك هو طريق الحظ والسعادة •

كان التبريز النادر حين يقع قلما يتجاوز محض المهارة والحذق المحدود الى النبوغ الحقيقى مطابق لاعتقاد عقلية الرجل الابيض فى امكانيات الرجل الافريقى الاسود تماما •

كان يشذ من التلاميذ أفراد ـ يقرأون •

ولكن ما كانوا يقرأونه كان خارجا من نطاق منافسة التبريز فى علوم الدروس فى ما يبدو •

كانت للمكتبة حصة فى الجدول ، ولكنها كانت مثل المذاكرة الرسمية ضعيفة الجدوى اذ كانت بلا طريقة ، وعسى من كان يكلف بها لم يكن بجدواها مؤمنا • حرص المستر سكوت على تحبيب التلاميذ فى المكتبة وجلب اليها فونوغرافا كهربائيا كبيرا وألف أسطوانة كلاسيكية وكان أثر ذلك شيئا مختلطا ••• يقبل عليه من يقبل بحذر ويحجم عنه من يحجم بحذر كسائر شعور الطلبة نحو المستر سكوت •

قراءة المجلات والروايات البوليسية كانت من نوع التسلية الذى لايثير تعليق حسد أو زراية تثبيط • كانت ظاهرة عدم الجدوى ، خارجة عن مضمار المنافسة فى ما يظهر كل الخروج •

كانت قراءة روايات الجيب ربما أفادت اسماح سلاسة فى كتابة الانشاء • ولكن هذا من جدواها لم يفطن له أحد • انما تنبهنا اليه حين مارسنا التدريس • عنصر ضياع الزمن فيها كان واضحا • والذى يقبل عليها بدون شك غير « كباب » ، ولعل فى اقباله عليها هذا نوع بطولة خفيفة الظل تتحدى سماجة كتب المقرر وكراساته •

قراءة كتب الادب أيضا شىء عديم الجدوى أو محصورها فى نظر تلميذ التجهيزى لانها لا تتعدى دائرة الافادة فى مادة اللغة العربية على

أحسن الفروض • وكانت مادة ألعربية من حيث النظـرة الى مستقبل الجاه والوظيفة ونجاح الدنيا لم تكن حقـا محترمـة أو ذات وزن • قارىء كتب الادب ينظـر اليه بنوع من رحمة واستضعاف ، وفى نفس الوقت بنوع من اعجاب واحترام لعله من بقيـة روح احترام الفقراء القـديم • شبح منه بعثتـه العـادة بعـد أن قـد مـات •

لم يكن كبابا • كان يكره الطريقـة التى يرى بها أكثر رفاقـه الكبابين يكبون • وكان يخيل اليه جهـلا أن الاصل فى مذمـة «الكب» أنـه يـدل على البلادة • وكان ينفـر من البلادة كل النفـور • ثم كـان بعض طيش الصبا يزين له أحيانا كثيرة أن يظهر بمظهر بطولة من عـدم الاكتراث بالكب مع هـذا كان يذاكـر •••• هذا أنقذه اذ طوح طيش الصبا ورغبة الظهور ببطولة عـدم « الكب » بأذكياء كثيرين أولى وعـد فكرى واضـح •

عادة القـراءة التى اكتسـبها من أول الصغر لم تدعـه ••

كان يكره ضـوء الشـمع ، ويشمئز من رائحتـه وما استعملـه طـوال سنواته بالكلية كلما انفتح مصراعا دولاب واصـفر الشعاع من تلقائهمـا أو نفخت شعلـة شمعة وفاحت رائحـة دخانها كانت تضيق نفسـه بذلك ضيقا ويزدريه ازدراء • وذلك وجه « كبّاب » بدا ظله مضاعفا على الجدار ، وظل الخيمـة الكبيرة التى هى بطانيتـه

ــ يا خونا ما تخلـونا ننـوم !

ــ نحن عباقـرة زيك ؟

كان يشارك زمـلاءه فى « الكب » الصريح الواضح الذى هو انمـا هـو مذاكرة مراجعة حين يقترب وقت الامتحانات ، فيفيد ويسـتفيد • وربمـا اتفق الرضا عن عبقريته فى هذه الحـال والاعجاب بها

ــ يا اخى ماهـو ممتـاز !!

« والمـوت مع الجماعـة عِرس »

وكان له صحب خارجية فحين يحمى وطيس المذاكرة لقرب الامتحان يقيم مع صديق له منهم اليوم واليومين فيواصلان التحصيل مدة قصيرة ناجعة تتصل فيها قراءة النهار بقراءة الليل فى ضوء مصباح كهربائى باهر واطمئنان مريح بمنآة عن الشمع الخبيث •

كان طول السنة يقرأ ••••

كان يقرأ الكتب المقررة فى أول العام قراءة متصلة ، ربما قرأ أثناء حصص دروس النهار ، يكون المدرس فى واد وهو فى واد آخر ، أمامه كتاب الجغرافيا فى أثناء حصة العلوم لانه بدأه مثلا أول ذلك الصباح ، وكتاب التأريخ فى أثناء حصة الانجليزى لانه على وشك أن يفرغ من قراءته •

كان الاستاذ محمد عثمان مرغنى شكاك ، أثناء تدريسه كتاب المطالعة الانجليزية المترجم من ألف ليلة وليلة من قصة عجيب وغريب ، فربما فطن لذلك من أمره فأشار اليه ليقرأ على غير توقع منه لذلك ، فيضطرب فى معرفة موضع ما انتهى اليه دور القراءة آنذاك ، فيشير اليه أن يخرج • ويضحك زملاؤه الذين كانوا مراقبين لذلك ويتوقعون طرده • زامل هو الاستاذ محمد عثمان مرغنى رحمه الله فى ما بعد فى التدريس لما كان هذا ناظرا لمدرسة التجارة الثانوية الصغرى • وأدرك حينئذ أنه رحمه الله كما كان يروم تأديبه وعظته وعظة زملائه بذلك الطرد له ، كان أيضا لم يخل من القصد الى أن يتيح له فرصة متابعة ما كان يقرأه بتركيز شديد • كان يناديه قبل انتهاء الحصة ، فربما طلب منه أن يقرأ ولا يعلق على ما كان بشىء • وكان تكرر منه مرات جعله اذا وقف فاضطرب فى معرفة موضع دوره من القراءة بادر أحد زملائه من ورائه فقال له : « أخرج » • وتقع الاشارة من الاستاذ بذلك فى ما بعد •

وربما أشار الاستاذ محمد عثمان الى المبادر هو نفسه أيضا أن يخرج — ويضحك الفصل ••

ولا يضحك الاستاذ •••

بل كان يشـــير بهدوء براحة يده كلها علامة طلب السـكوت ••• رحمة الله عليه رحمة واسعة •كان من أفذاذ قدماء الخريجين ومات ولم يبلغ الخمسين• جمع الى الثقـــة بالنفس بساطة بلدية غير متكلفة ولا ساذجـة مع حـــزم وواقعية ووضوح تفكير وقوة عارضـــة ، وشجاعة رأى • كان تخصصه فى علم الاقتصـــاد ، ودرسنا مبادئه وكان ذلك مقررا علينا فى السنة الثالثـــة • فأمثال (النفع الضعيف أو الهامشى) Marginal utility

و (قاعدة العائد المتناقص أو المتلاشى أو قانـــون العائد المتناقص الخ)
انما أفدناها منه • وكان يجتهد أن يطبق علم الاقتصـــاد تطبيقا عمليـا •

ومن خير أمثلة ما صنـــع من ذلك انشاؤه نادى الصغار لطلبة كلية غوردن ، فكان ناجحا ، تولى ادارة دكان بقالة الكلية ومقهاها ، وأفاد منه الطلبة الذين اشتركوا وساهموا خبرة جيدة وبعض مال • وانشأ ناديا مثل ذلك فى مدرسة التجـــارة الثانوية الصغرى حينما تولى نظارتها •• وكان رحمه الله حسن التدبير للمال ، ينتقد أشـــد الانتقاد ما كان عليه جيل شبابنا آنئذ من تبذير وســـوء تدبير ، ولا يرى تدخين السجائر الا طيشا بالغا ، لانه ، كما كـــان يقول ، انفاق فى غير مقابل ، اذ لا يفيد صاحب دخـــان السجائر لذة حقيقية كما يفيد صـــاحب الخمر مثلا على اســـتهجان هذه وحُرْمتها • وكان يعـــين بالمال حين يستعان ويســـاعد بلا تردد حين يقتنع بضرورة ذلك • هـــذا وله تصانيف ، فكان من أول من صنفوا من رواد فكرنا الحـــديث • منها كتابـــه « أسفار محمد عثمان مرغنى » ووصـــف به رحلة بعثة بعثها وكان من أوائل من أوفدوا الى شـــمال نيجريا ليعينوا فى أمر التعليم هناك ، ووصـــفه لتلك البـــلاد أيام بعثته فيها ممتع ومفيد وسجل لظواهر اجتماعية لعلها الان أن تكـــون قد تغيرت كل التغير • ولعل من أثر تلك الرحلة على الاستاذ محمـــد عثمان مرغنى أنه كان قوى الايمان بمنفعـــة الرحـــلات المدرسية للطلبة ، فكان أول من نظم لطلبة الكليـــة رحلة مرتبطـــة بدروســـه فى الاقتصـــاد ، سافر بهم فيها الى المديريـــة الشمالية ليروا مشاريعها • واتبع منهجها من

بعد... نظمت رحلة لنا لما كنا بالسنة الثالثة (فى سنة ١٩٣٨ م) فزرنا بورسودان وأركويت ، لنستكمل الصورة التى كنا المنا بها من قبل من زيارة قصر الحاكم العام ، اذ كانت أركويت مصطافه • وقد كانت أركويت مصطافا لاهل سواكن فى الزمان القديم • ومن ناحيتها نجم الامير عثمان دقنه بطل حروب المهدية المشهور • وبورسودان أنشأها الانجليز ليخملوا بها سواكن ، ومما يزعم أن ميناء سواكن لم يكن ليصلح للسفن الحديثة • وفى الامر نظر • وصدقت صاحبة سبأ اذ قالت ان الملوك اذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة اهلها اذلة •

هذا ، ثم نظمت لسائر دفعتنا ونحن بالسنة الرابعة رحلة كبيرة فزرنا مناطق مختلفة من مديرية كردفان •

هذا ومن تصانيفه كتاب فى حساب « الدوبية » ومسك الدفاتر الحديث منه أفاد تجارنا ، وعلى الطريقة التى وضعها كانوا يعتمدون ، وربما استعان به بعضهم أحيانا فى مراجعة دفاترهم • وكان الغالب على التجار أولاد البلد الاعتماد على الذاكرة والقصاصات والكتابة بلا منهج • وهذه الفوضى كانت تنعكس فى طريقة عرضهم بضائعهم • فالذى حاوله محمد عثمان مرغنى من الاصلاح فى هذه الناحية كان عظيم الفائدة وهادفا الى تطوير البلد فى غير ما كبير دعاية • هذا وكان رحمه الله له مكان بارز فى أوائل الحركة الوطنية ومؤتمر الخريجين • وكان يلبس الدمور لانه صناعة وطنية وشبط ملجأ القرش وأحسبه كان عضوا فى لجنته • وانتخب مرارا فى لجنة المؤتمر الستين وفى لجنته التنفيذية وهى لجنة الخمسة عشر • وفى سنة ١٩٤٢ م كان صوته فى هذه اللجنة ، حين استوت أصوات الجانبين المتنافسين هو الذى رجح رئاسة الاستاذ ابراهيم أحمد ، فى ما بلغنا ، وكان ذلك عام المذكرة التى تقدم بها الخريجون الى السير دغلاس نيوبلد Sir Douglas Newbald وكان السكرتير الادارى آنئذ The Civil Secretary أى رئيس الحكومة • وقد ورد نصها

وهى باللغة الانجليزية فى الكتاب المتضـمن رسائل السـير دغلاس نيوبلد نشر بانجلتـرة •

انما أنشـئت كلية غوردن لتكفر عن قتلى كررى بانسـانيتها فيما زعموا ، ولتدرب أبناء الاهالى على ما عسى أن يمكنهم من معاونةرجال الحكم الثنائى الانجليـز ، من حكم الاهـالى السـودانيين •

الآن خريجو كلية غوردن ، ممثلين فى مؤتمرهم ولجنتيه الستين والخمسة عشر ورئيسـهم الاسـتاذ ابراهيم أحمد الذى عرف بأنه رجـل معتـدل الرأى reasonable man قد تقدموا بمذكرة يطالبون فيها بحق تقرير المصير •
أى بانهـاء دور المعـين فى حكم الاهـالى ليباشروه هم بأنفسـهم ••• وقديما قـال جذيمة الابرش لابن أخته عمرو بن عـدى :

أُعلمـه الرمـاية كل يـوم فلما اشـتد سـاعده رمانى

وتلك الايـام نُداولهـا بـين النـاس •

ولو لا دفـعُ اللهِ الناسَ بعضَـهم ببعضٍ لفسَـدتِ الأرضُ ولكنَ اللهَ ذو فضـلٍ علـى العـالمين •

توفى محمد عثمان مرغنى شكاك رحمه الله سنة ١٩٤٧م فى صيفها بداء القلب والبلد اليه أحوج ما تكو ن• وقد أخذ الصراع الوطنى يحتد م•
وأدرك شـهرزاد الصـباح فسـكتت عن الكـلام المباح ••• أم للكـلام بقيـة والحـديث ذو شـجون •

والحمد لله أولا وأخيرا وصلى الله على سـيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسـلم تسـليما كثـيرا •••

صلاة ننجو بها من الأهوال

وننتصر على كل حال

آمين

فــاس ١٥ ربيع الثــانى
١٤٠٠ هـ

وهى آخر أعــوام القــرن
الرابع عشر الهجــرى كما
لا يخفى ،

وفى منظومة ولــد دوليب :
واختلفوا فى رابع القرون
هل كاملٌ أو ناقص التكوين
والله تعالى
أعلــم ٠
عبد الله الطيب

